رحمة

الرحمن الرحيم

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

رحمة
الرحمن الرحيم

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

تأليف
د/ حمد بن إبراهيم العثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

رحمة الله علينا في خلقنا وإيجادنا وهدايتنا ورزقنا وعافيتنا وتوفيقنا للإسلام، واصطفائنا للسنة، وإرسال نبينا محمد ﷺ إلينا وإنزال القرآن عليه، وتسخير ما في السموات والأرض لنا لنستعمل النافع المباح منها في تحقيق العبودية لله، إلىٰ ما لا يأتي عليه الحصر من نعم الله وأفضاله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨] رحمة نعيشها ولا نستغني عنها، ونشكر الله عليها، ونسأله أن يزيدنا من فضلة آمين.

الناس كلهم يعيشون في رحمة الله؛ مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، ومنهم من أدركته رحمة الله الخاصة؛ فهداه للإسلام، وبحسب قيام الناس بأركانه وأحكامه وواجباته وسننه تدركهم رحمة الله.

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولىٰ خلقه حفظًا ورزقًا، وقد نشر رحمته علىٰ خلقه.

ومن قام بالأسباب التي تنال بها رحمة الله؛ فهو الذي رحم نفسه، ومن

تعرض لأسباب سخط الله؛ فهو الظالم لنفسه.

لله مائة رحمة، جعل منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق، وادّخر تسعًا وتسعين للدار الآخرة، أحوج ما يكون الناس حينئذ إلىٰ رحمة الله وعفوه ومغفرته. الرحمة الواحدة التي غمرتنا في الدنيا؛ هي دليل علىٰ عظيم ما سيرحم الله به عباده المؤمنين في الدار الآخرة، فالسعيد من تعرّض لرحمة الله، وقام بأسباب تحصيلها.

رحمة الله يتراحم بها الخلق جميعًا، وبها تعطف الوحوش علىٰ أولادها، هذه الرحمة والرحمات المنتظرة في الدار الآخرة بيانها، والبشارة بها، وبيان أسباب إدراكها؛ هو من الرحمة التي آتاها الله من قام ببيان شيء منها وهدىٰ إليها، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

وكتبه

حمد بن إبراهيم العثمان

❁ ❁ ❁

الرحمة

أقول في معنىٰ «الرحمة»؛ ما قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ «المحبة»[١]: «الحدود لا تزيدها إلا خفاءً، فحدها وجودها».

وروي عن أبي الضحىٰ، قال: قيل لشُتَيْرِ بن شَكَلٍ: أسمعت عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: ما في كتاب الله آية أشدّ تفويضًا من قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؟ فقال: نعم[٢].

ومعنىٰ كلام ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن مفهوم «الرحمة» لا يخفىٰ بحيث يحتاج إلىٰ بيان، فهذا مقصوده بالتفويض؛ لأن البيِّن بنفسه إذا قصدت بيانه؛ صار غامضًا، والغامض هو الذي يحتاج إلىٰ بيان، لا العكس.

فالرحمة لم يتكلف إلىٰ بيان معناها السلف لأنها معلومة، ولم يقصدوا

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٠).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٧٨).

بذلك تفويض المعنىٰ.

قال قَوَّام السنة أبو القاسم إسماعيل التيْمي الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٣٥هـ)**[١]:

«قال علماء السلف: جاءت الأخبار عن النبي ﷺ متواترة في صفات الله تعالىٰ، موافقة لكتاب الله تعالىٰ، نقلها السلف علىٰ سبيل الإثبات والمعرفة والإيمان به والتسليم، وترك التمثيل والتكييف، وأنه عَزَّوَجَلَّ أزلي بصفاته وأسمائه التي وصف بها نفسه، أو وصفه الرسول ﷺ بها، فمن جحد صفة من صفاته بعد الثبوت؛ كان بذلك جاحدًا، ومن زعم أنها محدثة لم تكن، ثم كانت؛ دخل في حكم التشبيه في الصفات التي هي محدثة في المخلوق، زائلة بفنائه غير باقية، وذلك أن الله تعالىٰ امتدح نفسه بصفاته، ودعا عباده إلىٰ مدحه بذلك، وصدّق به المصطفىٰ ﷺ، وبيّن مراد الله فيما أظهر لعباده؛ من ذكر نفسه، وأسمائه، وصفاته، **وكان ذلك مفهومًا عند العرب، غير محتاج إلىٰ تأويله**، فقال تعالىٰ: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال النبي ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: إني حرّمت الظلم علىٰ نفسي**»، وقال النبي ﷺ بيانًا لقوله : «**إن الله كتب كتابًا علىٰ نفسه، فهو عنده: إن رحمتي تغلب غضبي**»؛ فبيَّن مراد الله تعالىٰ فيما أخبر عن نفسه تعالىٰ».

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٦٩-١٧١).

وقال قَوَّام السنة أبو القاسم التَّيْمي الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ - **أيضًا** - **في «اعتقاد أهل السنة والجماعة»**[١]: «الصفات التي وردت بها الأخبار، مثل: الكف، والقدم، والأصبع، فإنه يجب إطلاق القول بها علىٰ ما ورد بها الخبر، من غير أن يصوّر ذلك في الفكر، أو تخيّل أو توهّم، وله رحمة وغضب، وإرادة ومشيئة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن أهل السنة يصفونه بالقدرة الإلهية، والحكمة، والرحمة، وهم الذين يعبدونه ويحمدونه، وأنه يجب أن يكون هو المستحق لأن يُعبد دون ما سواه، والعبادة تتضمن غاية الذل، وغاية الحب».

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيِّنًا ضلال الجهمية في اعتقادهم في أسماء الله وصفاته**[٣]: «وفي أول ما نزل - سورة اقرأ - وَصَفَ نفسه: بأنه الذي خلق، وبأنه الأكرم، والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقًا - مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقًا -؛ لا يصفونه بالكرم، ولا الرحمة، ولا الحكمة.

وإن أطلقوا ألفاظها، فلا يعنون بها معناها؛ بل يطلقونها لأجل مجيئها

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٠٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٢٩٦).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٢٩٧).

في القرآن، ثم يلحدون في أسمائه، ويُحرِّفون الكلم عن مواضعه».

والإرادة التي يثبتها الجهمية لم يدل عليها سمع ولا عقل، فإنهم يثبتون إرادة ترجِّح مرادًا علىٰ مراد بلا سبب يقتضي الترجيح[١]، والله عَزَّوَجَلَّ لا يشاء ولا يريد إلا لحكمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته؛ فإنها صادرة عن حكمته وعن رحمته، ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا، لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لَلَّهُ أرحم بعباده من الوالدة بولدها**»».

ورحمة الله تستلزم عفوه ومغفرته، وتوبته وإحسانه، وإنعامه وتفضله، كما أن غضبه يستلزم عقوبته، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ومن أعظم ما تستلزمه الرحمة: الهداية، والتزكية، وحسن الثواب؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٣٠٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٢٩٩).

النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد ينجيه عمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الرحمن الرحيم»: وصف بالرحمة المتضمنة لإحسانه إلىٰ العباد بمشيئته وقدرته أيضًا، والخير يحصل بالقدرة والإرادة التي تتضمن الرحمة.

فإذا كان قديرًا مريدًا للإحسان؛ حصل كل خير، وإنما يقع النقص لعدم القدرة، أو لعدم إرادة الخير، فالرحمن الرحيم الملك، قد اتصف بغاية إرادة الإحسان، وغاية القدرة؛ وذلك يحصل به كل خير؛ خير الدنيا والآخرة».

فالرحمة صفة لله، نثبتها له سبحانه علىٰ حقيقتها، وبيان ما تتضمنه من الإحسان إلىٰ العباد؛ هو بيان لما في هذه الصفة مما تتضمنه من معاني الصفات الأخرىٰ، فهذا توحيد، ليس كتعطيل المبتدعة الذين فسروا الرحمة بالإرادة، معتذرين بأن الرحمة رقة تعتري طبيعة الحيوان، يتنزه الله عنها[2]! فوقعوا في رجس التجسيم والتشبيه أولًا، وهو الذي أوقعهم في ضلال تعطيل هذه الصفة العظيمة، التي لا ينكرها إلا شقي؛ فالله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ٩١).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٢).

ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، والرحمة صفة الله، والله يرحم خلقه برحمته؛ فالله هو الرحمن الرحيم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما الجمع بين «الرحمن الرحيم»، وهو: أنَّ الرحمن دالٌّ علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌّ علىٰ تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل؛ فالأول دال علىٰ أنَّ الرحمة صفته، والثاني دال علىٰ أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا؛ فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

ولم يجئ قط: «رحمن بهم»، فعُلم أن «رحمن» هو الموصوف بالرحمة، و«رحيم» هو الراحم برحمته».

ومشركو العرب في الجاهلية تحذلقوا، وزعموا - تكذيبًا وبَهتًا وعنادًا - أنهم لا يعرفون الرحمن الرحيم، ففي صلح الحديبية؛ قال النبي ﷺ لعليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما أمره بكتابة الصلح مع كفار قريش، وبحضورهم: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**»؛ فقال الكفار: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة».

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٤٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحودٌ، وعنادٌ، وتعنُّتٌ في كفرهم؛ فإنه قد وُجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالىٰ بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد بعض الجاهلية الجُهَّال:

ألا ضربَتْ تلك الفتاةُ هجينها ... ألا قَضَبَ الرحمن ربي يمينَها

وقال سلامة بن جندب الطُّهَوي:

عجلتُم علينا عَجْلتَينَا عليكم ... وما يشأ الرحمنُ يَعقِدُ ويُطْلِق».

وقال الحافظ ابن كثير - أيضًا - رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «اسمه تعالىٰ (الرحمن) خاصٌّ به، لم يُسَمَّ به غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. ولما تَجَهْرَمَ مسيلمة الكذاب، وتسمىٰ برحمان اليمامة؛ كساه الله جلباب الكذبِ. وشَهَّرَ به؛ فلا يُقال إلا: مسيلمة الكذاب؛ فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المَدَر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أنَّ (الرحيم) أشدُّ مبالغةً من (الرحمن)؛ لأنه أُكِّد به،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٢، ٤٣).

والمؤكِّد لا يكون إلا أقوىٰ من المؤكَّد.

والجواب: أن هذا ليس من باب التأكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكروه، وعلىٰ هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يُسمَّ به أحدٌ غيره، ووصفه أولًا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تَجَهْرَمَ مسيلمة اليمامة في التسمِّي به، ولم يتابعه علىٰ ذلك إلا من كان معه في الضلالة.

وأما (الرحيم) فإنه تعالىٰ وصف به غيره؛ حيث قال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالىٰ ما يُسمَّىٰ به غيره، ومنها ما لا يُسمَّىٰ به غيره؛ كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق، ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخصُّ وأعرَفُ من الرحيم؛ لأن التسمية أولًا إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخصِّ فالأخص».

وأورد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سؤالًا، فقال: ما الحكمة في اقتران الرحمة

والبركة بالسلام؟

وأجاب بقوله[١]: «لما كان الإنسان لا سبيل له إلىٰ انتفاعه بالحياة إلا بثلاثة أشياء:

أحدها: سلامته من الشر، ومن كلِّ ما يضاد حياته وعيشه.

والثاني: حصول الخير له.

والثالث: دوامه وثباته له.

فإن بهذه الثلاثة يكمل انتفاعه بالحياة؛ فشُرعت التحية متضمِّنة للثلاثة، فقوله: «سلام عليكم» يتضمن السلامة من الشر، وقوله: «ورحمة الله» يتضمن حصول الخير.

وقوله: «وبركاته» يتضمن دوامه وثباته، كما هو موضوع لفظ البركة، وهو كثرة الخير واستمراره.

ومن هنا يعلم حكمة اقتران اسمه «الغفور» تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ باسمه «الرحيم» في عامة القرآن.

ولما كانت هذه الثلاثة مطلوبة لكل أحد، بل هي متضمنة لكل مطالبه،

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٦٩).

وكلُّ المطالب دونها وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها؛ جاء لفظ التحية دالًّا عليها بالمطابقة تارة - وهو «كمالها»، وتارة دالًّا عليها بالتضمن، وتارة دالًّا عليها باللزوم؛ فدلالة اللفظ عليها مطابقة إذا ذُكرت بلفظها، ودلالته بالتضمن إذا ذكر السلام والرحمة؛ فإنهما يتضمنان الثالث، ودلالته عليها باللزوم إذا اقتصر علىٰ لفظ السلام وحدَه؛ فإنه يستلزم حصول الخير وثباته، إذ لو عُدم؛ لم تحصل السلامة المطلقة، فالسلامة مستلزمة لحصول الرحمة - كما تقدم تقريره -.

وقد عُرف بهذا فضل هذه التحية، وكمالُها علىٰ سائر تحيات الأمم؛ ولهذا اختارها الله لعباده، وجعلها تحيتهم بينهم في الدنيا، وفي دار السلام، وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكماله».

وتحدّث شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن معنىٰ اسم الله «الرحمن» إذا ورد مفردًا، وكذلك إذا ورد مقرونًا باسمه «الرحيم»؛ فقال[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ صفة للفظ الجلالة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة أخرىٰ، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وصفه؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فعله، ولو

(١) تفسير سورة الفاتحة والبقرة (١/ ١١).

أنه جيء بـ«الرحمن» وحده، أو بـ«الرحيم» وحده؛ لشمل الوصف، والفعل، لكن إذا اقترنا؛ فُسِّر ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالوصف؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالفعل».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من فوائد الآية[2]: إثبات هذين الاسمين الكريمين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

ومنها: أن ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ مبنية علىٰ الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالىٰ لما قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، كأنَّ سائلًا يسأل: «ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ وانتقام، أو ربوبية رحمة وإنعام؟»؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قوله تعالىٰ**: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤][3]: «تفيد أنه عَزَّوَجَلَّ أهل لأن يُستغفر، وأنه إذا استُغفر غفر؛ لأنه غفور رحيم، ودائمًا يقرن الله تعالىٰ بين هذين الاسمين الكريمين؛ لأن الأول يزول به المرهوب وتُغفر به الذنوب، وبالثاني يحصل المطلوب؛ لأن الرحمة جلب الخير والإحسان».

---

(١) تفسير سورة الفاتحة والبقرة (١/ ١١).

(٢) من سورة الفاتحة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

(٣) تفسير سورة المائدة (٢/ ٢١١).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا معنىٰ أسماء الله الحسنىٰ [الرحمن، الرحيم، البَرِّ، الكريم، الجواد، الوهاب، الرؤوف][1]: «هذه الأسماء الكريمة متقارب معناها، وكلُّها تدل علىٰ أنَّه موصوف بكمال الرحمة، وسعة البرِّ والإحسان، وكثرة المواهب والحنان والرأفة.

فجميع ما في العالم العلوي والسفلي؛ من حصول المنافع والمحاب، والمسارِّ والخيرات؛ فإنَّ ذلك منه، ومن رحمته وجوده وكرمه وفضله، كما أنَّ ما صرف عنهم من المكاره والنقم، والمخاوف والأخطار والمضار؛ فإنَّها من رحمته وبره؛ فإنَّه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو.

ورحمته تعالىٰ سبقت غضبه، وغلبته، وظهرت في خلقه ظهورًا لا يُنكر، حتىٰ ملأت أقطار السموات والأرض، وامتلأت منها القلوب، حتىٰ حنَّت المخلوقات بعضُها علىٰ بعض بهذه الرحمة التي نشرها عليهم، وأودعها في قلوبهم، وحتىٰ حنَّت البهائم، التي لا ترجو نفعًا ولا عاقبة ولا جزاءً؛ علىٰ أولادها، وشوهد من رأفتها بهم، وشفقتها العظيمة؛ ما يشهد بعناية باريها ورحمته الواسعة، وعمَّت مواهبه أهل السموات والأرض، ويسَّر لهم المنافع، والمعايش، والأرزاق، وربطها بأسباب ميسَّرةٍ، وطرقٍ مسهلةٍ، فما

(١) فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام (ص٢٣، ٢٤).

من دابة في الأرض إلا علىٰ الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، وعلم تعالىٰ من مصالحهم ما لا يعلمون، وقدَّر لهم فيها ما لا يريدون، وما لا يقدرون، وربما أجرىٰ عليهم مكاره توصلهم إلىٰ ما يحبون، بل رحمهم بالمصائب والآلام؛ فجعل الآلام كلَّها خيرًا للمؤمن الذي يقوم بوظيفة الصبر: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير؛ إن أصابته سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكذلك ظهرت رحمته في أمره وشرعه ظهورًا، تشهده البصائر والأبصار، ويعترف به أولو الألباب.

فشرعه نور ورحمة وهداية، وقد شرعه محتويًا علىٰ الرحمة، وموصلًا إلىٰ أجل رحمة وكرامة وسعادة وفلاح.

وشرع فيه من التسهيلات، والتيسيرات، ونفي الحرج والمشقات؛ ما يدل أكبر دلالة علىٰ سعة رحمته، وجوده، وكرمه. ومناهيه كلُّها رحمة؛ لأنها لحفظ أديان العباد، وحفظ عقولهم، وأعراضهم، وأبدانهم، وأخلاقهم، وأموالهم؛ من الشرور والأضرار.

فكلُّ النواهي تعود إلىٰ هذه الأمور، وأيضًا الأوامر سهَّلها، وأعان عليها بأسباب شرعية، وأسباب قدرية، وذلك من تمام رحمته، كما أنَّ النواهي جعل عليها من العوائق والموانع، ما يحجز العباد عن مواقعتها؛ إلا من أبىٰ وشرد، ولم يكن فيه خير بالكليَّة.

وشرع أيضًا من الروادع، والزواجر، والحدود؛ ما يمنع العباد ويحجزهم عنها، ويقلِّل من الشرور شيئًا كثيرًا.

وبالجملة: فشرعه وأمره نزل بالرحمة، واشتمل علىٰ الرحمة، وأوصل إلىٰ الرحمة الأبدية، والسعادة السرمدية».

❁ ❁ ❁

غفور رحيم

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]؛ قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم علىٰ العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته؛ ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب، إن لم يأت بها العبد؛ فقد أغلق علىٰ نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره: الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلىٰ هذا السبب الأجلِّ، والطريق الأعظم.

ولهذا أمر تعالىٰ بالإنابة إليه، والمبادرة إليها».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٧٠).

مائة رحمة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوامِّ؛ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش علىٰ ولدها، وأخَّر تسعًا وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة**» متفق عليه.

هذا الحديث من أعظم البشارات للناس، خصوصًا المؤمنين، بما ينتظرهم من الرحمة في الدار الآخرة.

فهذا الحديث يزيد في رجاء المؤمنين وحسن ظنهم بالله، فإذا أدركنا من رحمة واحدة في الدنيا خيرًا كثيرًا لا نحصيه، وفضلًا عظيمًا نعيشه وندركه في كل لحظة من حياتنا، فما نرجوه من الرحمن الرحيم الودود الغفور في الآخرة من تسعة وتسعين ضعفًا فوق ما يخطر علىٰ بال، فضلًا عن أن يُدْرِكَ وصفَه مقالٌ.

ومن رحمة الله بنا أنه ادَّخر لنا التسعة وتسعين رحمة للدار الآخرة، ليوم الحساب أحوج ما نكون فيه إلىٰ رحمة الله وعفوه ومغفرته وإحسانه وجوده.

وهذا الحديث دال علىٰ كمال الله، وهو من موجبات زيادة محبته والتأله له، فإن من علم أن ربه يجزي بالإحسان إحسانًا، ونشر علىٰ خلقه من رحمة واحدة خيرًا عميمًا وفضلًا كبيرًا ونعمًا لا تحصىٰ، وأن ما ينتظره يوم الإكرام تسعة وتسعين ضعفًا؛ أوجب له أداء حق الله ولزوم طاعته وشكره، وسؤال الله المزيد من فضله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مبينًا ما أصاب الناس من رحمة الله في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة مما هو أعظم مما أدركوه في الدنيا -[١]: «رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيمًا بالمؤمنين حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر؛ فنسأل الله أن لا يحرمنا خيره بشرِّ ما عندنا».

وبيَّن العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما توجبه المعرفة لمعاني «رحمة الله» من تحقيق التوحيد والعبودية لله؛ فقال[٢]: «الرحمة العظيمة التي لا يماثلها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٩٤).

(٢) تيسير اللطيف المنَّان (ص٢٨).

رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمَّت كل حيٍّ.

فبرحمته وُجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عن العباد كل نقمة، وبرحمته عَرَّفَ عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم؛ بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة - دقَّت أو جلَّت - فمن الله، وأن أحدًا من المخلوقين، لا ينفع أحدًا؛ علم أنه لا يستحق العبادة إلَّا المتفرد بالنعم، الدافع للمكاره، وتعيَّن علىٰ العباد أن يفردوه بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات».

ومن رحمة الله بنا أن خلقنا علىٰ الفطرة، وكمَّل فطرنا بالشرع المنزَّل علىٰ خاتم الرسل، وأنَّه حبَّب إلينا الإيمان وزيَّنه في قلوبنا، وكرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وجعل ما شرعه لنا وفرضه علينا من طاعته؛ قرة أعيننا، وسببًا لحياتنا الطيِّبة، واطمئنان نفوسنا، وحفظ أبداننا، والبركة في أوقاتنا وأعمارنا، وأنه أرانا من ثواب هذه الحسنات في الدنيا قبل الآخرة؛ ما أوجب لنا مداومة السير إلىٰ الله، والأنس والفرح بطاعته وذكره ومناجاته وإقامة شرائعه.

ومن رحمة الله بنا: أن دلَّنا علىٰ كل خير، وكل ما تصلح عليه أحوال البلاد والعباد، ونهانا عن كل شر يضر بأدياننا وأبداننا وديارنا.

ومن رحمة الله بنا: أنه لم يكلفنا ما يشق علينا ولا ما يوجب العنت لنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج، وأنه أحب لنا الرُّخص حيث شرعها بأسبابها.

ومن رحمة الله بنا: أنه أورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، وبارك في الأرض وفي أقواتها، وجعل النافع حلالًا ننعم به بما يرضي ربنا.

ومن رحمة الله بنا: حفظه لنا - سبحانه -، وأساس هذا الحفظ الإلهي: أن يحفظ العبد نفسه في أمر الله ونهيه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يدفع عنا مصارع السوء بأعمال يسيرة كالصدقة.

ومن رحمة الله بعباده: أنهم إذا زلوا أو أخطئوا يتجاوز عنهم بأسباب كثيرة؛ كالاستغفار والصدقة والحسنات الماحية، وأنه لا يعاجل عباده بالعقوبة، بل يستعتبهم لعلهم يرجعون.

ومن رحمة الله بعباده: أنه يكشف الضراء والبأساء إذا أخلص العباد في الالتجاء إليه، وأن ما يُنزل بهم من ذلك فهو لحكمة.

ومن رحمة الله بعباده: مضاعفة حسناتهم، وجزاء سيئاتهم بمثلها، وإذا

همُّوا بعمل صالح ولم يعملوه؛ كُتب لهم ثوابه، وإذا همُّوا بسيئة ولم يعملوها؛ كُتبت لهم حسنة.

ورحمة الله كمال؛ لأن الله جعل أحق الناس بها المتقين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فليس من الحكمة أن ينالها من أتىٰ بأسباب سخط الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠]؛ متضمنٌ لإثبات صفة الحكمة والعلم، اللذين هما مصدرُ الخلق والأمر؛ فجميعُ ما خلقه سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من: القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التَّام.

والحكمة تتضمنُ كمالَ الإرادة، من: العدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبرِّ، ووَضْع الأشياء مواضعها علىٰ أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب».

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٧٩، ٨٠).

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه تعالىٰ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمَّت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة؛ لأنه الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر، وتوليه عن الأمر؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير اللطيف المنَّان (ص١١).

الإيمان بالله واليوم الآخر، وبرحمة الله؛ متلازمان

الإيمان بالله واليوم الآخر وبرحمة الله؛ متلازمان، فالرحمة التي يرجو المسلمون أن تغشاهم وتحيطهم يوم الحساب؛ أوجبت لهم العمل لذلك اليوم العظيم.

والله عَزَّوَجَلَّ رحمته أدركت عباده المؤمنين في الدنيا؛ فآمنوا بالله، وهداهم الله، واصطفاهم للإسلام، فما يرجونه من الرحمة في الآخرة أعظم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الإيمان بالله والدار الآخرة، يستلزم إرادة العبد لرحمة الله، والدار الآخرة بأعماله».

فالمؤمنون آمنوا بالله، وأسمائه، وصفاته، وتعبدوا لله بمعانيها التي حملتهم علىٰ العمل لله، مخلصين له وحده لا شريك له، وتيقنوا أن الله يقبل من الأعمال أخلصه وأصوبه، وأن الله يضاعف الحسنة إلىٰ عشر أمثالها، إلىٰ

(١) عِدَة الصابرين (ص٢٥٦).

سبعمائة ضعف؛ بحسب إخلاصهم لله، ومتابعتهم لرسوله ﷺ، ويعلمون من رحمة الله ما يوجب لهم الرجاء للقائه، ويؤمنون بموجب أسمائه وصفاته، وأن الله «كريم»، ومن كان هذا شأنه؛ فإنه لا يستقصي في حساب أوليائه، كما قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فمن علم أن ربه عفوٌّ ودود؛ رجا عفوه، ومغفرته، وإحسانه، ورحمته؛ فشأن المؤمنين كما قال الله عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: ٩٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كلُّ من آمن بالله واليوم الآخر، آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد؛ وهو القرآن».

والقرآن جعل الله الرحمة في اتباعه؛ لأنه يهدي إلىٰ كل خير، وينهىٰ عن كل شر، ويهدي إلىٰ طريق الجنة والنجاة من النار، فمن أراد الرحمة؛ آمن به، وأخذ بما فيه من كل خير.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٢٩).

والكافر الذي لا يؤمن بالآخرة، لا يعمل ليوم الحساب ولا يخشاه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٠]، والموحدون المؤمنون يعملون ليوم القيامة؛ ويخشون أهواله، ويخافون من تقصيرهم، ويرجون عفو الله ورضاه؛ قال تعالىٰ في شأن المؤمنين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسًا قَمۡطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]. ومن خاف أهوال الآخرة، وعذاب النار؛ سارع إلىٰ ما يجيره منها بالإيمان بالله والعمل الصالح، قال النبي ﷺ: «**من خاف أَدْلَجَ، ومن أَدْلَجَ بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**».

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وبيّن الله السبب الموجِب للنجاة، وإدراك رحمة الله في الدار الآخرة، والفوز بالجنة؛ فقال سبحانه: ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: رجوعها، وموئلها، ومنتهاها؛ فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٨٩).

أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم؛ فليستعدوا لذلك الأمر».

ومن التلازم بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين رحمة الله: أن الله أرىٰ خلقه في الدنيا، من جنس ما يؤول إليه مصيرهم في الآخرة؛ ما يوجب لأهل الإيمان والطاعة لزوم ما هم عليه من السير إلىٰ الله، والازدياد من استباق الخيرات؛ فوجوه المؤمنين في الدنيا فيها نَضْرَة الإسلام، وبهجة الإيمان، ونور الطاعات؛ ووجوه الكافرين مظلمة، وقلوبهم ضنكة؛ يستعتبهم الله لعلهم يهتدون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا علىٰ حسن عمله واعتقاده؛ يظهر في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨] الآية، فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة».

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلىٰ قسمين: قسم مبيضة وجوههم، وهم أهل

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٣٥٢).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٩، ٣٠).

الإيمان والطاعة، وقسم مسودة وجوههم، وهم أهل الكفر والعصيان».

وقال الله عَزَّوَجَلَّ **مبينًا حال المؤمنين:** ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

قال شيخنا العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ هم المؤمنون ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، «في» للظرفية، ورحمة الله هنا ليست الرحمة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨]؛ لأن هذه صفة الله، أمّا هنا ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ فهي مخلوق الله، والمراد بها: الجنة، كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الله قال لها** - أي الجنة -: **أنتِ رحمتي، أرحم بك من أشاء**»».

وقال أيضًا[٢]: «وأطلق عليها اسم الرحمة؛ لأنها كانت برحمة الله، يرحم الله بها من يشاء من عباده».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «هذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة؛

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٣٤).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٨١).

لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالىٰ بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقىٰ النفوس بين الرجاء والخوف».

وعلىٰ بيان التلازم بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين رحمة الله؛ النبيون جميعًا، فمنذ أهبط الله آدم، واستخلفه في الأرض؛ بيّن الله له ولذريته هذه الحقيقة جليّةً، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة، والرحمة، والخير الكثير. ﴿لَّعَلَّهُم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيّنات عليهم ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة علىٰ البعث والجزاء بالأعمال ما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم، والاستعداد له».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٨٥).

الحساب يوم القيامة بالرحمة

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وممَّا يرتاح له القلبُ، وتطمئنُّ به النفس، وينشرح له الصدر: أنَّه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن»، الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وعمَّت كلَّ حيٍّ، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدُّنيا والآخرة، وتمَّ بها كلُّ ناقص، وزال بها كلُّ نقص، وغلبت الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماء الدالَّة علىٰ الغضب، وسبقت رحمته غَضَبَه وغلبتْه، فلها السبق والغلبة، وخلقَ هذا الآدميَّ الضعيف، وشرَّفه، وكرَّمه؛ ليُتمَّ عليه نعمته، وليتغمَّده برحمته، وقد حضروا في موقف الذلِّ والخضوع والاستكانة بين يديه، ينتظرون ما يحكم فيهم، وما يُجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، فما ظنُّك بما

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١٩٦).

يعاملهم به! ولا يَهْلِكُ علىٰ اللهِ إلَّا هالكٌ، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشَّقاوة، وحقَّتْ عليه كلمة العذاب».

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المخافتة سرًّا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات؛ انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذل وتخضع، فترىٰ في ذلك الموقف العظيم: الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة؛ ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين علىٰ ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كُلٌّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]؛ فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديّان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم؛ أن يُري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران؛ ما لا تُعبر عنه الألسنة، ولا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٣٩، ٥٤٠).

تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذُكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده الذي عمَّ جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا، وفي غيرنا؛ من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصًا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ١٠٩]، مع قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، مع قوله ﷺ: «**إن لله مائة رحمة، أنزل لعباده رحمة؛ بها يتراحمون ويتعاطفون، حتىٰ إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه** - أي: - من الرحمة المودعة في قلبها -، **فإذا كان يوم القيامة؛ ضمَّ هذه الرحمة إلىٰ تسع وتسعين رحمة؛ فرحم بها العباد**»، مع قوله ﷺ: «**لَلَهُ أرحم بعباده من الوالدة بولدها**». فقل ما شئت عن رحمته؛ فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت؛ فإنها فوق ذلك؛ فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالىٰ من وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ كرمه كل حيّ، وجلَّ من غَنِي عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه علىٰ الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنًىٰ لهم عنه طرفة عين».

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أن يكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون؛ فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ويجزي علىٰ السيئة بمثلها، أو يعفو ويصفح؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال هاهنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]».

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٨).

الرحمة العامة والخاصة

رحمة الله نوعان: عامة وخاصة.

والرحمة العامة هي الرحمة بالخلق أجمعين: مؤمنهم وكافرهم، برِّهم وفاجرهم.

والرحمة العامة أدركت البهائم، فضلًا عن جميع المخلوقات.

ومن رحمة الله بالخلق أجمعين: أن فطرهم علىٰ التوحيد، وفطرهم علىٰ معرفة ما ينفعهم وما يضرهم؛ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ومن رحمة الله بالخلق أجمعين: تكفله برزقهم ومعاشهم، وهدايتهم إلىٰ طلب أقواتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق عباده علىٰ الفطرة التي فيها الحق والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به،

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦٣).

ومعرفة النَّافع الملائم والمحبة له، ومعرفة الضَّار المنافي والبغض له بالفطرة.

فما كان حقًّا موجودًا؛ صدَّقت به الفطرة، وما كان حقًّا نافعًا عرفته الفطرة، وأحبَّته، واطمأنَّت إليه - وذلك هو المعروف -، وما كان باطلًا معدومًا؛ كذَّبت به الفطرة، فأبغضته الفطرة فأنكرته؛ قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]».

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لله رحمةٌ قد عمَّتِ الخلق، برَّهم وفاجرهم، سعيدهم وشقيَّهُم، في أرزاقهم ومعاشهم وأحوالهم، ثمَّ له رحمةٌ قد خصَّ بها المؤمنين وهي رحمة الطاعة، وله رحمةٌ قد خصَّ بها الأولياء، وله رحمة قد خصَّ بها الأنبياء، فبها نالوا النبوَّةَ، وفيما ذكر في تنزيله الأنبياء، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ [مريم: ٥٣]. وقال الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]؛ فإنما سألوه رحمة من عنده».

ومن أعظم رحمة الله بخلقه أجمعين، مؤمنهم وكافرهم؛ أنه أرسل إليهم الرسل؛ لتدلهم إلىٰ صراط الله الموصل إلىٰ الجنة، قال تعالىٰ في شأن خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) نوادر الأصول (٣/ ٣٠٢، ٣٠٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أنعم علىٰ المؤمنين بالإعانة والهداية، فإنه بيَّن لهم هُدَاهم؛ بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأعانهم علىٰ اتِّباع ذلك علمًا وعملًا، كما مَنَّ عليهم وعلىٰ سائر الخلق؛ بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم، ومنَّ علىٰ أكثر الخلق؛ بأن عرَّفهم ربوبيته لهم وحاجتهم إليه، وأعطاهم سؤلهم وأجاب دعاءهم؛ قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]».

ومن رحمة الله الخاصة بأنبيائه والعلماء؛ ما رزقهم من قوة الفهم، قال تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال وهب بن منبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كما تتفاضل الشجر بالأثْمار، كذلك تتفاضل الناس بالعقل».

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيّنًا رحمة الله وحكمته بتفضيل العلماء بما آتاهم من مواهب فضله بالفهم**[٣]: «لو زال الاختلاف بأن يُنصَّ كل شيء باسمه تحليلًا وتحريمًا؛ لارتفع الامتحان، وعُدم الاجتهاد في طلب الحق، ولاستوىٰ الناس في رتبة واحدة، ولبطلت فضيلة العلماء علىٰ غيرهم».

---

(١) قاعدة جامعة في توحيد الله، وإخلاص الوجه والعمل له؛ عبادةً واستعانةً (ص٩٣، ٩٤).

(٢) العقل وفضله، لابن أبي الدنيا (ص٤٨، ٤٩).

(٣) أعلام الحديث (١/ ٢١٨).

ويتفاوت العلماء في الفهم تفاوتًا عظيمًا؛ فمنهم من يرزقه الله استنباط الأحكام والفوائد من الأدلة، بأنواع الدلالات الثلاث: المطابقة، والتضمُّن والالتزام.

ومنهم من يستنبط مئات وعشرات الفوائد من النص الواحد، ومنهم من لا يتجاوز فهمه الفائدتين والثلاث من النص نفسه.

ومنهم من يمنُّ الله عليه باستنباط الفائدة في لمح البصر، ويدرك من المعاني ما لا يدركه غيره في أضعاف هذا الوقت؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلم لابدَّ له من سببين: سبب منفصل وهو الدليل، وسبب متَّصل وهو العلم بالدليل، والقوة التي بها يُفهم الدليل، والنظر الموصل إلىٰ الفهم؛ ثم هذه الأشياء قد تحصل لبعض الناس في أقل من لحظ الطَّرْف، وقد يقع في قلب المؤمن الشيء ثم يطلب دليلًا يوافق ما وقع في قلبه ليتَّبعه، **ومباديء هذه العلوم أمور إلهية خارجة عن قدرة العبد، يختص الله برحمته من يشاء**».

ومن رحمة الله الخاصة بالمؤمنين: أنه يحفظ عليهم إسلامهم وإيمانهم في سيرهم إليه، حتىٰ يوافوه بموجبات الرضا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) بيان الدليل علىٰ بطلان التحليل (ص٣٦٧، ٣٦٨).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «في هذا بشارة عظيمة لمن مَنَّ الله عليهم بالإسلام والإيمان؛ بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيّعه، **وحفظه نوعان:**

حفظ عن الضياع والبطلان؛ بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص؛ من المحن المقلقة، والأهواء الصادَّة. وحفظٌ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم؛ فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدّر؛ بل إذا وُجدت المحن التي المقصود منها: تبيين المؤمن الصادق من الكاذب؛ فإنها تُمحّص المؤمنين، وتُظهر صدقهم».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٠).

الرجاء لرحمة اللّه يكون بالقيام بالسبب الموجب للرحمة

الرجاء لرحمة الله لا يكون إلا بالقيام بالسبب الموجِب لرحمة الله، وتأمل هذا في أرجىٰ آية في كتاب الله، حيث لم يُقنّط الله عباده من رحمته، وأمرهم بأسباب إدراكها بالإنابة والتوبة والخضوع له؛ بتحقيق التوحيد، وفعل الطاعات، وترك المُحرّمات.

قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣-٥٥].

فلم يجعل الله لعباده رحمة بلا قيام بأسباب إدراكها، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ من أراد رحمته أن تدركه بـ ﴿أَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، وهو: الخضوع لله بالتوحيد، والانقياد بالطاعة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ

أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. وأمر الله من أراد أن تغشاه وتغمره رحمته بـ﴿ٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾؛ باستباق الخيرات، وفعل الطاعات، والإتيان بأحسنها، فالطاعات أنواع؛ منها الفاضل، ومنها الأفضل.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المعنىٰ في هذه الآية: أن الدين ليس بالتحلِّي ولا بالتَّمنِّي، وليس كُلُّ من ادَّعىٰ شيئًا؛ حصل له بمجرَّدِ دعواه، ولا كلُّ من قال: إنه هو علىٰ الحق. سُمع قوله بمجرَّدِ ذلك، حتىٰ يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنِّي؛ بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتِّباع ما شرعه علىٰ ألسنة الرسل الكرام؛ ولهذا قال بعده: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٨٤).

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من قام بهذه الأعمال الثلاثة علىٰ لأوائها ومشقتها؛ كان لغيرها أشد قيامًا به وتكميلًا.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله؛ لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل علىٰ أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمنٍّ وغرور، وهو دالٌّ علىٰ ضعف همَّة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود الولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾؛ إشارة إلىٰ أن العبد، ولو أتىٰ من الأعمال بما أتىٰ به؛ لا ينبغي له أن يعتمد عليها، ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله، ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾، أي: لمن تاب توبة نصوحًا ﴿رَّحِيمٞ﴾ وسعت رحمته كلَّ شيء، وعمَّ جُودُه وإحسانه كلِّ حيٍّ.

وفي هذا دليل علىٰ أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٦١، ١٦٢).

مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة؛ اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب التي قد غُفرت، واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة؛ حصل علىٰ كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم؛ فلولا توفيقه إياهم، لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها، لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه، لم يتمّها ويقبلها منهم؛ فله الفضل أولًا وآخرًا، وهو الذي مَنَّ بالسبب والمسبِّب».

والبعض حظه من الإسلام النطق بالشهادتين، وتضييع حقوقهما، وترك إقامة أركان الإسلام؛ فهؤلاء علىٰ خطر عظيم، وواجبهم: تحقيق الشهادتين، وإقامة أركان الإسلام.

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من كان تاركًا لأركان الإسلام وجميع فرائضه، رافضًا لما يجب عليه من ذلك من الأقوال والأفعال، ولم يكن لديه إلا مجرد التكلم بالشهادتين؛ فلا شك ولا ريب أن هذا كافر شديد الكفر، حلال الدم والمال؛ فإنه قد ثبت بالأحاديث المتواترة: أن عصمة الدماء والأموال إنما تكون بالقيام بأركان الإسلام،

(١) إرشاد السائل إلىٰ أدلة المسائل، بواسطة عون الباري بحل أدلة البخاري (١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

فالذي يجب علىٰ من يجاور هذا الكافر من المسلمين، في المواطن والمساكن؛ أن يدعوه إلىٰ العمل بأحكام الإسلام، والقيام بما يجب عليه القيام به علىٰ التمام، ويبذل تعليمه، ويلين له القول، ويُسهّل عليه الأمر، ويرغّبه في الثواب، ويخوّفه العقاب، فإن قبل منه، ورجع إليه، وعوّل عليه؛ وجب عليه أن يبذل نفسه بتعليمه، فإن ذلك من أهم الواجبات وآكدها، أو يوصله إلىٰ من هو أعلم منه بأحكام الإسلام».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين، الذين يتَّبعون أوامره، ويتركون زواجره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية.

وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمَّنَ الرحمة معنىٰ الثواب، أو لأنها مضافةٌ إلىٰ الله؛ فلهذا قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقال مطر الوراق: تنجَّزوا موعود الله بطاعته؛ فإنه قضىٰ أنَّ رحمته قريب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٢٧).

من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم».

وبكَّت الله من لازم المعصية، ولم يتب، وتألىٰ علىٰ الله المغفرة؛ فقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ أي: يعتاضون عن بذل الحقِّ ونشره، بعَرَض الحياة الدنيا، ويُسوِّفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلَّما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾، كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب؛ أخذوه!».

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾، قال: فيما يوجبون علىٰ الله من غفران ذنوبهم، التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها»[2].

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٨٣).

رحمة اللّه للخلق
بإرسال محمد ﷺ

رحم الله خلقه وعباده بإرسال الرسل إليهم؛ ينصحون الخلق، ويهدونهم إلىٰ صراط الله المستقيم، ويقيمون عليهم حجة الله بدلالتهم إلىٰ أسباب دخولهم الجنة، ونجاتهم من النار؛ قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالىٰ مبينًا أن إرسال الرسل إلىٰ الخلق هو مقتضىٰ ربوبية الله لخلقه؛ إذ يربيهم بما في وحيه الذي ينزله علىٰ رسله من النور، والحكمة، والهداية إلىٰ كل خير، والعصمة من كل شر؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال الله موجهًا أهل الكتاب للإيمان بالقرآن، والاهتداء به، بسبب ما وقع لهم من اندراس علم النبوة، وتحريف الشرائع التي أنزلها الله إليهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ

سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الله بعث محمدًا ﷺ علىٰ فترة من الرسل، وطُموسٍ من السُّبُل، وتغيُّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصُّلبان، فكانت النعمة به أتمَّ النِّعم، والحاجة إليه أمرَ عممٍ، فإن الفسادَ كان قد عَمَّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ١١٥، ١١٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «يعني: أن الله تعالىٰ إذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٦٧).

منَّ علىٰ قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالىٰ يتمّم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم؛ **ففي هذا دليل علىٰ كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد،** في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإذا بيَّن لهم ما يتقون، فلم ينقادوا له؛ عاقبهم بالإضلال؛ جزاء لهم علىٰ ردهم الحق المبين، والأَوَّلُ أَوْلَىٰ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: هو المالك لذلك، المدبِّر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية؛ فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري، فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدًىٰ مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم تولية لعباده؟!!».

وقال تعالىٰ مبيِّنًا رحمته - سبحانه - ونعمته ومنَّته بإرسال نبي الرحمة إلىٰ الخلق، يُعلِّمهم الوحي والقرآن: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه النعمة التي امتنَّ الله بها علىٰ المؤمنين، وأحسن إليهم أجمعين؛ أعظم نعمةٍ أنعم بها عليهم؛ لأن نعم الله الظاهرة دائرة بين أمرين:

أحدهما: يتعلَّق بأمور الدنيا.

والثاني: بأمور الدين.

ويرجعان إلىٰ المبدأ والمعاد.

ولم يحصل العلمُ بذلك، وكيفية العمل بما شُرع أمرًا ونهيًا وغير ذلك، إلا من جهة نبينا محمد ﷺ؛ فلولاه ما عُرف الهدىٰ من الضلال، ولا الحرام من الحلال، ولا قواعد العقائد أصلًا وفرعًا، ولا شعائر الشرائع نقلًا وشرعًا، ولا أمرُ المعاد وما فيه من الأخطار: كالحشر والنشر، والجزاء والقصاص، والجنة والنار، وكيف طريقُ السلامة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة، مما بيَّنه النبي ﷺ لهذه الأمة، فأيُّ نعمةٍ أعظم من بعثة هذا النبيِّ، نبيِّ الرحمة، الذي عُرف كل ذلك من قِبَلِه».

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (ص١٨٨، ١٨٩).

وقال تعالىٰ في شأن بعثة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال بعضهم: أرسل الله تعالىٰ محمدًا ﷺ رحمة للعالمين؛ لأنه جاء بما يُسعدهم إن تَبِعُوه، ومن خالف ولم يتبع؛ فإنما أُتي من عند نفسه، حيث ضيَّعَ نصيبه منها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] **مبينًا النعمة والرحمة التي أدركت الخلق ببعثة نبينا محمد ﷺ للناس كافة:** «بإحسانه حصل للعبد خير الدنيا والآخرة، ونجا من شرِّ الدنيا والآخرة؛ الذي لا تتصوَّر القلوب حقيقة نعمته وإحسانه، فضلًا عن أن يقوم بشكره».

وقال ابن القيم أيضًا[٣]: «إن الأمر بالصلاة عليه في مقابلة إحسانه ﷺ إلىٰ الأُمَّة، وتعليمهم وإرشادهم وهدايتهم، وما حصل لهم ببركته من سعادة الدنيا والآخرة».

ومعرفة إحسان النبي ﷺ توجب محبته ومحبة من اصطفاه وأرسله،

---

(١) رموز الكنوز (٤/ ٦٨٤).

(٢) جلاء الأفهام (ص٤٦٢).

(٣) جلاء الأفهام (ص٤٦١).

ومحبته ﷺ من أسباب رؤيته يوم القيامة والجلوس إليه؛ «**فالمرء مع من أحب**» كما قال النبي ﷺ.

ومحبته ﷺ توجب اتباعه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله تعالىٰ ذكَّر عباده نعمه وإحسانه، وعرَّفهم ببعض الآية امتنانه، كما ذَكَر ذلك في آيات كثيرة من القرآن؛ ليشكروه علىٰ ما أنعم، وليعبدوه كما أمر وعلَّم، وليبعثهم ذكر نعمه علىٰ محبته - والله أعلم -؛ لأن القلوب جُبلت علىٰ حبِّ من أحسن إليها».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ دليل علىٰ أن حبَّ النبي ﷺ تبع لحب الله؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «محبة رسوله وتعظيمه ﷺ من تمام محبة مُرْسِلِه وتعظيمه؛ فإن أمته يحبونه لحب الله تعالىٰ له، ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له، فهي محبة لله من موجبات

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (ص١٨٨).

(٢) جلاء الأفهام (ص٢٠٥).

محبة الله.

وكذلك محبة أهل العلم والإيمان، ومحبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وإجلالهم تابعٌ لمحبة الله ورسوله لهم».

والذي يدل علىٰ أن بعثة رسولنا ﷺ رحمة هو محتواها؛ فإنها لا تأمر إلا بالخير، وتأتي بمصالح البلاد والعباد، وتنهىٰ عن الشر وما يضر بالبلاد والعباد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن النبي ﷺ هو وسائر النبيين لا يُخبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل؛ فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علم.

فهُم بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها؛ فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول، الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول».

وطلب الناس السعادة والرحمة والاطمئنان والعلم النافع، فلم يجدوه إلا في الوحي الذي أرسل الله به رسوله ﷺ.

قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلاميَّة، والمناهج الفلسفيَّة؛ فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن؛ أقرأ في

(١) النبوات (٢/ ١٠٩٠، ١٠٩١).

الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]؛ فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]؛ فأنفي، ومن جرَّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «السعادة هي أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يُقرِّب إليه».

وقد ظهر من سعادة القرون الثلاثة لالتزامهم بشرع الله؛ ما هو أوضح برهان علىٰ حصول الرحمة ببعثة النبي ﷺ واتباع شرعه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ولهذا كانت السعادة متضمِّنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان؛ عبادة الله وحده، وتصديق رسله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]؛ قال أبو العالية: هما خصلتان يُسأل عنهما كل أحد، يُقال: لمن كنت تعبد؟ وبماذا أجبت المرسلين؟ وقد بُسط هذا في غير هذا الموضع، والله أعلم.

---

(١) النبوات (١/ ٤٠٨).

(٢) النبوات (١/ ٤٠٩).

(٣) النبوات (١/ ٤١٠ - ٤١٢).

واتبع لها أسعد الناس في الدنيا والآخرة، وخير القرون القرن الذين شاهدوه، مؤمنين به وبما يقول؛ إذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحقِّ الذي جاء به وبين ما يخالفه، وأعظم محبَّة لما جاء به وبغضًا لما خالفه، وأعظم جهادًا عليه. فكانوا أفضل ممَّن بعدهم في العلم والدين والجهاد أكمل علمًا بالحق والباطل، وأعظم محبَّة للحق وبغضًا للباطل، وأصبر علىٰ متابعة الحق واحتمال الأذىٰ فيه، وموالاة أهله، ومعاداة أعدائه.

واتَّصل بهم ذلك إلىٰ القرن الثاني، والثالث؛ فظهر ما بُعث به من الهدىٰ ودين الحقِّ علىٰ كلِّ دين في مشارق الأرض ومغاربها».

❁ ❁ ❁

رحمة اللّه لخلقه في التكليف والتشريع

قال تعالىٰ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١،٢]؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه علىٰ عباده، وشرائعه التي شرعها لهم؛ هي قرة العيون، ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها، ولا فرح، ولا لذة، ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ بك

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٧، ٧٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٢).

وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم، وعلَّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه؛ علمت أن جميع ما أمر به ونهىٰ عنه، فإنه رحمة وفضل من الله؛ فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي**: معينًا لهم علىٰ ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرتهم: أن يقال في شيء منه: إنه خلاف الحكمة، والمصلحة، والمنفعة».

فمن اتّبع القرآن، أدركته الرحمة والبركة؛ هذا ما قاله الله، ومن أصدق من الله قيلًا!!

أما العلمانيون فيقولون: تطبيق الشريعة حرج وضيق وشقاء! تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]؛ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فيه الدعوة إلىٰ اتِّباع

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٨١).

القرآن، ووصفه بالبركة لمن اتَّبعه وعمل به، في الدنيا والآخرة».

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الشَّريعة جارية في التَّكليف بمقتضاها علىٰ الطَّريق الأوسط الأعدل، الآخذ من الطَّرفين بقسطٍ لا ميل فيه، الدَّاخل تحت كسب العبد من غير مشقَّةٍ عليه ولا انحلالٍ، بل هو تكليف جارٍ علىٰ موازنةٍ، تقتضي في جميع المكلَّفين غاية الاعتدال؛ كتكاليف الصَّلاة، والصِّيام، والحجِّ، والجهاد، والزَّكاة، وغير ذلك ممَّا شُرع ابتداءً علىٰ غير سببٍ ظاهرٍ اقتضىٰ ذلك، أو لسببٍ يرجع إلىٰ عدم العلم بطريق العمل، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وأشباه ذلك».

والتكاليف الشرعية يسيرة لدرجة أن بعض الصحابة «تقالُّوها» يعني: قالوا: إنها قليلة.

فطاعة الله، ولزوم أمره، وترك نهيه، وأداء عباداته؛ لا تعيق الإنسان عن شؤونه الدنيوية أبدًا. قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا نظر العبد إلىٰ الأعمال الموظفة علىٰ العباد في اليوم والليلة، المتنوعة من فرض

---

(١) الموافقات (٢/ ١٦٣).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص١٠٢).

ونفل، وصلاة، وصيام، وصدقة، وغيرها، وأراد أن يقتدي فيها بأكمل الخلق وإمامهم محمد ﷺ؛ رأىٰ ذلك غير شاق عليه، ولا مانع له عن مصالح دنياه، بل يتمكن معه من أداء الحقوق كلها: حقّ الله، وحقّ النفس، وحقّ الأهل والأصحاب، وحقّ كلّ من له حقّ علىٰ الإنسان برفق وسهولة. وأما من شدَّد علىٰ نفسه، فلم يكتف بما اكتفىٰ به النبي ﷺ، ولا بما علَّمه للأمة وأرشدهم إليه، بل غلا، وأوغل في العبادات؛ فإنَّ الدين يغلبه، وآخر أمره العجز والانقطاع؛ ولهذا قال: «**ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه**». فمن قاوم هذا الدين بشدة وغلو، ولم يقتصد؛ غلبه الدين، واستحسر، ورجع القهقرىٰ».

وفي الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن نبي الله ﷺ كان يقول: «**يجاء بالكافر يوم القيامة، فيُقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا! أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيُقال له: لقد كنت سُئلت ما هو أيسر من ذلك**».

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا الحديث يدل ويتضمن زيادة توبيخ الكافر، وتضعيف حسرته، فليحذر المؤمن من أن يرتكب ما يوجب حسرة؛ وذلك لأن الإيمان لا ضرر علىٰ المؤمن فيه، فإنه آمن

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ١٨٩).

العاجل والآجل، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٣٩]، فلما أشرك هذا العبد المشرك بربه، مستعجلًا بذلك الشر وعداوة المؤمنين، ومتأجلًا شر الوعيد في غير ما بيّنة ولا متابعة هدًىٰ؛ كان خاسرًا نفسه خسرانًا، لما انكشف له في صورته؛ كان يود أن لو كانت الدنيا كلها له لافتداه بها، وقد كان في الدنيا يمكنه أن يسلم من ذلك كله باختيار الأجود، وما تدعو إليه ضرورة العقل من تحصيل الأمن؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]».

فالشريعة - بلا ريب - يسر وسهولة في نفسها، والناس هم الذين يميلون عن وسطيتها إلىٰ عنت الغلو أو انحلال التفريط، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

ورأىٰ النبي ﷺ رجلًا واقفًا في الشمس، فسأل عنه؛ فقالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم؛ فقال النبي ﷺ: «**مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه؛ فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا**» متفق عليه.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال: «**إن الدين يسر**»، أي: ميسر مسهل في عقائده، وأخلاقه، وأعماله، وفي أفعاله وتروكه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها؛ رحمة منه وحكمة؛ لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أي: مشقة وعسر، بل يسّره غاية التيسير، وسهّله بغاية السهولة؛ فأولًا: ما أمر وألزم إلا بما هو سهل علىٰ النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف؛ خفَّف ما أمر به؛ إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه.

ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي: أن «المشقة تجلب التيسير»،

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص١٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٨٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٧٥).

و«الضرورات تبيح المحظورات»».

وقال تعالىٰ ممتنًّا برخصه لأهل الأعذار، في الفطر من الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر، ونحوهما من الأعذار؛ لإرادته بكم اليسر».

فالمقصود: أن الله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده، ما كلفهم ما ليس في استطاعتهم، والمسلمون من ممارستهم لإقامة أركان الإسلام وواجباته، واجتناب نواهيه؛ يجدون طاعة الله يسيرة، وحياة لقلوبهم وأبدانهم، وقرة أعينهم بها؛ فلا يتثاقلونها تثاقل المنافقين، الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقد ذكر الله منّته علىٰ عباده في أمرهم بما لا يشق عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يُنبِّه تعالىٰ علىٰ أن الإيمان، والعمل به؛ سهل».

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣١٦).

والحدود والتعزيرات التي شرعها الله عقوبة لأصحاب الجنايات هي من رحمة الله وحكمته، وأحكامه وشرائعه كلها هكذا.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما شرَعَ عقوبة العاصين، وقمع المجرمين المفسدين، بالعقوبات المناسبة لجرائمهم؛ رحمةً بهم وبغيرهم؛ ليطهّرهم؛ ولئلا يعودوا إلىٰ ما يضرُّهم، وردعًا لغيرهم؟! ولهذا قال تعالىٰ في عقوبة القتل، الذي هو أكبر الجرائم: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقال بعدما شرع قطع أيدي السارقين صيانة للأموال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

فالشريعة كلّها مبنية علىٰ الرّحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق؛ فإنّ الله لم يكلّف نفسًا إلا وسعها، وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولمّا ذكر أحوال الطهارة وتفاصيلها؛ قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وإذا تدبَّرت ما شرعه في المعاملات، والحقوق الزوجية، وحقوق الوالدين، والقرابة؛ وجدت ذلك كلَّه خيرًا وبركة، لتقوم مصالح العباد،

---

(١) الرياض الناضرة (ص٥٧).

وتتمَّ الحياة الطيِّبة، وتزول شرور كبيرة، لولا القيام بهذه الحقوق؛ لم يكن عنها محيص».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه - سبحانه - لا يأْمر بخلاف موجَب حمده وحكمته. فإِذا رأَىٰ[٢] في بعض الأَحكام جورًا وظلمًا، أَو سفهًا وعبثًا، أو مفسدة، أَو ما لا يوجب حمدًا وثناءً، فليعلم أَنَّه ليس من أَحكامه ولا دينه، وأَنَّه بريء منه ورسوله، فإِنَّه إِنَّما يأمرُ بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفه.

وإِنَّما بعث رسوله ﷺ بالحنيفية السمحة، لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة؛ فإِنَّه أَرحم الرَّاحمين، ورسوله ﷺ رحمة مهداةٌ إِلىٰ العالمين، ودينُه كلُّه رحمة، وهو نبي الرحمة، وأُمته الأُمة المرحومة».

وبعض من نقص علمه، أو تعاظم إلحاده؛ يعيب علىٰ الشريعة أحكامها، خصوصًا العقوبات والحدود؛ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وقد ذكروا أن أبا العلاء المَعرِّي، لما قدم بغداد؛ اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا علىٰ الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعرًا دلَّ علىٰ

(١) طريق الهجرتين (١/ ٢٧٦).

(٢) يعني المغالط.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٦).

جهله، وقلة عقله؛ فقال:

يَدٌ بخمس مئين عسجد وديَتْ ... ما بالها قُطعَتْ في رُبْع دينار

تَناقض ما لنا إلا السكوت له ... وأن نَعُوذ بمَوْلانا من النارِ

ولما قال ذلك، واشتهر عنه؛ تَطَلَّبه الفقهاء، فهرب منهم، وقد أجابه الناس في ذلك؛ فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن قال: لما كانت أمينة؛ كانت ثمينة، ولما خانت هانت.

ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة، والمصلحة، وأسرار الشريعة العظيمة؛ فإن في باب الجنايات، ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار؛ لئلا يُجْنىٰ عليها. وفي باب السرقة، ناسب أن يكون القدر الذي تُقطع فيه: ربع دينار؛ لئلا يسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب؛ ولهذا قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: مجازاة علىٰ صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم؛ فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: تنكيلًا من الله بهما علىٰ ارتكاب ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أمره، ونهيه، وشرعه، وقدره».

والحدود والتعزيرات زواجر، لمن لا ينزجر عن المضارة بنفسه ومجتمعه بالوازع الإيماني، وتقويم الناس لا ينحصر في العقوبات، فإن الترغيب في

فضائل الأعمال، والحث علىٰ الخيرات؛ هو تحصين للناس عن الإفساد في الأرض، أو المضارة بالخلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كما أن العقوبات شُرعت داعيةً إلىٰ فعل الواجبات، وترك المحرمات؛ فقد شُرع أيضًا كلُّ ما يعين علىٰ ذلك. فينبغي تيسير طرق الخير والطاعة، والإعانة عليه، والترغيب فيه بكل ممكن، مثل أن يبذل لولده، أو أهله، أو رعيته؛ ما يُرَغِّبهم في العمل الصالح؛ من مال، أو ثناء، أو غيره.

فإن الله تعالىٰ بعث محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا، وكان يؤلف الناس بالنفع والمال علىٰ الإسلام وشرائعه، ويثني علىٰ من أحسن فيه، كما أثنىٰ علىٰ غير واحد من أصحابه، ويدعو أيضًا لمن أتىٰ بما يستحق الدعاء، كما قال الله تعالىٰ له: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ ولهذا قال الفقهاء: ينبغي للإمام إذا قبض الصدقة، أن يدعو لمن أعطاها، مثل أن يقول: آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، وجعله لك طهورًا.

وكذلك أيضًا ذكر فضائل الأعمال الصالحة، وثوابها، ومنفعتها في الدنيا

---

(١) السياسة الشرعية (ص١٨١، ١٨٢).

والآخرة؛ فإن الكتاب والسنة مملوءة من ذلك، **وهذا أنفع - في الحقيقة لمن استجاب له - من الرهبة بالعقوبة الدنيوية فقط**، وإنما يُصار إلىٰ العقوبة الدنيوية إذا ظلم الخلق بالنكول عن هذه الطريقة؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]».

والحدود والتعزيرات شرعها الله لحكمة؛ رحمة بالفرد، وحفظًا للمجتمع، وحماية له، ورحمة؛ فتدبّر حكمة الله في القصاص من القتلة، والمفسدين في الأرض، فإنهم لو تُركوا وعدوانهم، وظلمهم للخلق؛ لأسرفوا في دماء الناس، وذهب أمنهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن إقامة الحدود من العبادات، كالجهاد في سبيل الله. وينبغي أن يُعرف أن إقامة الحدِّ رحمة من الله بعباده؛ فيكون الوالىٰ شديدًا في إقامة الحدِّ؛ لا تأخذه رأفةٌ في دين الله فيعطله، ويكون قصده رحمة الخلق؛ بكفِّ الناس عن المنكرات، لا شِفاء غيظه، وإرادته للعلو علىٰ الخلق.

بمنزلة الوالد إذا أدَّبَ ولدَه، فإنه لو كفَّ عن تأديب ولده - كما تُشير به

(١) السياسة الشرعية (ص١٢٥، ١٢٦).

الأم رقَّةً ورأفة -؛ لفسد الولد، وإنما يؤدِّبه رحمةً به، وإصلاحًا لحاله، مع أنه يودُّ ويؤثر ألا يُحْوجه إلىٰ تأديب.

وبمنزلة الطبيب الذي يسقي المريض الدواء الكريه. وبمنزلة قطع العضو المتآكل، والحَجْم، وقطْع العروق بالفصاد، ونحو ذلك، بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الكريه، وما يُدخله علىٰ نفسه من المشقة؛ لينال به الراحة.

فهكذا شُرعت الحدود، وهكذا ينبغي أن تكون نية الوالي في إقامتها، فإنه متىٰ كان قصده صلاح الرعية، والنهي عن المنكرات، بجلب المنفعة لهم، ودفع المضرة عنهم، وابتغي بذلك وجه الله تعالىٰ، وطاعة أمره؛ ألان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له القلوب، وتيسرت له أسباب الخير، وكفاه العقوبة البشرية، وقد يرضي المحدود إذا أقام عليه الحد».

قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد تضمَّن ذلك أنَّ جميع ما كلَّفهم به أمرًا ونهيًا؛ فهم مطيقون له، قادرون عليه، وأنَّه لم يكلِّفهم ما لا يطيقون، وفي ذلك ردٌّ صريح علىٰ من زعم خلاف ذلك.

والله تعالىٰ أمرهم بعبادته، وضمن أرزاقهم؛ فكلَّفهم من الأعمال ما

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ٦٢٥، ٦٢٦).

يسعونه، وأعطاهم من الرِّزق ما يسعهم، فتكليفهم يسعونه، وأرزاقهم تسعهم؛ فهم في الوسع في رزقه وأمره: وسعوا أمره، ووسعهم رزقه؛ ففرق بين ما يسع العبد، وما يسعه العبد، وهذا هو اللَّائق برحمته، وبرِّه، وإحسانه، وحكمته، وغناه؛ لا قول من يقول: إنَّه كلَّفهم ما لا قدرة لهم عليه البتَّة، ولا يطيقونه، ثمَّ يعذِّبهم علىٰ ما لا يعملونه!

وتأمَّل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] كيف تجد: تحته أنَّهم في سعةٍ ومنحةٍ من تكاليفه، لا في ضيقٍ وحرجٍ ومشقَّةٍ؛ فإنَّ الوسع يقتضي ذلك، فاقتضت الآية أنَّ ما كلَّفهم به مقدور لهم، من غير عسرٍ لهم ولا ضيقٍ ولا حرجٍ؛ بخلاف ما يقدر عليه الشَّخص، فإنَّه قد يكون مقدورًا له، ولكن فيه ضيق وحرج عليه. وأمَّا وسعه الَّذي هو منه في سعةٍ؛ فهو دون مدىٰ الطَّاقة والمجهود؛ بل لنفسه فيه مجال ومتَّسع، وذلك منافٍ للضِّيق والحرج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، بل ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله:** ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: إلَّا يسرها لا عسرها، ولم يكلِّفها طاقتها، ولو كلَّفها طاقتها؛ لبلغ المجهود».

وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

ومن رحمة الله بخلقه في تشريعه: أن عباده لو وقعوا في محظور، في عباداتهم التي أُمروا بها، نسيانًا أو جهلًا؛ فإنه لا إثم عليهم، ولا عنت، ولا مشقة في تبعة الجهل والنسيان؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**من نسي وهو صائم فأكل، أو شرب؛ فليتمَّ صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه**»، متفق عليه.

وقال تعالىٰ في شأن نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٧٠].

قال العلامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يأمر تعالىٰ جميع الناس: أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجِب للإيمان به، والفائدة في الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجِب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق، أي: فمجيؤه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق. فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم؛ غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة: نفس إرسال الرسول إليهم؛ ليعرِّفهم الهدىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢١٥).

من الضلال، والغي من الرشد؛ فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع علىٰ صحة نبوته.

وكذلك النظر إلىٰ ما جاء به من الشرع العظيم، والصراط المستقيم؛ فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة، والخبر عن الله، وعن اليوم الآخر؛ ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة.

وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد وعدل وإحسان، وصدق وبرّ، وصلة وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق؛ مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه؛ فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان؛ فأخبر أنه خير لكم، والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين؛ في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل؛ فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدىٰ والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم؛ كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي، من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ؛ فيُعرف بضد ما يترتب علىٰ الإيمان به، وأن

العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالىٰ غني عنه، لا تضره معصية العاصين؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النساء: ١٧٠] أي: الجميع خلقه، وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره؛ فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما».

❁ ❁ ❁

التأسيس الصحيح والتجديد يوصل إلى الجنة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أراد علوَّ بنيانه؛ فعليه بتوثيق أساسه، إحكامه، وشدة الاعتناء به؛ فإن علوَّ البنيان علىٰ قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتىٰ كان الأساس وثيقًا؛ حملَ البنيان واعتُلي عليه، وإذا تهدَّم شيء من البنيان؛ سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق؛ لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدَّم شيء من الأساس؛ سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همَّتُهُ تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفعُ في البناء علىٰ غير أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

---

(١) الفوائد (ص٢٢٨، ٢٢٩).

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قويَّةً؛ حملت البدن، ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفةً؛ ضعف حَمْلُها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك علىٰ قوَّة أساس الإيمان، فإذا تشَعَّثَ شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

وهذا الأساس أمران:

أحدهما: صحة المعرفة بالله، وأمره، وأسمائه، وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله ﷺ دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسَّس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء.

فأحْكم الأساس، واحفظ القوة، ودُمْ علىٰ الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلْطُ، والقصدَ القصدَ، وقد بلغت المراد».

والعاقل إذا أصاب بنيانه شيءٌ من التصدع؛ بادر إلىٰ إصلاحه، وتجديد وإحكام بنائه، لا يتركه يتضاعف حتىٰ لا يتهاوىٰ البنيان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الطالب الصَّادِق فِي طلبه، كلما خرب شَيْء

(١) الفوائد (ص٢٧٦).

من ذَاته؛ جعله عمَارَةً لِقَلْبِهِ وروحه، وَكلما نقص شَيْء من دُنْيَاهُ؛ جعله زِيَادَةً فِي آخرته، وَكلما مُنع شَيْئًا من لذّات دُنْيَاهُ؛ جعله زِيَادَة فِي لذّات آخرته، وَكلما ناله همٌّ، أَو حزن، أَو غم؛ جعله فِي أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه، ولذته، وجاهه، ورئاسته: إِن زَاد فِي حُصُول ذَلِك وتوفيره عَلَيْهِ فِي معاده؛ كَانَ رَحْمَةً بِهِ، وَخيرًا لَهُ؛ وَإِلَّا كَانَ حرمانًا وعقوبة علىٰ ذنُوب ظَاهِرَة، أَو باطنة، أَو ترك وَاجِب ظَاهر أَو بَاطِن؛ فَإِن حرمَان خيرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، مرتَّبٌ علىٰ هَذِه الْأَرْبَعَة».

❁ ❁ ❁

التوحيد أعظم سبب لإدراك الرحمة

التوحيد هو أعظم سبب لإدراك رحمة الله، وتحقيقه علىٰ سبيل الكمال؛ يُدخل الموحّد الجنة بغير حساب؛ كما قال النبي ﷺ في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فالذي أدخلهم الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ أنهم: «**لا يَسْتَرْقُون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون**».

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني، ورجوتني؛ غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي.**

يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني؛ غفرت لك.

يا ابن آدم! لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقُرابها مغفرة». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من تحقَّق بكلمة التوحيد

(١) جامع العلوم والحكم (ص٤٧٣).

قلبه؛ أخرجت منه كلَّ ما سوىٰ الله؛ محبةً، وتعظيمًا، وإجلالًا، ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً، وتوكُّلًا، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كُلُّها، ولو كانت مثلَ زَبَد البحر، وربما قلبتها حسنات، كما سبق ذكره في تبديل السيئات حسنات، **فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وُضع ذرَّة منها علىٰ جبال الذنوب والخطايا؛ لقلبها حسنات**».

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، الآية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالىٰ إخبارًا عن حملة العرش، ومن حوله؛ أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]».

وقال متمّمًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية؛ يعني: فسأوجب حصول رحمتي منّةً مني، وإحسانًا إليهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٥).

سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ الذين يتقون، أي: الشرك، والعظائم من الذنوب.

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: الأموال. ويحتمل أن تكون عامةً لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون».

وفي الصحيحين من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيِّها شاء**».

فشعب الإيمان كثيرة، واختص من بينها ثمانية أعمال، جُعلت بابًا وسببًا لدخول الجنة، والأصل الجامع الذي يجعل صاحبه يدخل من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء؛ هو تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فيه من الفقه: أن أبواب الجنة ثمانية يدخل من أيِّها شاء، أي أن كلَّ باب منها له أهل؛ فإنَّ باب الصدقة يدخل منه المتصدِّقون، وباب الجهاد يدخل منه المجاهدون، والريّان يدخل

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٢٢٠).

منه الصائمون، **فبيَّن رسول الله ﷺ أن تلك الأعمال فروع علىٰ هذا الأصل من إقامة الشهادتين**، فإذا أتىٰ بهما؛ كان مخيرًا في الفروع، من أيِّ أبواب الجنة شاء أن يدخل؛ من باب الصدقة، أو من باب الجهاد، أو غير ذلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تارة يجمع بين التوحيد والاستغفار؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦].

فهذان الأمرانِ جماعُ الدين، كما يُروَىٰ أن الشيطانَ قال: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلَّا الله والاستغفار، فلما رأيتُ ذلك؛ بَثَثْتُ فيهم الأهواء، فهم يُذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يَحسبون أنهم يُحسِنون صنعًا. وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

فالتوحيد هو جماع الدين، الذي هو أصلُه وفرعُه ولُبُّه، وهو الخير كلُّه، والاستغفارُ يُزيلُ الشرَّ كلَّه؛ فيحصلُ من هذين جميعُ الخَيْر، وزوالُ جميع الشرّ. وكلُّ ما يُصيبُ المؤمنَ من الشرِّ، فإنما هو بذنوبه.

والاستغفار يَمحُو الذنوبَ؛ فيُزيلُ العذابَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٧٣، ٢٧٤).

ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣]».

ولا ريب أن التوحيد، والإيمان بالله ورسوله ﷺ، وتحقيق الشهادتين؛ هو الأساس في إدراك كل خير، والسلامة من كل شر؛ فالتوحيد أساس الملّة، وحبّ الله، ورجاءه، ورهبته؛ يبعثان علىٰ فعل مرضات الله، واجتناب مساخطه، ويسوقان العبد إلىٰ سلوك صراط الله المستقيم، الذي تحصل به السلامة من المخاوف، والفوز بالجنة.

قال تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ذكر في هذه الجملة المبشَّر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشَّر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره؛ من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدَّارَّة، وحصول النِّعَم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما يُنشِّط العاملين؛ أن يذكر لهم، من ثواب الله علىٰ أعمالهم؛ ما به يستعينون علىٰ سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٠٧).

كما أن من حكمه: أن يذكر - في مقام الترهيب - العقوبات المترتبة علىٰ ما يرهب منه؛ ليكون عونًا علىٰ الكف عمَّا حرَّم الله».

وقال تعالىٰ في شأن عصمته لأوليائه بالتوحيد، والإخلاص لله رب العالمين: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا علىٰ من أشرك به، فكل من أطاع الشيطان في معصية الله؛ فقد تسلط الشيطان عليه، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك.

والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]، وقال تعالىٰ في قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ١٣٢).

ويشهد لهذا ما ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**إن الشيطان ينتصب عرشه علىٰ البحر، ويبعث سراياه**».

فجميع ما نهىٰ الله عنه؛ هو من شعب الكفر وفروعه، كما أن كل ما أمر الله به؛ هو من الإيمان والإخلاص لدين الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]».

وفي حديث سيد الاستغفار: عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «**سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم، أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»، رواه البخاري.

قال العلامة محمد بن أحمد السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «حكمة تخصيص هذا الدعاء بالصباح والمساء، وترتيب الثواب عليه كذلك: افتتاح كل من الصباح والمساء بالإقرار بالربوبية؛ والإلهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاعتراف بالعبودية، ومشاهدة المنَّة، ومطالعة الذنوب، والأمن، والاعتراف بسعة الحِلْم؛ إذ لم يعاجله بالنِّقَم علىٰ عدم شكر نِعَمه، والتجرِّي علىٰ معاصيه،

(١) نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار (ص٣٠٩، ٣١٠).

مع ترادف المنن منه عليه، مع غناه عنه، وشدة فقر العبد إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فيكون قد افتتح الصباح بالذكر والتوحيد، والإقرار بالعبودية، والاعتراف بالتقصير، وتمام الافتقار، وختمه بذلك؛ فيُرجىٰ أن يُكتب له سائر يومه طاعةً وذكرًا، فإنَّ من كان أول عمله طاعة، وآخره طاعة؛ فهو في حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] **في فضل التوحيد في إزالة آثار الذنوب:** «المسلمون ذنوبهم ذنوب موحِّدٍ، إن قوي التَّوحيد علىٰ محو آثارها بالكلِّيَّة، وإلَّا فما معهم من التَّوحيد يُخْرِجُهم من النَّار، إذا عُذِّبوا بذنوبهم.

وأمَّا المشركون والكفَّار، فإنَّ شركهم وكفرهم يُحْبطُ حسناتهم؛ فلا يلقون ربَّهم بحسنةٍ يرجون بها النَّجاة، ولا يُغفر لهم شيء من ذنوبهم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالىٰ في حقِّ الكفَّار والمشركين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «**أبىٰ الله أن يقبل من مشركٍ عملًا**».

فالذُّنوب تزول آثارها بالتَّوبة النَّصوح، والتَّوحيد الخالص، والحسنات

---

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص٣٠٢).

الماحية، والمصائب المكفِّرة لها، وشفاعة الشَّافعين في الموحِّدين، وآخر ذلك إذا عُذِّب بما يبقىٰ عليه منها؛ أخرجه توحيده من النَّار. وأمَّا الشِّرك بالله، والكفر بالرَّسول؛ فإنَّه يُحبِط جميع الحسنات، بحيث لا تبقىٰ معه حسنة».

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أعرف الناس بأعظم الأسباب لإدراك رحمة الله، لذلك تحدّثوا بأعظم هذه الأسباب؛ طمعًا ورجاءً في رحمة الله، وحثًّا للمسلمين علىٰ إدراكها؛ طلبًا للخير لعموم المسلمين. قال عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(١): «إن أفضل ما نَعدُّ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ».

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢): «والذي لا إله غيره! ما أصبح عند آل عبد الله شيء، يرجون أن يعطيهم الله به خيرًا، أو يدفع عنهم به سوءًا؛ إلا أنَّ الله قد علم أنَّ عبد الله لا يشرك به شيئًا».

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٠].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتب عليه

---

(١) رواه مسلم (رقم ٩٥).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الزهد (ص١٥٩ - رقم ١٥٠)، بإسناد صحيح.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٢١٥).

من المصالح والفوائد؛ فكل ثواب عاجل وآجل، فمن ثمرات الإيمان؛ فالنصر، والهدىٰ، والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم؛ كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ؛ فيُعرف بضد ما يترتب علىٰ الإيمان به، وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالىٰ غنيٌّ عنه، لا تضره معصية العاصين؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء، ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما».

ومن أعظم الأدلة بيانًا لفضل التوحيد وأنه أكبر سبب لإدراك رحمة الله حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلًّا، كل منها مَدُّ البصر، فتثقل بطاقة التوحيد وتطيش بالسجلات، ولا يُعذب صاحبها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ كل موحّد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثَقَّلَ بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات: لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات[2]، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٠-٣٣٢).

(٢) التحقق والإخلاص بها.

حليم غفور
لا يعاجل بالعقوبة

في الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم**».

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «عظمته التي لا يقوم لها شيء لا يوازيها إلا حلمه تعالىٰ وجَلَّ جَلَالُهُ، ويقتضي إتباع العظمة بذكر الحلم أيضًا: أن الناطق بهذا القول، يتخوف أن يكون قد عصىٰ الله سبحانه وأغضبه، لما خطر في قلبه خوف لغيره؛ فخاف من سخطه، فأتبع ذلك بما تداركه، بقوله: «وهو العظيم الحليم».

وفيه أيضًا: أن المتجريء عليك، الذي أخافك؛ إنما تجرأ عليك بحكم الله سبحانه، لا أنه قدر أن يفعل ذلك مراغمة».

وما يُقدِّره سبحانه مما يصيب بعض عباده؛ بسبب ذنوبهم، فمن رحمة الله

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٨٦).

بخلقه؛ فإنه أصابهم ببعض ذنوبهم، ولم يصبهم بكل ذنوبهم؛ رحمةً بهم، لعلهم يرجعون إليه، ويعرفون فضله وإحسانه في عفوه كثيرًا عما يوجب عقابهم، أو هلاكهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: مهما أصابكم - أيها الناس - من المصائب، فإنما هي عن سيِّئات تقدَّمت لكم، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي: من السيئات؛ فلا يجازيكم عليها، بل يعفو عنها».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يخبر تعالىٰ: أنَّه ما أصابَ العباد من مصيبة في أبدانهم، وأموالهم، وأولادهم، وفيما يحبُّون ويكون عزيزًا عليهم؛ إلا **بسبب ما قدَّمته أيديهم من السيئات، وأنَّ ما يعفو الله عنه أكثر**؛ فإنَّ الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون، ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥]،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٩٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٥٩٥).

وليس إهمالًا منه تعالىٰ تأخير العقوبات، ولا عجزًا.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض؛ ليس عندكم امتناعٌ عمَّا ينفِّذه الله فيكم، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾: يتولاكم، فيحصِّل لكم المنافع، ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾: يدفع عنكم المضارَّ».

وقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: لا يقدر علىٰ دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور؛ أي: يرىٰ عباده، وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر، وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾».

وقال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **مبينًا بعضًا من معاني اسم الله «الودود»**[2]: «ومن تودُّده أنَّ العبد يشرد عنه؛ فيتجرأ علىٰ المحرمات، ويُقصِّر في الواجبات، والله يستره ويحلم عنه، ويمده بالنعم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٢١).

(٢) فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد (ص٥٠).

ولا يقطع عنه منها شيئًا، ثم يقيّض له من الأسباب، والتذكيرات، والمواعظ، والإرشادات؛ ما يجلبه إليه، فيتوب إليه، وينيب؛ فيغفر له تلك الجرائم، ويمحو عنه ما أسلفه من الذنوب العظائم، ويعيد عليه ودَّه وحبه.

ولعل هذا - والله أعلم - سر اقتران الودود بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

ومن كمال مودته للتائبين: أنَّه يفرح بتوبتهم أعظم فرح يُقَدَّر، وأنَّه أرحم بهم من والديهم، وأولادهم، والناس أجمعين. وأن من أحبّه من أوليائه؛ كان معه، وسدَّده في حركاته وسكناته، وجعله مجاب الدعوة وجيهًا عنده؛ كما في الحديث القدسي: «**لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته**».

وقال العلامة السعدي في بعض معاني اسم الله «الصبور»[1]: «صبره تعالىٰ علىٰ معاصي العاصين، ومحاربة المحاربين؛ صبرٌ عن قوة واقتدار، وهو

(١) فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد (ص٥١، ٥٢).

الصبر الكامل؛ فإنَّ العباد يتبغضون إليه بالمعاصي، وهم مضطرون إليه، وهو يتحبَّب إليهم بالنعم مع كمال غناه، وهو تعالىٰ يحلم عن زلَّاتهم، ويسترهم مع كثرة هفواتهم، ويتمادون في الطغيان، والله تعالىٰ لا يزيده ذلك إلا حِلمًا وكرمًا.

ومن حِلمه تعالىٰ: أنَّ العبد يُسرف علىٰ نفسه، والله تعالىٰ قد أرخىٰ عليه حِلمه، فإذا تاب العبد وأناب؛ فكأنَّه ما جرىٰ منه جرم، ومع كمال حلمه وصبره؛ فهو تعالىٰ الشكور لعباده، الذي يغفر الكثير من الزلل، ويقبل القليل من العمل، وإذا أخلص العبد عمله؛ ضاعفه بغير حساب، وجعل القليل كثيرًا، والصغير كبيرًا، ويتحمل عبدُه من أجله بعض المشاق؛ فيشكر الله له، ويقوم بعونه، ويكون معه؛ فتنقلب تلك المشاق والمصاعب سهولات، وتلك المتاعب راحات».

فالله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده، لا يعاجلهم بالعقوبة؛ بل يستعتبهم رحمة بهم، يرسل لهم ما يوقظهم من الغفلة عنه، والتضييع لحقوقه.

ومن رحمة الله بعباده: أنه جعل في فطرهم ما يُشعرهم بالخطأ إذا فعلوه، وجعل لهم من كل خطأ سببًا لصقل القلوب، والعودة إلىٰ عبودية العزيز الغفور؛ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المؤمن إما أن يحزن علىٰ تفريطه،

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٠٨).

وتقصيره في خدمة ربه وعبوديته، وإمَّا أن يحزن علىٰ تورّطه في مخالفته ومعصيته، وضياع أيامه وأوقاته.

وهذا يدلُّ علىٰ صحة الإيمان في قلبه وعلىٰ حياته، حيث شعر قلبه بمثل هذا الألم؛ فحزن عليه، ولو كان قلبه ميِّتًا لم يحسَّ بذلك، ولم يحزن ولم يتألم؛ فما لجُرح بميِّتٍ إيلام.

وكلما كان قلبه أشدَّ حياةً؛ كان شعوره بهذا الألم أقوىٰ».

❁ ❁ ❁

رحمة اللّه سبقت غضبه

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لما قضىٰ الله الخلق** - وفي رواية: **لما خلق الله الخلق** -؛ **كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»، متفق عليه.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه؛ أن رسول الله ﷺ أعلم أمته؛ أن الله تعالىٰ كتب علىٰ نفسه، في كتاب شرف عنده، حتىٰ لم يول خزنه ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولم يرض في مكان خزنه إلا أن جعله فوق العرش؛ وذلك أن غضبه جَلَّ جَلَالُهُ لم تكن لتقوم له السموات والأرض، لولا أنه غلبته رحمته؛ فدفع العظيم بالعظيم، وكان هذا مما لولا أنه سبق، كما قال سبحانه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]. وإلا فإنما كانت أحوال بني آدم تكون في كفة رجحان الغضب؛ لأنه سبحانه لما خلق آدم، رافعًا له علىٰ الملائكة، وأسجد له الملائكة، فسجدوا كلهم، فلما امتنع منهم واحد من أن يسجد

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٣٠٧ - ٣٠٩).

لآدم؛ لعنه، وطرده، وأوجب له النار، وقضىٰ عليه بسخطه، وجعله عذرًا لكل عاص، ومنصرفًا للمذام إلىٰ يوم القيامة، فكان من الحق أن بني آدم يكونون لهذا الشيطان وذريته علىٰ أشد عداوة، وأعظم إرغام؛ لأن الله سبحانه إنما لعنه وطرده فيهم، ولأجلهم، فلما اتبعوه إلا فريقًا منهم؛ كان ذلك من موجبات الغضب، وقد قال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

وهذه الآية مما عدَّ العلماء؛ أنه يذاق منها حلاوة القرآن، ألا ترىٰ إلىٰ ما قد استحوذ عليه الشيطان من إغواء هذه البرية، حتىٰ إذا نظر الناظر من بني آدم إلىٰ ما قد اجتالت الشياطين، من إخوته الذين هم صلب أبيه آدم، وكيف صدّق عليهم إبليس ظنه، وصحَّ فيهم حديثه، وأنه أغوىٰ من أغوىٰ من الأمم الماضية، والقرون الخالية؛ مذ عهد نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والأنبياء بعده، قرنًا بعد قرن، وجيلًا علىٰ أثر جيل، حتىٰ لم يتخلص من أن يتابعه منهم إلا من اتبع المرسلين علىٰ قلة عددهم، بالإضافة إلىٰ تبليغ الخلائق في كل وقت، إلىٰ أن انتهىٰ الوقت إلىٰ مبعث المصطفىٰ محمد ﷺ؟! فكيف أقام الحجة، وأوضح السبيل، وبصَّر من كل عمًىٰ، وهدىٰ من كل ضلالة، وأبان من مكايد الشيطان، ما لم يبق معه عدد لتابع غواية، وأنه علىٰ ذلك كان الذين اتبعوه وصحبوه، إلىٰ أن توفاه الله عَزَّوَجَلَّ، وخلفه الهداة من أصحابه،

المدة التي علم مقدارها؟!

ثم إن الشيطان أَدَبَ - جمع - عقارب كيده، وأوقع من الفتن ما وقع من كل فتنة هي، وإن كانت قد وقتها، وانطفأت في العيان شرها، فإن سمَّها ليعاذ كل لديغ بشيء من أنبائها إلىٰ يوم القيامة، وإن وقتنا هذا من بني آدم؛ إذا فكّر فيهم ذو اهتمام بأمر الكل، وأخو حزن من الحياء من موافقة الجنس فيما يسيء أدبه به بين يدي ربه جَلَّجَلَالُهُ، في قوله الذي أخبرنا الله سبحانه به عنه؛ إذ يقول: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢]؛ فكيف لا يجد المؤمن من هذه الوصمة خلاصًا لغمة إخوته من بني آدم عن مرارة عارها وشنارها، إذا نظرنا إلىٰ ما عليه أهل الأطراف في أكناف الدنيا؛ من مخالفة الأوامر، وارتكاب المناهي.

ثم دنا عن أولئك البعداء إلىٰ أهل القرىٰ والمدن، فنظر إلىٰ ما فيه أهل القرىٰ من اطراح أمر الدين، والإضراب عن التفقه والعلم، وما عليه أهل المدن من تطفيف المكاييل، ونقص الموازين، واطراح أمر الشرع في العقود والبياعات، وأكل الربا، والمرخص في النجاسات، والاستخفاف بأمرها، والتظالم بين الخلطاء، والغل والغش إلىٰ ألا يكاد يرضىٰ منهم عن أحد؛ إلا من انقطع إلىٰ العلم، أو عزفت نفسه عن هذه الدنيا.

ثم إنه يسوؤه فيهم ما يرىٰ عليه أهل العلم من التنافس والذم، ذم بعضهم بعضًا، والطعن من كل منهم فيمن يخالفه، وتنافس أهل الانقطاع منهم أيضًا في أشياء تفصح عن مقاصدهم فيها، عزيز علىٰ المؤمن أن يراهم أو يجدهم عندها، من كل حال يشمت بها إبليس؛ فيرىٰ المؤمن أنه لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ سبقت رحمته غضبه، وغلب عفوه عقوبته؛ لكان أن يخسف الأرض بمن عليها من بني آدم، ويضرمها بهم نارًا، غير جور منه سبحانه، ولا حيف، لكن لما سبقت رحمته غضبه في كتاب كتبه علىٰ نفسه، لما علم جَلَّجَلَالُهُ أن ذلك لا يكون منهم إذا خلقهم.

ثم إنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خلقهم علىٰ علمه بهم، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يرعىٰ فيهم سوابق اختياره، ويلاحظ منهم مواضع آثاره، وأنهم علىٰ ما كان منهم؛ فإنهم بأقرانهم شهود خلقه لهم، وفعله فيهم، وأن منهم المخلصين له، والمجاهدين فيه، والمؤثرين سبحانه بأرواحهم، والمنفقين فيه حياتهم، فيكون أولئك حماة لجنسهم، وأمانًا لسائر بني أبيهم، ممن يرتضي الله عَزَّوَجَلَّ، إن شاء الله تعالىٰ».

ومن أعظم الأدلة علىٰ أن رحمة الله سبقت وغلبت غضبه: أن الله لا يجمع للمسيء من أهل الإسلام بين عقوبتي الدنيا والآخرة، والكافر يُوفىٰ حسناته في الدنيا، ويعاقب في الآخرة.

قال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن رحمة الله تعالىٰ سبقت غضبه، فهو يثيب الطائع بثوابين: ثواب في الدنيا، وثواب في الآخرة، بخلاف العقوبة: فإن الله تعالىٰ لا يجمع بين عقوبتين، فإذا شرَّع عقوبة في الدنيا علىٰ ذنب؛ فإنه لا يعاقب به في الآخرة، كما جاء في الحديث: «**إن الحدود كفارة**». الحدود يعني العقوبات، كحد الزنا، والسرقة أنها كفارة لأصحابها، وقال النبي ﷺ: «**عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»؛ بل إن الله تعالىٰ قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]. فلن يجمع الله للإنسان عقوبتين علىٰ معصية؛ عقوبة في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، لكن يجمع بين ثوابين في الطاعة؛ ثوابًا في الدنيا، وثوابًا في الآخرة؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] **مبيّنًا عفو الله وسبق رحمته غضبه**: «ألم يكن جانب فضله، وكرمه، ورحمته، في جميع الأمور؛ سابقًا وغالبًا «**إن رحمتي سبقت غضبي**»، وفي لفظ: «**غلبت**»؟!

فللرحمة السبق، والإحاطة، والسعة، ولها الغلبة؛ بحيث يضمحل معها أسباب العقوبة - كما تقدم في الحسنات والسيئات -، وإنَّ العبد لو أفنىٰ

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٧٢).

(٢) فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام (ص٨١).

عمره في المعاصي، ثم في ساعة واحدة قبل أن يغرغر؛ تاب، وأناب؛ غَفَرَ له كلَّ ذلك، وأبدل سيئاته حسنات.

وأنَّ أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان؛ يمنع الخلود في النار، وأنَّ الكفار، والفجار، وأصناف العصاة؛ يبارزون المولىٰ بالمخالفات والعظائم، وهو يعافيهم، ويرزقهم، ويُدِرُّ عليهم النعم ويستعتبهم، ويعرض عليهم التوبة، ويُخبرهم أنَّهم إن تابوا؛ عفىٰ عنهم، وغفر لهم، حتىٰ إذا ماتوا وهم كفار، ولم يكن فيهم من الخير مثقال ذرة؛ ولَّاهُم ما تولوا لأنفسهم، ورضوا لها من الشقاء الأبدي».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤].

وهذه الآية من أعظم الأدلة وأوضحها، علىٰ أن رحمة الله سبقت غضبه؛ فإن الله ذكر في أول الآية تفرده بملك السموات والأرض، وأن ناصية كل مخلوق بيده، وأن الخلق جميعًا مقهورون مربوبون لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يغفر لمن يشاء، ويُعذب من يشاء، وهذه المشيئة أساسها الحكمة والعلم، فالله لكماله لا يُعذب من يشاء ظلمًا، كما يفعله بعض الملوك، وإنما يُعذّب من كفر أو عصىٰ بقدر ما يستحقه، وكذلك يغفر لمن يشاء؛ ممن أناب إليه، وخضع له، وعمل صالحًا، وأذهبت حسناته سيئاته، وانظر كيف غلبت رحمة الله غضبه؛ فختم الله الآية باسمي «الغفور الرحيم»، ولم يختهما بـ

(شديدِ العقاب)، فرحمته سبحانه سبقت غضبه؛ فهذه الآية دعوة لكل الخلق للتوبة، والإنابة إلىٰ الغفور الرحيم. وقال تعالىٰ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

ومن أعظم النصوص دلالة علىٰ أن رحمة الله سبقت وغلبت غضبه؛ ما رواه البخاري ومسلم، من حديث حكيم بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت أمورًا كنت أتحنَّثُ بها في الجاهلية؛ من صدقة، أو عتاقة، أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أسلمت علىٰ ما أسلفت من خير**».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن رحمة الله سبقت غضبه؛ فالسيئات تُمحىٰ بالإسلام، والحسنات تبقىٰ وتُكتب للإنسان. وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، هذا فيما إذا ماتوا علىٰ الكفر؛ لقوله: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أما إذا أسلموا؛ فإن ما عملوه من الخير يُكتب لهم.

وهذا في الحقيقة من آثار سَبْق رحمة الله غضبه، ومن آثار هذه الصفة العظيمة: أن الإنسان لا يؤاخذ بما عمل من السيئات في كفره إذا أسلم، ويُثاب علىٰ ما فعل من الحسنات في كفره إذا أسلم».

---

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٣٦٥).

اجعل دنياك رحمة ولا تجعلها لعنة

روىٰ البخاري في صحيحه، عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنّه كان يُحدّث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، قال: «**مستريح ومستراح منه**»، قالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدُّنيا وأذاها إلىٰ رحمة الله** عَزَّوَجَلَّ، **والعبد الفاجر يستريح منه العباد، والبلاد، والشجر، والدواب**»(١).

والصِّنف الموفّق هو من كانت أعماله موجِبة لرضا الرب، الذي يُرضي خلقه عن عبده؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، وروىٰ البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أن الله إذا أحب عبدًا؛ نادىٰ جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل أهل السماء: أن الله يُحبّ فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**».

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت (ص١١٢٨ - رقم ٦٥١٢).

هذا الصِّنف من الناس، أعماله موجبة لاستغفار المخلوقات له، والدعاء له بالخير، والرحمة، والمغفرة؛ فعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرضين، حتىٰ النملة في جحرها، وحتىٰ الحوت؛ ليصلون علىٰ مُعلم الناس الخير**»، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «هَذَا مروي عَن الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عُلَمَاء هَذِه الأمة رجلَانِ: فَرجل أعطاه الله علمًا، فبذله للنَّاس، وَلم يَأْخُذ عَلَيْهِ صفدًا، وَلم يشترِ بِهِ ثمنًا؛ أولئك يصلي عَلَيْهِم طير السَّمَاء، وحيتان الْبَحْر، ودواب الأرض، والكرام الكاتبون. وَرجل آتَاهُ الله علمًا، فضن بِهِ عَن عباده، وأخذ بِهِ صفدًا، وَاشْترىٰ بِهِ ثمنًا؛ فَذَلِك يأتي يَوْم الْقِيَامَة يلجم بلجام من نَار».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «إني ذقت حلاوة الدنيا، فصغر في عيني زهرتها وملاعبها، واستوىٰ عندي حجارتها وذهبها، ورأيت كأن

---

(١) جامع الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة (ص٦٠٩، رقم ٢٦٨٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٢، ٦٣).

(٣) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص٣٨).

الناس يُساقون إلىٰ الجنة، وأنا أساق إلىٰ النار؛ فأسهرت لذلك ليلي، واظمأت له نهاري، وكل ذلك صغير حقير في جنب عفو الله، وثواب الله عَزَّوَجَلَّ، وجنب عقابه».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلقًا**[1]: «هذا الكلام يُشبه حديث حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المشهور، وهو حديث روي من وجوه مرسلًا، وروي مسندًا متصلًا من رواية يوسف بن عطية الصفار، وفيه ضعف، عن ثابت، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال لشاب من الأنصار: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**» قال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًّا. قال: «**انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة!**» قال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا؛ فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلىٰ أهل النار يتعاوون فيها. قال: «**أبصرت فالزم، عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه**». والمرسل أصح».

وقال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]: «خمس مصائب في ارتكاب المعصية، أعظم من المعصية:

---

(١) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص٣٨).

(٢) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر (ص٢٤٦).

أولها: خذلان الله تعالىٰ لعبده حيث عصاه، ولو عصمه ما عصاه.

والثانية: أن يسلبه حلة أوليائه، ويكسبه لباس أعدائه.

والثالثة: أن يغلق منه باب رحمته، ويفتح عليه باب عقوبته.

والرابعة: نظره إليه، وهو يعصيه.

والخامسة: وقوفه بين يديه، يعرض عليه ما قدّم وأخر».

وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مثلت نفسي في الجنة؛ آكل من ثمارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار؛ آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها؛ فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدّ إلىٰ الدنيا، فأعمل صالحًا. قال: فأنت في الأمنية، فاعملي».

فالحياة الدنيا لهو ولعب إن أنت غفلت عن مقصودها، ولم تنزلها منزلها خسرت ما هو أنعم وأهنأ وأبقىٰ، فالدنيا دار عمل للآخرة إن وُفقت للعمل الصالح فيها.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «نزِّل الدنيا حيث أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه لم يجعلها دار مقام، إلا مقام مدة عاجلة الانقطاع، وإنما جعلها دار

(١) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص٤٠).

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٨٩).

عمل، وجعل الآخرة دار قرار وجزاء بما عمل في الدنيا، من خير أو شر، إن لم يعفُ - جلّ ثناؤه -، وأن لا يخالَّ أحدًا إلا أحدًا خالَّه الله؛ ممن يعقل الخلَّة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويرجىٰ منه إفادة علم في دين، وحسن أدب في دنيا، وأن يعرف المرء زمانه، ويرغب إلىٰ الله تعالىٰ في الخلاص من شرِّ نفسه فيه، ويمسك عن الإسراف بقول أو فعل في أمر لا يلزمه، وأن يُخلص النيَّة لله فيما قال وعمل؛ فإن الله يكفي مما سواه، ولا يكفي منه شيء غيره».

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالمًا، أو متعلِّمًا**»، رواه الترمذي وحسّنه.

فهذا الحديث فيه حثٌّ لكل مسلم، بأن يكون في ساحة الرحمة، وهي ساحة الطاعة، وذِكْرِ الله، وطلب العلم - وهو من ذكر الله -؛ فهو خبر بمعنىٰ الأمر، وهو أبلغ في الأمر.

أما الدُّنيا فهي مباركة في ذاتها، لمن انتفع بها علىٰ المعنىٰ المقصود بخَلْقِها؛ في تسخير منافعها في العبودية، وعمارتها بالوسائل والطرق المشروعة؛ للتوصل بها للمقاصد الصالحة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الدُّنيا وكُلُّ ما فيها ملعونة

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٩٩).

- أي: مُبعدَةٌ عن الله -؛ لأنَّها تُشغلُ عنه؛ إلَّا العلمَ النَّافع الدَّالَّ علىٰ الله، وعلىٰ معرفته، وطلب قُرْبِه ورضاه، وذكر الله، وما ورد ممَّا يُقَرِّبُ مِنَ الله؛ فهذا هو المقصودُ مِنَ الدُّنيا».

فالدنيا في ذاتها مباركة، لكن عمل الإنسان فيها إذا كان شرًّا؛ فإنه يجعله ملعونًا، أو مستوجبًا للَّعنة.

قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: جعلها مباركة قابلة للخير، والبذر، والغراس، وقدّر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق، والأماكن التي تُزرع وتُغرس».

فالأمة الإسلامية مأمورة بأخذ أسباب القوة في دينها ودنياها، وجعل دنياها خادمةً لدينها، فقيام الأمة بتنمية المال، يجعلها قويةً في اقتصادها؛ وإذا كانت كذلك شيّدت مؤسساتها التعليمية، والصحيّة، ومواصلاتها، وإسكانها، وزراعتها، ووفّرت الوظائف الكريمة لمواطنيها، وإذا كان

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٧).

اقتصادها ضعيفًا؛ ضعفت عن بناء الدولة، وصارت في حاجة إلىٰ دول الكفر؛ تُملي عليها شروطها.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الأمة كلما كثر النَّماء في مالها؛ ازدادت قوة».

فطلب المال من حله، وبذله في وجوهه المفروضة والمستحبة؛ هذا طاعة، ونفع للأمة، إذا لم يشغل عن واجب، ولم يُوقع في محرّم؛ قال النبي ﷺ: «**نعم المال الصالح للعبد الصالح**»، وقال تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

قال الحافظ السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من تكن الدُّنْيا في يديه، ويُؤَدِّ الحقوق منها، ويتطوَّع بالأمور المستحبة فيها، ولم تكن عائقةً له عن الوصول إلىٰ الله تعالىٰ، ولا لها في قلبه مزيَّةٌ، ولا يفخر بها - خصوصًا علىٰ من دونه -، ولا يكن بما في يديه منها أوثق منه بما عند الله، بحيث يحبسها عمَّا شُرع له صرفها فيه، مع التقتير علىٰ نفسه وعياله، وعدم إظهار نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينفقها في وجوه الباطل التي لم تُشرع، ولا يُبذِّرْ؛ يكن ذلك

---

(١) شرح بلوغ المرام (٩/ ١٣١).

(٢) السر المكتوم في الفرق بين الحالين المحمود والمذموم (ص٨٨، ٨٩).

زيادةً له في الخير».

فالمال إن أنفقته في بناء المساجد، وطباعة كتب العلم النافع، ونصرة الدين، والجهاد في سبيل الله، وقضاء حوائج الفقراء والمساكين، وسدّ خلة المحتاجين، ونشر دعوة الإسلام في بلاد الكفر عبر وسائل الإعلام الحديثة؛ كنت ممن ذهب بالأجور.

وأما إن استعملته في تناول المحرمات، والقمار والميسر، والسرف والمخيلة والمباهاة، وفي وسائل صدّ الناس عن طاعة الله؛ كنت ممن أبعده ماله عن الله، وضاعف سيئاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المال لمن استعان به علىٰ طاعة الله، وأنفقه في سبل الخيرات، والقربة إلىٰ الله تعالىٰ؛ سبب مُوصل له إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

وهو لمن أنفقه في معاصي الله، واستعان به علىٰ نيل أغراضه المحرّمة، أو اشتغل به عن طاعة الله؛ سبب قاطع له عن الله، كما قال أبو سليمان الداراني: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه؛ فسبحان من جعل شيئًا واحدًا سببًا للاتصال به، والانقطاع عنه!».

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٣٦).

ارحم نفسك يرحمك اللّه

ارحم نفسك، ولا تظلمها بالذنوب والمعاصي؛ **قال العلامة أبو الحسن عليّ بن محمد بن فرحون القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ كل عاصٍ، فهو ظالم لا محالة، وظلمه ينقسم علىٰ وجهين: أما الوجه الواحد؛ فلأنه ترك ما أمره الله به من الطاعات، وأقبل علىٰ ما نهاه عنه من المعاصي؛ لأن معنىٰ الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وإيقاعه علىٰ غير أهله؛ قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]. فسمّاهم ظالمين؛ لما أوقعوا عليه الكذب، ونسبوا إليه ما لا يليق به ﷺ. والوجه الآخر: أنه ظالم لنفسه، غاش لها؛ لأنه يمنعها بمعصيته الثواب، ويوجب لها السخط والعذاب».

ارحم نفسك في كل مراحل حياتك: في الصغر، وفي الشباب، وفي الشيخوخة.

قال مغيث بن الأسود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: زوروا القبور كلَّ يوم؛ تُفكِّركم، وشاهدوا

---

(١) الزّاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر (ص١٧٩، ١٨٠).

الموقف بقلوبكم، وانظروا إلىٰ المنصرف بالفريقين إلىٰ الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار، ومقامعها، وأطباقها[١].

وقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فكَّرت في الدنيا، ولذَّاتها، وشهواتها؛ فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتىٰ تُكدِّرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إنَّ فيها مواعظ لمن ادَّكر».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أُذكّرك الله! ما رحمت نفسك، فإنك قد حُذِّرت نارًا لا تطفأ».

وفي الصحيحين، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفَرَاش يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتم تَفَلَّتُون من يدي**».

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «مقصود الحديث: أنه ﷺ شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة، وحرصهم علىٰ الوقوع في ذلك، مع منعه إياهم، وقبضه علىٰ مواضع المنع منهم؛ بتساقط

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦١٢).

(٣) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص٩٧).

(٤) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٤١٨).

الفراش في نار الدنيا؛ لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص علىٰ هلاك نفسه، ساعٍ في ذلك؛ لجهله».

فارحم نفسك عبدَ الله، ولا تتقحم نار جهنم بالكفر، والشرك، والبدع، والذنوب، والمعاصي.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: ١١-١٨].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العقبة: قد فسَّرها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بالنار، وفسَّرها ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعقبة في النار؛ كما تقدم.

فأخبر سبحانه أن اقتحامها - وهو قطعها ومجاوزتها -، يحصل بالإحسان إلىٰ الخلق؛ إما بعتق الرقبة، وإما بالإطعام في المجاعة، والمُطعم؛ إما يتيم من ذوي القربىٰ، أو مسكين قد لصق بالتراب، فلم يبقَ له شيء.

ولا بد مع هذا الإحسان أن يكون من أهل الإيمان، والآمر لغيره بالعدل والإحسان، وهو التواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، وأخبر سبحانه أن هذه الأوصاف؛ أوصاف أصحاب الميمنة».

---

(١) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص١٨١).

ارحم نفسك، ولا تقطع عن نفسك سيرك إلىٰ الله بما يرضيه، بما تقترفه من المعاصي؛ فإن المعصية تزرع أمثالها، وتُقسي القلب وتفسده، حتىٰ يغشاه الران من كثرة الذنوب وتتابعها؛ فتذهب عنه قوته، ومادة حياته؛ فلا يُحِلُّ حلالًا، ولا يُحرّم حرامًا.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الإنسان قد يُعاقب بالمعصية لمعصية أخرىٰ، أي أنه تكون عقوبته أن يعصي الله مرة ثانية.

ويتفرع علىٰ هذا أيضًا فائدة، وهي: أن العقوبة لا تختص بالألم البدني، أو فوات الشهوات؛ بل قد تكون العقوبة بخذلان المرء عن الطاعات، ويذكر عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: إن الرجل ليُحرم قيام الليل بما فعل من المعصية، أو بالذنب يصيبه.

ولا شك أن المعاصي سبب للخذلان، ويؤيد ما قلنا هذه الآية ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وهي التي بنينا عليها هذه الفائدة؛ لكن يؤيدها أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾،

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٣٤٣).

هذه عقوبة بدنية، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، وهذه عقوبة دينية، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، وهذه أيضًا عقوبة دينية، ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، كذلك.

فالمعاصي لها أسباب سيئة، وعواقب وخيمة؛ نسأل الله العفو والعافية».

والسبيل لأن ترحم نفسك، فتدركك رحمة الله؛ هو أن تحَاسب نفسك قبل أن تُحَاسَب.

حاسب نفسك حساب من يعلم أن الله يحاسب علىٰ النقير والقطمير، ويمهل ولا يهمل[1].

حاسب نفسك حساب من يعلم أن موازين الحسنات أو السيئات ترجح بمثقال ذرة، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

حاسب نفسك حساب من يعلم أن أعماله كلها محصية، قال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر (ص١٨٨).

حاسب نفسك محاسبة من يتيقن أن الله لا يفوته، ولا يخفىٰ عليه شيء من أعمال العباد، وإن خفي ودقّ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

حاسب نفسك محاسبة من يعلم أن الله سيُنطق جوارحه في الآخرة؛ لتتحدث بما اجترحت وكسبت، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وهل دخل أهل الجنة الجنة، وفازوا برضوان الله ورحمته؛ إلا بسبب أنهم حاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، وأعدّوا ليوم الحساب عدَّته من الأعمال الصالحة، التي تكون سببًا في دخولهم الجنة؟!!

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: ١٨-٢٦].

ومن أعظم ما يجب عليك أن ترحم به نفسك، وتحترز منه؛ لسانك، فالأعضاء في كل يوم تقول: إنّما نحن بك، إن صلحت صلحنا، وإن اعوججت اعوججنا.

فاللسان خطره عظيم، تهاون في التحرز من شرِّه أكثر الخلق، إلا من شاء الله؛ قال النبي ﷺ: «**من تكفل لي ما بين لحييه ورجليه؛ أتكفل له بالجنة**»، رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ **لأصحابه يومًا**(١): أخبروني، لو كان معكم من يرفع حديثكم إلىٰ السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟ قالوا: لا. قال: فإن معكم من يرفع حديثكم، وهم الحفظة.

وشر اللسان غائلته لا تعود علىٰ المتكلم به فقط، بل من الكلام ما شرّه يفسد البلدان والأديان؛ فعوّد لسانك الكلم الطيّب، واحذر الفحش، والبذاء، والغيبة، والنميمة؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة؛ فإنها إن لم تنبت كلها، نبت بعضها.

---

(١) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر (ص٢٢٦).

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٧٦).

وإنّ من المنطق ما هو أشدّ من الصخر، وأنفذ من الإبر، وأمرُّ من الصبر، وأدور من الرّحا، وأحدُّ من الأسنّة، وربما اغتفرتُ حرًّا علىٰ حرارته؛ مخافة أن يكون أحرّ، وأمرّ، وأنكر منه».

ارحم نفسك بالعمل لها، بما يوجب عتقها من النار، وفوزها بالجنة، وإياك والتسويف والأماني، وإياك والاغترار بالشباب، وترك العمل، وتضييع أركان الإسلام؛ فإن الموت يأتي بغتة، ولا يختص الموت بكبار السن؛ فقد قضاه الله علىٰ الطفل، والصبي، والصغير، والكبير، ولا أحد يعلم متىٰ تأتيه منيّته؛ فكن مستعدًّا لموافاة الله بما يرضيه، حتىٰ إذا جاءك أجلك؛ لا تتحسر علىٰ ما لا يمكن استدراكه، فتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

قال العلامة صديق حسن خان القنوجي البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الندب إلىٰ التأهب للموت، والاحتراز قبل الفوت؛ لأن الإنسان لا يدري متىٰ يفجؤه الموت؛ لأنه ما من سن يفرض إلا وقد مات فيه جمع جم، فكل واحد بعينه جائز أن يموت في الحال؛ فينبغي أن يكون متأهبًا لذلك».

وإن أُمهلت حتىٰ بلغت سن الإعذار، كما قال النبي ﷺ: «**قد أعذر الله إلىٰ رجل، أمهله حتىٰ بلغ الستين**»، فهذا السن أولىٰ بالاستعداد لليوم الآخر،

(١) عون الباري (٦/ ٢٧٧).

فإن القدوم علىٰ الله ليس ببعيد، وقوىٰ البدن في هذا السن ليست كقوتها زمن الشباب، فإن ضيَّعت زمن الشباب؛ فاستدرك ما بقي من عمرك بالصلاح، وإياك والقدوم علىٰ الله بما يسخطه، ويُبعدك عن رحمته.

وإن كنت ممن أحسن زمن الشبيبة، فإياك أن تتقحم النار في آخر أيامك؛ فإن العبرة بالخواتيم، وإياك أن تحرق حسناتك، التي غرست بها بستانك في جنة الرحمن؛ بسيئات تقترفها في آخر سِنِي عمرك، فهذا إعصار اخترته أنت لنفسك؛ لتهلك جنتك التي غرستها بصالح عملك في أيامك الخالية.

قال تعالىٰ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا مثلٌ قلَّ - والله - من يعقله من الناس: شيخ كبير، ضعُف جسمه، وكثر صبيانه، أفقرُ ما كان إلىٰ جنَّته، وإن أحدكم - والله - أفقر ما يكون إلىٰ عمله إذا انقطعت عنه الدنيا».

وفي «صحيح البخاري»، عن عبيد بن عمير قال: قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيم تروْن هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٨٠٦).

جَنَّةٌ﴾؟

قالوا: الله أعلم.

فغضب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قم يا ابن أخي ولا تحقر نفسك.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضُربت مثلًا لعمل. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيّ عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم بعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي حتىٰ أغرق أعماله».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الجنَّة مشتملة علىٰ أفضل أنواع الثمار: التمر والعنب، ومع هذا تجري من تحتها الأنهار، وذلك أكمل لها، وأعظم في قدرها، ولم تعدم شيئًا من أنواع الثمار المشتهاة، بل فيها من كل الثمرات.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلىٰ شدة حاجته إلىٰ جنَّته، وتعلُّق قلبه بها من وجوه:

أحدها: أنه قد كبرت سنُّه عن الكسب، والتجارة، ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبره يشتدُّ حرصه.

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٨٠٨ - ٨١١)، باختصار.

الثالث: أن له ذرية، فهو حريص علىٰ بقاءِ جنَّته؛ لحاجته، وحاجة ذرِّيته.

الرابع: أنهم ضعفاءُ، فهم كَلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرِّفهم.

الخامس: أنَّ نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم. وهذا نهاية ما يكون من تعلَّق القلب بهذه الجنَّة؛ لخطرها في نفسه، وشدَّة حاجته، وحاجة ذريته إليها.

فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنَّته إعصار - وهو الريح التي تستدير في الأرض، ثمَّ ترتفع في طبقات الجو كالعمود -، وفيها نارٌ مرَّت بتلك الجنَّة فأحرقتها، وصيَّرتها رمادًا؟! فهكذا العبد إذا عمل طاعةً لله، ثم أتبعها بما يُبطلها ويفرِّقها من معاصي الله؛ كانت كالإعصار ذي النار، المحرق للجنة التي غرسها بطاعته، وعمله الصالح».

ارحم نفسك فلا تُوبقها بالمعاصي والبدع؛ فإنها لا تصبر علىٰ النار ولو غمسة، فضلًا عن المكث فيها؛ قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلىٰ النار».

فمن يصبر علىٰ نار تلظىٰ؟!

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٠٢).

ومن يصبر علىٰ نار تحيط بمن فيها ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]؟!

ومن يصبر علىٰ نار ثياب أهلها القطران، فيزداد اشتعالهم فيها؟!

ومن يصبر علىٰ نار يأكل بعضها بعضًا؟!

ومن يصبر علىٰ نار قعرها سبعون عامًا؟!!

ومن يصبر علىٰ نار طعام أهلها شجرة الزقوم، وماؤهم الصديد والمهل؟!

وفي «صحيح مسلم»، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: «**يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم! هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب.**

ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله».

❁ ❁ ❁

لا تشرد على اللّه شرود البعير

قال رسول الله ﷺ: «لتدخُلُنَّ الجنة، إلا من أبىٰ وشَرَدَ علىٰ الله كشِرَاد البعير»، رواه أحمد، والحاكم، والطبراني في «المعجم الكبير»، وصححه ابن حبان والألباني[١].

والله عَزَّوَجَلَّ ضاعف ثواب الحسنات؛ الحسنة إلىٰ سبعمائة ضعف، وثواب السيئة مثلها، وجعل للسيئة كفارة تمحها بالاستغفار، والندم، والتوبة. فمن خفت موازينه، مع هذا الفضل والكرم والرحمة في الحساب؛ فهو الذي شرد علىٰ الله شرود البعير.

وتأمل هذا المعنىٰ في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ، قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، فمن همّ بحسنة، فلم يعملها؛ كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها، وعملها؛ كتبها الله له**

(١) السلسلة الصحيحة (٥/ ٧١، ٧٢، ٧٣).

عنده عشر حسنات إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها؛ كتبها الله عند حسنة، فإن همّ بها فعملها؛ كتبها الله له سيئة واحدة، أو محاها، ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك».

قال العلامة ابن هُبَيْرَةَ الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**«ولا يهلك علىٰ الله إلا هالك»**؛ يعني: أن من سمع هذا عن فضل الله، ثم جبن عن متاجرته، أو شح عن الإنفاق في سبيله؛ فإنه هالك غير معذور».

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «هلك من غلبت واحدته أعشاره».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] **مبيّنًا خسران الشارد عن رحمة الله مع كثرة أسبابها**: «حيث قُدِّر قيام الموجب للوعيد؛ فإنَّ الحكم يتخلَّف عنه لمانع.

وموانع لحوق الوعيد متعدِّدة:

منها: التَّوبة، ومنها: الاستغفار، ومنها: الحسنات الماحية للسَّيِّئات، ومنها: بلاء الدُّنيا ومصائبها، ومنها: شفاعة شفيعٍ مطاعٍ، ومنها: رحمة أرحم الرَّاحمين.

فإذا عُدمت هذه الأسباب كلُّها، ولن تُعدم إلَّا في حقِّ من عَتَا، وتمَرَّد،

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٨١).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٢٠).
(٣) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٤٣).

وشَرَد علىٰ الله شرود البعير علىٰ أهله؛ فهنالك يلحق الوعيد به».

وروىٰ الإمام أحمد - وصححه ابن حبان -؛ أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله! كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فكل سوء عملناه جُزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر! ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأْواء؟**»، قال: بلىٰ. قال: «**فهو مما تُجزون به**».

وروىٰ الطيالسي، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، فقال: «**يا عائشة، هذه معاتبة الله للعبد مما يصيبه من الحُمَّىٰ، والنَّكْبة، والشوكة، حتىٰ البضاعة يضعها في كمِّه، فيفزع لها؛ فيجدها في جيبه، حتىٰ إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التِّبْر الأحمر من الكير**».

وروىٰ ابن مردويه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ بكينا وحزنَّا، وقلنا: يا رسول الله! ما أبقت هذه الآية من شيء!!

فقال النبي ﷺ: «أما والذي نفسي بيده، إنها لكما نزلت، ولكن أبشروا، وقاربوا، وسدِّدوا؛ فإنه لا يصيب أحدًا منكم مصيبةٌ في الدنيا، إلا كفّر الله بها

من خطيئته، حتىٰ الشوكة يُشاكها».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا سقم ولا حزن، حتىٰ الهمَّ يهمُّه؛ إلا كُفِّر به من سيئاته**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ووِدُّه سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]. فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرة؛ فإنه ودود رحيم بالمؤمنين؛ يُحبُّ التوابين، ويحبُّ المتطهرين.

ولهذا قال شعيب: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: ٩٠]، وقال هنا: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ١٤]؛ فذكر «الودود» في الموضعين؛ لبيان مودَّته للمذنب إذا تاب إليه، بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ودَّ فيه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2] **مبيِّنًا الفرق بين حساب الله للموحدين برحمته**

---

(١) النبوات (١/ ٣٦٩).

(٢) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص٣٠٢).

والمشركين بعدله: «المسلمون ذنوبهم ذنوب موحِّدٍ، إن قوي التَّوحيد علىٰ محو آثارها بالكلِّيَّة، وإلَّا فما معهم من التَّوحيد يُخرجهم من النَّار، إذا عُذِّبوا بذنوبهم.

وأمَّا المشركون والكفَّار: فإنَّ شركهم وكفرهم يُحْبط حسناتهم، فلا يلقون ربَّهم بحسنةٍ يرجون بها النَّجاة، ولا يُغفر لهم شيء من ذنوبهم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالىٰ في حقِّ الكفَّار والمشركين: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «**أبىٰ الله أن يقبل من مشركٍ عملًا**».

فالذُّنوب تزول آثارها بالتَّوبة النَّصوح، والتَّوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفِّرة لها، وشفاعة الشَّافعين في الموحِّدين، وآخر ذلك إذا عُذِّب بما يبقىٰ عليه منها؛ أخرجه توحيده من النَّار، وأمَّا الشِّرك بالله، والكفر بالرَّسول ﷺ؛ فإنَّه يُحْبِط جميع الحسنات، بحيث لا تبقىٰ معه حسنة».

وبعض الوالدين موفق لتوجيه أبنائه لأسباب إدراك رحمة الله؛ قال عبد النور السليطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تعبَّد رجل من بني تميم - وكان يحيي الليل صلاةً - فقالت له أمه: يا بُني، لو نمتَ من الليل شيئًا!

فقال: ما شئتِ يا أُمَّه. إن شئتِ نمتُ اليوم، ولم أنم غدًا في الآخرة، وإن شئتِ لم أنم اليوم؛ لعلي أدرك الراحة غدًا، مع المستريحين من عُسر الحساب.

قالت: والله يا بني ما أردتُ لك إلا الراحة، فراحة الآخرة أحبُّ إليَّ من راحة الدنيا يا بني، فحالف السهر أيام الحياة؛ لعلك تنجو من عُسر ذلك اليوم(١).

والحمد لله قيام الليل يُدرك مع الراحة، ينام من أراد التهجد مبكّرًا؛ فيأخذ بدنه قسطًا من الراحة، وربما كان أيسر له أكثر لو نام قائلة الظهر، ويقوم بعض الليل؛ أو ثلثه، أو أقل، أو أكثر، فقد زجر النبي ﷺ ذلك الصحابي، الذي قال مفاخرًا بقيام الليل كله: «وأما أنا فأقوم ولا أنام»، فقال له النبي ﷺ: «**وأمّا أنا فأقوم وأنام**»، متفق عليه.

والله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده، عالم بحاجتهم وضرورتهم إلىٰ النوم؛ ليقوموا بوظائف أعمالهم الدينية والدنيوية نهارًا، فشرع لهم قيام بعض الليل لا كله، قال تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزَّمل: ٢٠].

والمؤمن الموحّد يعلم نقصه، فينتصف من نفسه لربه؛ بالاستغفار من ذنوبه، ويعلم التقصير في عبوديته لله، وغفلته عن ذكر الله، وشكره في بعض

---

(١) الرِّقَّة والبُكاء لابن قدامة (ص٣٨٨).

أو كثير من الأحيان؛ فيسارع إلىٰ إصلاح الخلل، ويأوي إلىٰ الغفور الودود الرحيم؛ ليعفو ويرضىٰ عنه، ويتقبل منه أحسن ما عمل، ويتجاوز عن سيئاته في أصحاب الجنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الذنب لازم لجميع بني آدم، وإنما كمالُ المؤمنين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ في التوبة من الذنب والاستغفار، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، إلىٰ آخر السورة.

وقد أخبر تعالىٰ أنه يُبدِّلُ سيئاتِ التائب حسناتٍ، وأنه يَفرح بتوبة العبد أشدَّ فرحٍ يُقدَّر.

فالذنوب إذا كانت مغمورةً بالحسنات؛ لم يُعاقَب صاحبُها بالنار، لكن يكون تأثيرها في تفاوتِ الدرجات؛ فأعلَىٰ الخلقِ منزلةً: العبدُ الذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبذلك وصفه الرسول الذي قبلَه - عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - الذي دلَّ عليه، والطالبون للشفاعة منه، وجعل ذلك هو السبب في كونه يكون شفيعَ الخلائق؛ لأنه لما غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، لم يبقَ يَحتاجُ

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٧٨، ٢٧٩).

إلىٰ أن يَشفع لنفسِه ويَستغفر؛ فأمكنَه أن يَشفعَ لغيرِه، بخلافِ من يقول: نفسي نفسي. فإنه يكون محتاجًا إلىٰ الشفاعة حينئذٍ لنفسِه، ويستغفر لنفسه؛ فلا يشفع لغيره في هذا المقام، وإن كان يشفع بعد ذلك، فإن الله سبحانه لا بُدَّ أن يَغفِر جميع هذه الذنوب، وما هو أعظمُ منها، لكن يتأخَّرُ ذلك عن مقامِ الشفاعة، بخلافِ الذي غُفِر له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخرَ قبلَ هذا المقام، فإنه سائر في مقام المغفرة.

ولهذا قال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وهو أحد الرسل الكبار، المطلوب منهم الشفاعةُ يومئذٍ -: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. فالمغفرة التي رجاها تكون يومَ الدين، وهي واقعةٌ بعد شفاعة سيّد ولد آدمِ؛ فإنه قبل ذلك يقول: إنّ ربّي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا؛ لم يَغضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثلَه، ويذكُر خطيئتَه: نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ موسىٰ.

وهذا كلُّه مما يؤكِّدُ أمرَ الاستغفار، ويُبيِّن أنه نهايةُ الأمر، وأنَّ السائرَ فيه هو من سائر السابقين، فتكريره يوجب من ذلك ما لا يُوجبه غيرُه».

❁ ❁ ❁

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾

القنوط من رحمة الله: هو أن العبد إذا تراكمت عليه الذنوب؛ أيس من رحمة الله، فيقول: قد استوجبت النار. فيترك العمل؛ من الصلاة، والصوم والتوبة، والاستغفار؛ فيهلك[1]!

قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: القنوط أشدُّ اليأس، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالُّ؛ الذي لا يعرف رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وكرمه، وجوده.

ونهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أن نقنط من رحمته، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾، وهذا مع التوبة، أما مع عدم التوبة؛ فالشرك لا يُغفر؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ

---

(١) نوادر الأصول (١/ ٢١٨).

(٢) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٣٦٢).

ﭐللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]؛ ولهذا أجمع المفسرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ - فيما نعلم -: أن هذه الآية نزلت في التائبين».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يقنطنَّ عبدٌ من رحمة الله، وإن عَظُمَتْ ذنوبه وكَثُرَتْ؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالىٰ في حقِّ المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠]، قال الحسن البصري: انظر إلىٰ هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والمغفرة!».

ثم قال متمِّمًا[٢]: «وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في قوله: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] إلىٰ آخر الآية؛ قال: قد دعا الله إلىٰ مغفرته من

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٣).

زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عُزيرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة؛ يقول الله تعالىٰ لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلىٰ توبته من هو أعظم قولًا من هؤلاء؛ من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا؛ فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبدُ أن يتوب حتىٰ يتوب الله عليه».

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الأوَّاب: هو الرجَّاع الذي يرجع إلىٰ التوبة بعد الذنب، ثم يتكرر ذلك منه؛ ولذلك قيل له: أوَّاب: أي رجَّاع.

فإذا كان سبحانه للأوابين غفورًا، فكيف بالصالحين، ولم يقل: فإنه كان للصالحين غفورًا. وفي هذه زيادة فائدة، وهو أن الغَفْر في حال الأوابين أوقع منه في حال الصالحين؛ فإن الله سبحانه إذا شهد لقوم بالصلاح فإن حالهم يقتضي رفع المنازل والدرجات، علىٰ أن فيها إشارة إلىٰ أن كل

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٢٣٩).

صالح غير آمن من حال يصدر عنه تتبعها الأوبة، فيُلحقها المغفرة، فسبحان المتكلم بهذا القرآن».

وقال النبي ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يدهب النهار؛ ليتوب مسيء الليل**»، رواه مسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال المدائني رَحِمَهُ اللَّهُ: قارف الزهري ذنبًا، فاستوحش منه، وهام علىٰ وجهه، وترك أهله وماله، فلما اجتمع بعليِّ بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ، قال له: يا زهري! قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء؛ أعظم من ذنبك!!!

فقال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. **وفي رواية**: أنه أصاب دمًا خطأً، فأمره عليٌّ بالتوبة والاستغفار، وأن يبعث الدِّية إلىٰ أهله، وكان الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: عليُّ بن الحسين أعظم الناس عليَّ منّةً[1].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «والله! ما سلم القوم من الذنوب، وما نجوا إلا بالمغفرة».

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: جئت إلىٰ سفيان الثوري عشية عرفة، وهو جاثٍ علىٰ ركبتيه وعيناه تهملان، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالًا؟

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٤٩٠).
(٢) الزهد لأبي حاتم الرازي (ص٤١).

قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم[١].

وقال حميد بن هشام الداراني، لأبي سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية[٢]: «يا عم، لِمَ تشدد علينا؟ وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]. قال: اقرأ. فقرأت: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ قال: اقرأ. فقرأت: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾ قال: اقرأ، فقرأت: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨].

فأقمت أيامًا ثم قرأ ما يتلو هذا: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]، فقلت له: يا عم، قد قال الله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]، فأنا - بحمد الله ونعمته - لم أكذب بآيات الله ربي، ولا استكبرت عن عبادته، وما أنا من الكافرين. فمسح - يعني: رأسي - وقال: يا بني، اتقِ الله تعالىٰ، وخفه وارجُه».

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٩٩). (٢) مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور (٧/ ٢٧٨، ٢٧٩).

من أكبر الكبائر
القنوط من رحمة اللّه

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله».

وإنما كان القنوط من رحمة الله من أكبر الكبائر؛ لأنه سوء ظن بالله.

وما الذي يُقنِّطك من رحمة الله؟! إنه الشيطان، وهو الذي قد وسوس إليك بالمعصية وساقك إليها، ثم يريد أن يُقنِّطك من رحمة الله؛ فلا تتوب؛ فتكون من أهل النار؛ فاحذر الشيطان قبل فعل المعصية وبعدها.

قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا عام في جميع الذنوب؛ من كفر

---

(١) رواه الطبري، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٨٥).

وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق، وغير ذلك، كل من تاب - أي: من أي ذلك -؛ تاب الله عليه».

والقنوط من رحمة الله هلكة؛ لأن العبد إذا أيس وقنط من رحمة الله، وتوهم أنه لا سبيل له إلىٰ عفو الله ورحمته؛ استكثر من الذنوب، ومات علىٰ المعصية وسوء الظن بالله.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١]: «أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يُغفر. فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وقال ابن أبي حاتم: ورُوي عن عبيدة السلماني، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابة، نحو ذلك. يعني: نحو قول النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يُغفر له، فيُلقي بيده إلىٰ التهلكة، أي: يستكثر من الذنوب فيهلك؛ ولهذا روىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: التَّهلكة: عذاب الله».

❁ ❁ ❁

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٣٣).

لا قنوط من رحمة اللّه، ولا جرأة على معاصيه

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يقول تعالىٰ مخبرًا عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل، وانقاد لأمره واتبع شرعه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي: في عمله؛ باتّباع ما به أُمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقًا من الله متينًا لا يعذبه».

وقال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص؛ وهي الفطرة: فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة؛ وهي الملَّة، والطاعة؛ وهي العصمة.

فقال له عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: صدقت[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٩٥).

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هو الأمر بالتأهب للموت علىٰ الإسلام، والمداومة علىٰ الطاعة لأجل ذلك».

ومن تقوىٰ الله حق تقاته: التوبة النصوح؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: ٨]، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]: «﴿تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾؛ أن يتوب ثم لا يعود؛ فهذه التوبة الواجبة التامة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «[نصوح] هي صفة للتوبة، وهي مشتقة من النصح والنصيحة.

وأصل ذلك هو الخلوص؛ يقال: فلان ينصح لفلان. إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٤).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٣٥٠).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٣٥١).

ثم قال[١]: «فالتَّوبة النَّصوح: هي الخالصة من كلِّ غشٍّ، وإذا كانت كذلك كائنةً؛ فإنَّ العبد إنَّما يعود إلىٰ الذَّنب لبقايا في نفسه، فمن خرج من قلبه الشُّبهة والشَّهوة لم يعد إلىٰ الذَّنب؛ فهذه التَّوبة النَّصوح، وهي واجبة بما أمر الله تعالىٰ؛ ولو تاب العبد ثمَّ عاد إلىٰ الذَّنب قبل الله توبته الأولىٰ، ثمَّ إذا عاد استحقَّ العقوبة، فإن تاب تاب الله عليه أيضًا.

ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثمَّ عاد أن يصرَّ؛ بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرَّةٍ».

والمؤمن الذي تحيطه الرحمة، ويُدركه الله بلطفه وتوفيقه وحفظه، وييسره للأسباب التي تُدرك بها رحمة الله، من العمل الصالح؛ هو الذي إذا أتىٰ معصية استغفر ربه وتاب وأناب وأتىٰ بأسباب عفو الله وارتفاع سخطه، ولم يصر علىٰ أسباب سخط الله بالإصرار علىٰ الذنوب والمعاصي؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالإصرار علىٰ المعصية يورث قسوةً في القلب؛ وربما زيغًا يحول بين صاحبه وبين التوبة؛ فلا يُوفَّق إليها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٣٥١).

بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإياك والإعراض عن الله؛ بتضييع الصلوات، وقسوة القلب عن ذكر الله، واللهو بالمعاصي والمنكرات؛ فهذا الإعراض شرود عن رحمة الله، وإقبال علىٰ سخطه، والعياذ بالله.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إياكم والإعراض عن ذكر الله؛ فإن من أعرض عن ذكره فقد اغترَّ أكبر الغرَّة، وأعوز أشد العوَز، وعَظَّمَ مِنْ أعظم الذنوب. ولهذا قال تعالىٰ متهددا لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام».

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ١٤٩).

رحمة الله لا ممسك لها

قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: ٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ **قال رسول الله** ﷺ: «**لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت. ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مُكره له**».

والذي يجعل بعض الخلق لا يعزم المسألة في دعائه؛ استشعاره بتفريطه في جنب الله.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه: تعليم السائل لربه كيف يسأل، وأن الله سبحانه لما عَظُم كرمه، وعزز فضله، لم يكن ينال ذلك بمقتضىٰ مبلغ عقول البشر، فَعَلَّمهم سبحانه كيف يسألون فضله بألسنة الطلب؛ ومن ذلك ما علمهم إياه علىٰ لسان رسوله ﷺ.

ومنه ما ادخره ليعلمه عباده في الآخرة؛ فكان من ذلك الذي علمهم إياه

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٢٤٠، ٢٤١).

علىٰ لسان رسوله ﷺ أن يعزم العبد المسألة، ويجزمها، ويقطع بها، ولا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت. فإن قوله: إن شئت. في سؤاله يدل علىٰ ضعف السائل وتردده من حيث إنه نظر عند طلبه إلىٰ ما كان منه من السوء، ولو قد نظر عند طلبه إلىٰ جود ربه سبحانه، وأوسع الطلب، وأعظم السؤال؛ لكان ذلك مما يناسب كرم الرب جَلَّجَلَالُهُ؛ إذ ليس عطاء الله سبحانه علىٰ مقدار سائله؛ ولكنه بحسب جود المعطي.

وليعزم في سؤاله؛ فإن كرم الله متسع لذلك وأمثاله، ومتىٰ علَّقه بالمشيئة استبدل بذلك منه، علىٰ أنه لم يعرف الله حق معرفته، ويدل علىٰ ما قلناه قوله: «**فإنه لا مكره له**»؛ لأنه لو لم يشأ لم يشرع الدعاء، ولم يندب الخلق إلىٰ الطلب، فلما شرع الدعاء، وندب إليه، واستدعىٰ من الخلق أن يمدوا أيديهم إلىٰ قضاء، وعلمنا أنه قد شاء الإجابة.

واعلم أنه شرع ذلك قبل أن يسأله السائلون عن غير إكراه؛ إذ الخلق كلهم دون أن يتعرضوا لنيل شيء من فضله إلا عن خضوع وسؤال وطلب.

ويدل علىٰ ما قلنا قوله: «وليعظم الرغبة» أي: لا يقتصر؛ فإن أحد ملوك هذه الدنيا لو قد تعرَّض له سائل فتوصل إلىٰ لقائه، فلما واجهه قال له: سلني. فلما سأله، فلسًا من نحاس لاستهجن ذلك، وخاطبته العقول بألسنة الأحوال: يا هذا! تسأل من هذا الملك الواجد - وقد قال لك: اطلب مني. ودعاك

إلىٰ سؤاله - هذا المقدار اللطيف؛ لقد أفصحت بمسألتك هذا عن تبخيل هذا الملك، أو اختلال عقلك.

فجميع الدنيا، وأضعافها، وما يعطيه الله في الجنة لعبده علىٰ سعتها، وكثرة العطاء، وإذا قيس الكثير منه إلىٰ ما يجود به ذلك إلىٰ الملك من أهل الدنيا من الفلس النحاس؛ كان الفلس في حال ذلك الملك مؤثرًا، وفي جوده معتبرًا، وجميع الدنيا، وسائر عطايا الجنة غير مؤثر فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولا في عطائه».

وروىٰ مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، عن الله تعالىٰ؛ أنه قال: «**يا عبادي إني حرمتُ الظلمَ علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا!**

يا عبادي، إنَّكم تخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفر الذُّنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلَّا من كسوته، فاستكسوني أَكْسُكُم.

يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم؛ كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجلٍ واحدٍ منكم، لم يزد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم،

وإنسكم وجنَّكم، كانوا علىٰ أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما ينقص البحر أن يُغمس فيه المخيط غمسة واحدة.

يا عبادي، إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثمَّ أوفِّيكم إيَّاها؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه».

والبعض يكرَّه للناس عفو الله ورحمته ومغفرته، فالله يتوب علىٰ من تاب، ومن كانت أخلاقه شيطانية فإنه يكره عفو الله عن خلقه، فالشيطان أدحر وأصغر ما يكون يوم عرفة لكثرة ما يُعتق الله عباده من النار، وهذه نزعة سبئية؛ فإن أول من أظهر ذلك علانية في الأمة، وأخذ يسب خيار خلق الله بما قضاه الله عليهم كونًا؛ هو عبد الله بن سبأ اليهودي؛ فإنه خرج من اليمن إلىٰ مصر أيام خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخذ يُحرِّش الناس علىٰ عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويقول للعامة: إن عثمان تولىٰ يوم أحد. وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تاب الله عليه في هذا المقام، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وحَسُن جهاده في سائر

الغزوات، ومقامه معلوم في تجهيز جيش العُسْرَة، وأعظم جهاده: صبره علىٰ أذىٰ الخوارج عليه؛ فلم يفدِ نفسه بإراقة دماء الأمة، ولم يخشَ أولئك الخارجين عليه، ولزم أمر النبي ﷺ ووصيته له.

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أما عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه. رواه أحمد.

وهذا التحريش علىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ملأ قلوب الغوغاء من الضغينة والكراهية لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يساوي شيئًا مع الحب والتوقير الذي ملأ الله به قلوب خيار عباد الله له وذلك لعدلهم وإنصافهم ودينهم، قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني قد نظرت في أمر الناس؛ فلم أرهم يعدلون بعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»(١).

وبإزاء أولئك الذين كرهوا عفو الله عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نستذكر فرح طلحة بن عبيد الله وغيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بتوبة الله علىٰ كعب بن مالك وصاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قام النبي ﷺ في الصلاة، وقمنا معه، فقال أعرابي: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فلما سلَّم رسول الله ﷺ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب: كيف يبايع الإمامُ الناس (ص١٢٤١ - رقم ٧٢٠٧).

قال: «**لقد تَحَجَّرْتَ واسعًا**» متفق عليه.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «في هذا الحديث ما يدل علىٰ قلة فقه الأعرابي، وأنه لم يكن من أهل المعرفة بالله سبحانه؛ فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وإنما قال الأعرابي ذلك، أو يقول مثله؛ من يرىٰ أن معاصي الخلق وإن كثرت؛ تبلغ إلىٰ أن تعالت حكم الله، وكريم صفحه وعفوه.

وقول النبي ﷺ: «**لقد تحجرت واسعًا**»، أي: تحجرت تحجرًا واسعًا علىٰ فضل الله سبحانه، وجوده، وقلت ما ليس لك قوله، وسألت ما لا يحسن سؤاله. فإن السيول الدوافع قد تكف، والبحور الزواخر قد تغيض، والغيوث الهوامع قد تُقْلع، وفضل الله عَزَّوَجَلَّ وجوده علىٰ خلقه لا يكف، ولا يغيض، ولا يقلع أبدًا».

وفي الصحيحين في قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا: «فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدلوه، فسأله: هل لي من توبة؟ فقال: لا. فقتله؛ فأكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدلوه، فقال: هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة».

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر: ٢].

وحَجْبُ رحمة الله عن عباده التائبين لا يملكه أحد، وهو تألٍ علىٰ الله، قد يكون باعثه عُجْبَ الإنسان بصلاحه، وكان فيمن قبلنا رجل يمرّ بصاحب المعصية، فيعظه؛ فلا ينزجر، فلا يزال به حتىٰ قال له: والله لا يغفر الله لك!

«**قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **من ذا الذي يتألىٰ عليّ أن لا أغفر له؛ فإني قد غفرت له، وأحبطت عملك**».

قال أبو حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أفضل خصلة تُرجىٰ للمؤمن: أن يكون أشد الناس خوفًا علىٰ نفسه، وأرجاه لكل مسلم».

❁ ❁ ❁

(١) سير السلف (٣/ ٧٩٧).

رحمتك وشقاؤك
هو طائرك الذي في عنقك

تلا الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **هذه الآية:** ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] وقال: «يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفةٌ، ووُكِّل بك ملكان كريمان؛ أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك؛ فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أَقلِلْ أو أَكثِر حتىٰ إذا مِتَّ طُويت صحيفتك، وجُعلت في عنقك معك في قبرك، حتىٰ تخرج يوم القيامة؛ فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، ثم يقول: عَدَل - والله - فيك من جعلك حسيب نفسك»[١].

وفي الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «**يتبع الميِّت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان، ويبقىٰ واحد؛ يرجع أهله وماله، ويبقىٰ عمله**».

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٣٤٣).

قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «وافق أعمالهم».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام: ١٣٢]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي دخلوا بها النار».

وقال أيضًا[٢]: «فليس عقاب من تغلَّظ كفره، وأفسد في الأرض، ودعا إلىٰ الكفر، كمن ليس كذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وكذلك؛ تفاوت عذاب عصاة الموحدين في النار بحسب أعمالهم؛ فليس عقوبة أهل الكبائر، كعقوبة أصحاب الصغائر، وقد يُخفف عن بعضهم العذاب، بحسنات أُخر له، أو بما شاء الله من الأسباب».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إن المعاصي والذُّنوب تعمي بصيرة القلب؛

(١، ٢) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص١٢٤).

(٣) الجواب الكافي (ص١١٦، ١١٧).

فلا يدرك الحقَّ كما ينبغي، وتُضعفُ قوَّتهُ وعزيمته؛ فلا يصبرُ عليه، بل قد يتواردُ علىٰ القلب حتَّىٰ ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره؛ فيُدرك الباطل حقًّا، والحقَّ باطلًا، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ فينتكس في سيره ويرجعُ عن سفره إلىٰ الله والدَّار الآخرة، إلىٰ سفره إلىٰ مستقرِّ النُّفوس المبطلة الَّتي رضيت بالحياة الدُّنيا، واطمأنَّتْ بها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه.

ولو لم يكن في عقوبة الذُّنوب إلَّا هذه العقوبة وحدها؛ لكانت داعيةً إلىٰ تركها والبُعْدِ عنها، والله المستعان».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - إنما جاءوا بالدعوة إلىٰ النعيم المقيم، والمُلك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه؛ فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم؛ فإن الزهد في الدنيا مُلك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد؛ فيحرص كل الحرص علىٰ أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين؛ فهو المَلِكُ حقًّا؛ لأن صاحب هذا الملك حر، والمَلِكُ المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخر

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٩٩).

مملوك في زي مالك، يقوده زمام الشهوة والغضب كما يُقاد البعير؛ فالمغرور المخدوع يقطع نظره علىٰ الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلىٰ الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة.

والبصير الموفق يعير نظره من الأوائل إلىٰ الأواخر، ومن المباديء إلىٰ العواقب؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

فالإيمان والعمل الصالح رحمة يرحم العبد بها نفسه؛ فبها يدرك رضا الله ومغفرته وعفوه وإحسانه، وبالكفر والبدع والمعاصي يبوء بسخط الله ومقته وغضبه وعقابه، إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا، فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٠].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم، والخير ضد الشر.

فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢١٥).

وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدىٰ والعلم والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم؛ كل ذلك مسبَّب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه».

فالإنسان هو الذي يختار لنفسه أن يكون شقيًّا أو مرحومًا.

وروىٰ أحمد في مسنده، والترمذي وأبو داود؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نُزعت الرحمة إلَّا من شقيٍّ**».

والرحمة ينزعها الله من عباده بما تسببوا هم فيه علىٰ أنفسهم من الأسباب، والرحمة تُدرَك بطاعة الله والرحمةِ بعباده.

قال العلامة عبد القادر بن بدران الدومي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله تعالىٰ جعل الرَّحمة والشفقة مُمَيِّزتين بين السعيد والشقيِّ، فمن أوتي الرَّحمة فرحم نفسه بعبادته لله تعالىٰ واتِّباع أوامره، والشَّفقة علىٰ الخلق بتقديم ما ينفعهم في معادهم ومعاشهم، وإبعاد ما يَضرُّهم في ذلك؛ فهو السَّعيدُ. ومن نُزعت منه الرحمة؛ فلم يرحم نفسه بطاعة الله، وأقبل علىٰ معاصيه، وعلىٰ ضرر خلقه؛ فهو الشقيُّ، فالرحمة هي المميِّزُ الأكبر بين الشقيِّ والسَّعيد».

فأنت - أيها المسلم - في سفرٍ إلىٰ الله، فتزود لسيرك إلىٰ الله، قال تعالىٰ:

---

(١) شرح كتاب الشهاب (ص١٧).

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإذا ثقل الظهر بالأوزار منع القلب من السير إلىٰ الله، والجوارح من النهوض في طاعته، وكيف يقطع مسافة السفر مثقل بالحمل علىٰ ظهره، وكيف ينهض إلىٰ الله قلب قد أثقلته الأوزار، فلو وُضعت عنه أوزاره؛ لنهض وطار شوقًا إلىٰ ربه، ولانقلب عسره يسرًا؛ فإن ضيق الصدور وحمل الوزر وخمول الذكر من أعظم العسر، ومعه يسر يقلبه إليه وهو تجريد التوحيد وتجريد الطاعة بمتابعة الرسول ﷺ، وهما الأصلان اللذان ختم بهما السورة، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨]. فالنصب: التفرغ للعبادة والطاعة، والرغبة إلىٰ الله وحده وتجريد توحيده، فمتىٰ قام بهذين الأصلين حصل له من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بحسب ما قام به، وبدِّل عسره يسرًا».

❁ ❁ ❁

(١) الكلام علىٰ مسألة السماع (ص٤٠٣).

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾

من علم أن الله جبار السموات والأرض سيحاسب المخلوق الضعيف؛ خشي علىٰ نفسه من أن يُسخط ربه ويأتي بأسباب عقوبته وعذابه.

قال تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وفي الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله، ليس بينه وبينه تُرْجُمَان**».

قال إبراهيم بن الأشعث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت فضيلًا يقول ذات ليلة، وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي، ويردد هذه الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وجعل يقول: وتبلو أخبارنا! ويردد: وتبلو أخبارنا! إن بلوت أخبارنا فضحتنا، وهتكت أستارنا، إن

بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا. ويبكي[١].

فالمقصود: أن العبد متىٰ أخلص لله في عبادته وإنابته وتوبته وأوبته؛ فإن ذلك يورثه خشية الله لا خشية الناس؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا يورثه - بلا ريب - صلاح الحال في السر والعلانية، ويوجب له إقبالًا علىٰ الله، وانكفافًا عن معاصيه.

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هو سبحانه أَهلٌ أَنْ يُخْشَىٰ ويُهابَ ويُجلَّ ويُعظمَ في صدورِ عبادِه؛ حتَّىٰ يعبُدوه ويطيعوه؛ لِمَا يستحقُّه من الإجلالِ والإكرام، وصفاتِ الكبرياءِ والعظمةِ، وقوَّةِ البطشِ وشدَّةِ البأس.

وفي الترمذي عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قال: قال الله تعالىٰ: أنا أهل أن أُتَّقىٰ، فمن اتَّقاني فلم يجعل معي إلهًا آخر؛ فأنا أَهْلٌ أن أغفر له».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، قال يزيد بن عبد الله بن الشخير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كنّا نتحدث أن صاحب النار الذي لا تمنعه مخافة الله من شيء خفِي له».

---

(١) الرقة والبكاء، لابن قدامة (ص٣٥٥).

(٢، ٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار (ص١٢).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير الآية**[١]: «هو الرجل يهمُّ بالمعصية، فيذكر الله؛ فيتركها».

وقال مجاهد أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معنىٰ الآية**[٢]: «هو الرجل يذهب فيذكر مقام الله؛ فيدعه».

وقال أيضًا في بيان الآية[٣]: «الله قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، فمن أراد أن يعمل شيئًا فخاف مقام ربه عليه؛ فله جنتان».

ومع هذا فإن الحياء شعبة من الإيمان، ونهىٰ الله عن إشاعة الفاحشة، وتوعَّد فاعليها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لما فيها من الإفساد لعامة المسلمين، والمضارة بالإسلام وأهله، وحجب الله توبته عن المجاهرين بالمعصية؛ حيث قال النبي ﷺ: «**كل أمتي معافًىٰ إلا المجاهرين؛ وإن من المجاهرة أن يعمل الرَّجلُ بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**» متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأمر النبي ﷺ عباد الله بأن يستبرئوا لأديانهم وأعراضهم؛ كل ذلك تحقيقًا للتقوىٰ، وصيانة للعباد عن أسباب الشر وفساد الأفراد والمجتمعات.

(١، ٢، ٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار (ص١٢).

﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا شك أن من فعل هذا؛ أن الله سيرحمه، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**من أراد الرحمة فهذا طريقها**، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول ﷺ؛ فهو مُتمنٍّ كاذب، وقد منَّته نفسه الأماني الكاذبة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الصلاة؛ فإنَّها محكُّ الأحوال، وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل، ويتحقَّق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٠٤).

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٦٦٥- ٦٦٧).

ونصيبه منه؛ فإنَّها محلُّ المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربِّه.

فلا شيء أقرَّ لعين المحبِّ، ولا ألذَّ لقلبه، ولا أنعم لعيشه منها؛ إن كان محبًّا؛ فإنه لا شيء آثر عند المحبِّ ولا أطيب له؛ من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومثوله بين يديه، وقد أقبل بقلبه علىٰ محبوبه. وكان قبل ذلك معذَّبًا بمقاساة الأغيار، ومواصلة الخلق، والاشتغال بهم، فإذا قام إلىٰ الصلاة هرب من سوىٰ الله إليه، وآوىٰ عنده، واطمأنَّ بذكره، وقرَّت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته.

فلا شيء أهمَّ إليه من الصلاة؛ كأنَّه في سجن وضيق وغمٍّ، حتَّىٰ تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسخ وانشرح واستراح؛ كما قال النبي ﷺ لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا بلال! أرحنا بالصلاة**»، ولم يقل: أَرِحْنا منها. كما يقول المبطلون الغافلون!

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في همٍّ وغمٍّ حتىٰ تحضر الصلاة؛ فيزول همُّه وغمُّه. أو كما قال.

فالصلاة قرَّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذَّة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همُّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفارغ البطَّال همَّها حتىٰ يقضيها بسرعة، فَلَهُمْ فيها شأْن، وللنقَّارين شأْن!

يشكون إلىٰ الله سوءَ صنيعهم بها إذا ائتموا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه.

فسبحان من فاضل بين النفوس، وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم!

وبالجملة؛ فمن كانت قرَّة عينه في الصلاة فلا شيء أحبَّ إليه، ولا أنعم عنده منها، وبودِّه أَن لو قطع عمرَه بها غير مشتغل بغيرها، وإنما يسلِّي نفسه إذا فارقها بأنَّه سيعود إليها عن قرب.

فهو دائمًا يثوب إليها ولا يقضي منها وطرًا.

فلا يزنُ العبد إيمانه ومحبَّته لله بمثل ميزان الصلاة؛ فإنّها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل».

❁ ❁ ❁

مناظرة بين
مسلم ونصراني في سعة رحمة اللّه

النصارىٰ رفضوا رحمة الله المهداة لهم؛ فكفروا برسول الله محمد ﷺ، الذي بشّر به المسيح عيسىٰ ابن مريم، ومن قبله موسىٰ - عليهما السلام -؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فالنصارىٰ ردوا رحمة الله التي وسعت كل شيء؛ فواجبهم أن يلوموا أنفسهم لرغبتهم عن هذه الرحمة، لا أن يستغربوا كيف حُرموها! قال تعالىٰ في شأن خاتم المرسلين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالنصارىٰ واليهود هم الذين استبدلوا رحمة الله بنقمته، ورضاه بسخطه، ومعافاته بعقوبته.

قال محمد بن أبي عبد الله الخزاعي: حدثني رجل من أهل الشام؛ قال: صحبني رجل من النصارىٰ فقال: أريد راهبًا هاهنا أقتبس من علمه.

فأتينا شيخًا كبيرًا فسلمنا عليه.

فقال النصراني: ما الذي آيسني عندك من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!

قال الشامي: إن رحمة الله لن ينالها غير أهل الإسلام.

وقال الشيخ الكبير: ما أعرف غير الإسلام دينًا!

فاشمأزَّ النصراني وقال: يا مُعلِّم الخير، ترغب عن النصرانية ودين المسيح؟!

قال الشيخ الكبير: ثكلتك أمُّك! أنا علىٰ دين المسيح!

وهل كان للمسيح دينٌ سوىٰ الإسلام!

إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لما خلق خلقه ارتضىٰ لهم الإسلام دينًا، فمن رغب عن الإسلام فلا حظَّ له في الآخرة ولا نصيب[1].

وفي الحقيقة؛ فإن الكافر هو الذي قطع نفسه من رحمة الله، وردّها ولم يقبلها؛ فكفر اليهود والنصارىٰ برسول الله ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين،

---

(١) الرقة والبكاء لابن قدامة (ص٣٩٤).

يهدي الناس إلىٰ أسباب دخول الجنة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ يخبر تعالىٰ أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة؛ سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردَّها وجحدها؛ خسر في الدنيا والآخرة».

فمن أبعد نفسه أو قطعها عن أسباب رحمة الله فهو من حرم نفسه من رحمة الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣]. أي: فلذلك لم يعملوا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، وإلّا لو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالًا، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة بسبب كثرة جناياتهم، أوحشتهم؛ فملكت قلوبهم، فأحدث لها الإياس».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٦).

مناظرة بين خارجيَّين في رحمة اللّه

دين الله وسط بين الإفراط والتفريط؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والخروج عن الطاعة بالإفراط أو التفريط؛ هلكة، والرحمة في اتباع النبي ﷺ.

والخوارج قطعوا الناس عن رحمة الله، وكفَّروا المسلمين، وقنَّطوهم من رحمة الله، وفارقوا الجماعة، وخرجوا بذلك من الرحمة إلىٰ العذاب؛ فإن النبي ﷺ قال: «**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**»، رواه أحمد من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

قُلوبهم مُلئَت من الغلِّ للراعي والرعيَّة بسبب مفارقتهم للجماعة، قال النبي ﷺ: «**ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب امريء مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين**»، رواه الدارمي وأحمد، وصححه ابن حبان.

والخوارج قد استوجبوا لأنفسهم اللعنة والتكفير؛ ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما**».

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أصل هذا الفساد من قبل الخوارج، فهم أول من أفشىٰ لعْن السَّلف الصَّالح، وتكفير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ».

والخوارج كفروا المسلمين، جعلوا أنفسهم حكامًا علىٰ خلق الله، وفارقوا الجماعة، وأراقوا دماء المسلمين.

قال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم[2]: «طاف خارجيان بالبيت، فقال أحدهما لصاحبه: لا يدخل الجنة من هذا الخلق غيري وغيرك! فقال له صاحبه: جنة عرضها كعرض السماء والأرض بُنيت لي ولك؟! فقال: نعم. فقال: هي لك. وترك رأيه».

فالخوارج كفَّروا المسلمين بالكبيرة، وغلاتهم يكفِّرون بالصغيرة، وقطعوا علىٰ المسلمين ما أنعم الله به عليهم من رحمته بالشفاعة. ومَن كذَّب بكرامة الله وإحسانه وفضله ورحمته علىٰ خلقه؛ فهو أحرىٰ بأن تفوته.

---

(١) الاعتصام (١/ ٢٠٨).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤-٧/ ١٣٠٧-٢٣١٧).

ولا أدري جنة عرضها السموات والأرض، من يدخلها إذا كفرنا المسلمين بالصغائر فضلًا عن الكبائر! فرحمة الله أرجىٰ للمسلمين من اعتقاد الخوارج؛ قال النبي ﷺ: «**من قال: هلك الناس؛ فهو أهلكهم**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومادة ضلال الخوارج: هي الجهل والتعالم وسوء الظن بالمسلمين، فذو الخويصرة قال للنبي ﷺ: اعدل يا محمد! فقال له النبي ﷺ: «**ويحك! من يعدل إذا لم أعدل؟!**».

فقوم ساء ظنُّهم برسول الله ﷺ، وكفَّروا الصحابة: عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه! حمقهم وعجبهم وغرورهم بأنفسهم هو الذي جعلهم يسيئون الظن بالمؤمنين! مع ما هم عليه من الجهل الذي جعلهم يتكلمون في دين الله بغير علم؛ فقد قال النبي ﷺ فيهم: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم**»، يعني: أنه لا فهم لديهم لمعاني النصوص. وقد أخبر الصحابة عنهم: أنهم يضعون النصوص في غير مواضعها، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عمدوا إلىٰ نصوص في الكفار فجعلوها في المسلمين».

والخوارج يستفتحون علىٰ الناس بإقامة العدل وإزالة الظلم؛ فيفارقون الجماعة، ويريقون الدماء، ويقطعون السبل؛ فيصبح الناس في شرٍّ أعظم

مما كانوا فيه، قال أبو وائل شقيق بن سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الخارجي[١]: «والله! ما عزَّ هذا لله دينًا، ولا ردَّ لمظلوم مظلمة».

وقال وهْبُ بن منبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والله! ما كانت الخوارج جماعة قط إلا فرَّقها الله علىٰ شرِّ حالاتهم، وما أظهر أحد منهم قوله إلا ضربَ الله عنقه، ولو مكَّن الله لهم من رأيهم؛ لفسدت الأرض، وقُطِعتِ السُّبُل والحج، ولعاد أمر الإسلام جاهلية، وإذًا لقام جماعة، كلٌّ منهم يدعو إلىٰ نفسه الخلافة، مع كلِّ واحد منهم أكثر من عشرة آلاف، يقاتل بعضهم بعضًا، ويشهد بعضهم علىٰ بعض بالكُفْر، حتىٰ يصبح المؤمن خائفًا علىٰ نفسه ودينه ودمه وأهله وماله، لا يدري مع من يكون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٥١]، فلو كانوا مؤمنين لنُصروا؛ وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]».

❁ ❁ ❁

(١) الزهد، لأبي حاتم الرازي (ص٦٧-رقم ٨٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٤، ٥٥٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾

الطهارة نوعان: طهارة الباطن وطهارة الظاهر. وطهارة الباطن أساسها التوحيد؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وقال النبي ﷺ: «**إن المؤمن لا ينجس**» متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وطهارة القلب من شبهات وشكوك الكفر والشرك والبدع، ووساوس الشيطان، وحياته بحقائق التوحيد وشعبه وأركانه؛ من حب الله والتوكل عليه وخشيته والإخبات إليه؛ يورث صلاح الظاهر، وتعاهد القلب بحميته عما يفسده وصيانته عمّا يضره ضرورة لحياة القلب؛ فإنه الملك، وصلاحه صلاح للجوارح؛ قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» متفق عليه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**التواب**: صيغة مبالغة من التوبة، وهو كثير الرجوع إلىٰ الله، **والتوبة**: هي الرجوع إلىٰ الله من معصيته إلىٰ طاعته.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله تعالىٰ؛ بأن يكون الحامل له علىٰ التوبة مخافة الله ورجاء ثوابه.

الثاني: الندم علىٰ ما فعل من الذنب، وعلامة ذلك: أن يتمنىٰ أنه لم يقع منه.

الثالث: الإقلاع عن الذنب؛ بتركه إن كان محرمًا، أو تداركه إن كان واجبًا يمكن تداركه.

الرابع: العزم علىٰ أن لا يعود إليه.

الخامس: أن تكون في وقت تُقبل فيه التوبة، وهو ما كان قبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها، فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها، لم تُقبل.

فالتَّواب: كثير التوبة.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص١٥٠، ١٥١).

ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب، ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه، إذا أحدث لكل ذنب توبة؛ فإن الله تعالىٰ يُحبه، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من باب أولىٰ؛ لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يُحبه الله، فمن قلَّت ذنوبه، كانت محبة الله له بالتوبة من باب أولىٰ.

وقوله: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس في أبدانهم وما يجب تطهيره.

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن؛ طهارة الباطن بقوله: ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، والظاهر بقوله: ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾؛ وهذه تستوجب أن أُكثر التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أُكثر أن أرجع إلىٰ الله بقلبي وقالبي، ومجرد قول الإنسان: أتوب إلىٰ الله. هذا قد لا ينفع، لكن تستحضر وأنت تقول: أتوب إلىٰ الله. أن بين يديك معاصي، ترجع إلىٰ الله منها وتتوب؛ حتىٰ تنال بذلك محبة الله.

﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: إذا غسلت ثوبك من النجاسة، تحس بأن الله أحبك؛ لأن الله يحب المتطهرين.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص١٥٨، ١٥٩).

إذا توضأت؛ تحس بأن الله أحبك؛ لأنك تطهرت.

إذا اغتسلت، تُحس أن الله أحبك؛ لأن الله يحب المتطهرين.

ووالله! إننا لغافلون عن هذه المعاني؛ أكثر ما نستعمل الطهارة من النجاسة أو من الأحداث؛ لأنها شرط لصحة الصلاة؛ خوفًا من أن تفسد صلاتنا، لكن يغيب عنا كثيرًا أن نشعر بأن هذا قربة وسبب لمحبة الله لنا، لو كنا نستحضر عندما يغسل الإنسان نقطة بول أصابت ثوبه أن ذلك يجلب محبة الله له؛ لحصَّلْنا خيرًا كثيرًا، لكننا في غفلة!».

❁ ❁ ❁

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦] إشارةٌ إلىٰ أنَّه لابُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيُجْبَرُ ذلك بالاستغفار المقتضي للتَّوبة والرُّجوع إلىٰ الاستقامة، فهو كقول النَّبيِّ ﷺ لمعاذ: «**اتَّقِ الله حيثُما كُنت، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تَمحُها**».

وقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الناس لن يُطيقوا الاستقامة حق الاستقامة، كما خرَّجه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديث ثوبانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**استَقيموا ولن تُحْصوا، واعلموا أنَّ خيرَ أعمالكُم الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ علىٰ الوضوء إلَّا مؤمنٌ**»، وفي روايةٍ للإمام أحمد: «**سَدِّدوا وقاربوا، ولا يحافظُ علىٰ الوضوء إلَّا مؤمن**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا**».

فالسَّدادُ: هو حقيقةُ الاستقامة، وهو الإصابةُ في جميع الأقوالِ والأعمال

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠، ٥١١).

والمقاصد، كالذي يرمي إلىٰ غرض، فيُصيبه، وقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ عليًّا أنْ يسألَ الله عَزَّوَجَلَّ السَّداد والهدىٰ، وقال له: «**اذكر بالسَّدادِ تسديدَكَ السَّهْمَ، وبالهدىٰ هدايَتك الطَّريق**».

والمقاربة: أنْ يُصيبَ ما قَرُبَ مِنَ الغرض إذا لم يُصِبِ الغرضَ نفسَه، ولكن بشرط أنْ يكونَ مصمِّمًا علىٰ قصد السَّداد وإصابة الغرض؛ فتكون مقاربتُه عن غير عمدٍ، ويدلُّ عليه قولُ النَّبيِّ ﷺ في حديث الحكم بن حزن الكُلَفي: «**أيُّها النَّاس، إنَّكم لن تعملوا - أو لن تُطيقوا - كلَّ ما أمرتُكم، ولكن سدِّدوا وأبشروا**».

والمعنىٰ: اقصِدُوا التَّسديدَ والإصابةَ والاستقامةَ، فإنَّهم لو سدَّدُوا في العمل كلِّه، لكانوا قد فعلوا ما أُمِرُوا به كُلِّه».

وأهل الخير والطاعة يتهمون أنفسهم بالتقصير، ويسدون الخلل من أنفسهم، ويرون أنهم ما عبدوا الله حق عبادته، وما شكروه حق شكره، وأنه وقع منهم إساءة وتفريط في حق الله؛ فانتهزوا أوقاتهم في سد الخلل وتزكية العمل.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الربيون: أصلها رَبيُّون؛ من الرب، أو من التربية، وهي مفتوحة الراء، ولكنها لما تحولت إلىٰ نسبة كُسرت الراء، وعلىٰ هذا فالرِّبِّيُّون هم الذي قاموا بعبادة الرب؛ فنالوا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تربية خاصة.

ونظير ذلك قول العلماء: هذا عالم رباني. نسبة إلىٰ الرب والتربية، وقيل: إنها مضافة إلىٰ (رِبَّة) - بالكسر -، يعني: منسوبة إلىٰ (ربة)، وهي الطائفة، فيكون معنىٰ ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: طوائف كثيرون».

والعلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع بين القولين في تفسير ﴿رِبِّيُّونَ﴾؛ فقال[٢]: «جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد الآيتين**[٣]: «إن هؤلاء الربيين الذين قاتلوا مع النبي كملت منهم الأفعال والأقوال؛ من الأفعال قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ومن الأقوال: أنهم لجئوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بسؤال المغفرة؛ مغفرة الذنوب

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٤٦).

(٣) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٦٧).

والإسراف في الأمر؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم إنما هو بسبب الذنوب».

وقال[١]: «إن الإنسان مفتقر إلىٰ مغفرة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ولو كان غنيًّا عنها ما سألها، ولكنه مفتقر إليها غاية الافتقار؛ حتىٰ إن النبي ﷺ لمَّا حدَّث أصحابه أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله؛ قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الإنسان لا يخلو من الإسراف علىٰ نفسه؛ إما في غلو وإما في تقصير، وجه ذلك: أن سؤالهم الله أن يغفر لهم الإسراف يدل علىٰ وجود هذا الشيء، وأنت إذا تأملت نفسك وجدت أنك لن تخلو من الإسراف».

وإذا علم المسلم أن طبيعة النقص، وأن الخطأ لا يسلم منه أحد، بادر إلىٰ تطهير نفسه من درن الذنوب، وسارع إلىٰ تزكية نفسه وتكميلها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كم في الطهارة من حكمة ومنفعة للقلب والبدن، وتفريح للقلب، وتنشيط للجوارح، وتخفيف من أحمال ما أوجبته الطبيعة،

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٦٧).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٦٨).

(٣) شفاء العليل (٣/ ١١٦٤، ١١٦٥).

وألقاه عز النفس من درن المخالفات؛ فهي منظفة للقلب والروح والبدن.

وفي غسل الجنابة من زيادة التقوية، والإخلاف علىٰ البدن نظير ما تحلل منه بالجنابة؛ ما هو من أنفع الأمور.

وتأمل كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل؛ فجعل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والشم والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوب كلها؛ منها يدخل إليها، ثم جعل في اليدين؛ وهما طرفاه وجناحاه اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرجلين اللتين بهما يمشي ويسعىٰ، ولما كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة جعل مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجًا للخطايا من هذه المواضع، حتىٰ يخرج مع قطر الماء من شعره وبشره، كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتىٰ يخرج نقيًّا من الذنوب**»، رواه مسلم.

وفي صحيح مسلم أيضًا عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه حتىٰ تخرج من تحت أظفاره**»،

فهذا من أجَلِّ حِكَم الوضوء وفوائده».

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وصفهم الله عند الذنوب بالاستغفار، وعدم الإصرار، وهو حقيقة التوبة النصوح».

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرضِ فلاةٍ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فآيس منها، فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها - قد أيس من راحلته -، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. فأخطأ من شدة الفرح**» متفق عليه.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل من فاء إلىٰ طاعة الله سبحانه - بعد مروق منها -؛ فإنه يأتي ذلك من فرح ربه سبحانه بعوده إلىٰ طاعته إلىٰ المبلغ الذي يمثل الإنسان نفسه له لو لم يكن له في الوجود عبد

---

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار (ص١٨١).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ١٩٨، ١٩٩).

غيره؛ كما أن المضل راحلته لم يكن له في مقامه في حالته تلك سوىٰ راحلته تلك، وأنه قد كان بإباقه علىٰ ربه قد أشعر ظن إبليس بتصديقه له، فكان ذلك في مقام فرح إبليس حيث ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، فصار هذا الآبق شمتًا إبليس بآدم الذي خلقه الله سبحانه بيده، وأسجد له ملائكته، ونفخ فيه من روحه؛ فكان حال كل مؤمن في وفد إباق من يأنف من ذرية آدم عن طاعة ربهم سبحانه بمرىٰ من العدو الذي قد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ، فإن النظرة له إلىٰ يوم القيامة سبقت فيعود حالهم في مثل الفرية والمصيبة للمؤمنين كلهم؛ فإذا رجع كان في المعنىٰ، وتلك الضالة الذي يفرح المؤمنون كلهم بعودها إليهم ووجدانهم لها، فذلك الذي يفرح الله عَزَّوَجَلَّ به».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قالوا: وأيضًا فالذنب بمنزلة المرض، والتوبة بمنزلة العافية.

والعبد إذا مرض ثمَّ عوفي وتكاملت عافيته رجعت صحَّتُه إلىٰ ما كانت، بل ربَّما رجعت أقوىٰ وأكمل ممّا كانت عليه؛ لأنَّه ربّما كان معه في حال العافية آلام وأسقام كامنة، فإذا اعتلَّ ظهرت تلك الأسقام، ثمَّ زالت بالعافية

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٥٠٨ - ٥١٠).

جملة؛ فتعود قوَّته خيرًا مما كانت وأكمل، وفي مثل هذا قال الشاعر:

لعــل عتبــك محمــودٌ عواقبُــه وربَّمـا صـحَّت الأجسامُ بالعلـل

وهذا الوجه هو أحد ما احتجَّ به من قال: إنه يعود بالتوبة خيرًا ممَّا كان قبل التوبة.

واحتجوا لقولهم أيضًا بأن التوبة تثمر للعبد محبَّةً من الله خاصَّةً لا تحصل بدون التوبة، بل التوبة شرط في حصولها، وإن حصل له محبَّة أُخرىٰ بغيرها من الطاعات، فالمحبَّة الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها؛ فإنَّ الله يحب التوَّابين، ومن محبته لهم فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمله.

فإذا أثمرت له التوبةُ هذه المحبَّة، ورجع بها إلىٰ طاعاته التي كان عليها أوَّلًا؛ انضم أثرُها إلىٰ أثر تلك الطاعات، فقوي الأثران، فحصل له المزيد من القرب والوسيلة.

وهذا بخلاف ما يظنه من نقصت معرفته بربّه من أنه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه فإنّه لا يعود الودّ الذي كان له منه قبل الجناية.

واحتجوا في ذلك بأثر إسرائيليٍّ مكذوب: أن الله سبحانه قال لداود: «يا داود! أمَّا الذنب فقد غفرناه، وأمّا الود فلا يعود». وهذا كذب قطعًا، فإنَّ الودّ يعود بعد التوبة النصوح أعظم ممَّا كان؛ فإنه سبحانه يحب التوابين،

ولو لم يعد الود لما حصلت له محبَّته، وأيضًا فإنه يفرح بتوبة التائب، ومحال أن يفرح بها أعظم فرح وأكمله وهو لا يحبُّه.

وتأمل سرّ اقتران هذين الاسمين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ١٣، ١٤]؛ تجدْ فيه من الردِّ والإنكار علىٰ من قال: لا يعودُ الودُّ والمحبة منه لعبده أبدًا. ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه.

وفي ذلك ما يهيِّج القلبَ السليمَ ويأْخذ بمجامعه، ويجعله عاكفًا علىٰ ربِّه - الذي لا إله له غيره، ولا ربَّ له سواه - عكوفَ المحبِّ الصادق علىٰ محبوبه الذي لا غنىٰ له عنه، ولابُدَّ له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبدًا».

❁ ❁ ❁

الضمانة من شرور الدنيا وأهوال الآخرة

رحمة الله تدرك عباده المؤمنين في الدنيا؛ فيعيشوا بسعادة الإيمان بالله وتوحيده وطاعته؛ فقلوبهم منشرحة بذكر الله، وعيونهم تقر بطاعة الله ومناجاته خصوصًا في الصلاة، ويدفع الله عنهم أنواعًا من الشرور والأذىٰ بفضل إخلاصهم لله وعبوديته؛ قال تعالىٰ: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والضمانة من أهوال يوم القيامة هي تقوىٰ الله والإصلاح؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥]؛ قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرَّم الله من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أعماله

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٩٣).

الظاهرة والباطنة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما مضىٰ. وإذا انتفىٰ الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي».

❁ ❁ ❁

الرحمة لغير اللَّعان

اللعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله، والمؤمن واجبه الدعاء للمسلمين بالرحمة والمغفرة والعفو، فإذا لعنهم صار ذلك سببًا لحرمانه من الشفاعة؛ جزاءً وفاقًا.

وقال النبي ﷺ: «إن الطعانين واللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»، رواه مسلم.

وقال ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشفاعة ضد اللعن».

وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لا ينبغي للإنسان أن يدعو علىٰ شخص مهما بلغ في الكفر والطغيان؛ باللعنة، بل لا

---

(١) الآداب الشرعية (١/ ٢٧٣).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٤٦، ١٤٧).

يجوز أن يدعو عليه باللعنة؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله».

قال النبي ﷺ: «اللهم إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته أو لعنته وليس كذلك؛ فاجعل ذلك له صلاة وزكاة ورحمة؛ تقربه بها إليك يوم القيامة».

قال العلامة محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يدل علىٰ أنه يفعلها - اللعنة - باجتهاده بالتعزير، فجعل هذا الدعاء دافعًا عمن ليس لها بأهل. وإما أن يقال: اللعن من النبي ﷺ ثابت بالنص، فقد يكون اطلع علىٰ عاقبة الملعون. وقد يقال: الأصل مشاركته في الفعل، ولو كان لا يلعن إلا من علم أنه من أهل النار لَمَا قال: «**إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته أو شتمته أو لعنته؛ فاجعل ذلك له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة**»، فهذا يقتضي أنه كان يخاف أن يكون لعنه بما يحتاج أن يستدرك بما يقابله من الحسنات؛ فإنه معصوم، والاستدراك بهذا الدعاء يدفع ما يخافه من إصابة دعائه لمن لا يستحقه وإن كان باجتهاد؛ إذ هو باجتهاده الشرعي معصوم لأجل التأسي به».

❁ ❁ ❁

(١) الآداب الشرعية (١/ ٢٧٥).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾

ربنا الودود الغفور الرحيم، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات؛ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورىٰ: ٢٥].

قال العلامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا بيان لكمال كرم الله تعالىٰ، وسعة جوده، وتمام لطفه؛ بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم، ويندمون عليها، ويعزمون علىٰ أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم؛ فإن الله يقبلها بعد ما انعقدت سببًا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريمًا؛ كأنه ما عمل سوءًا قط، ويحبه ويوفقه لما يقرّبه إليه.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٠٥).

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلَّا الله؛ ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، فالله تعالىٰ دعا جميع العباد إلىٰ الإنابة إليه، والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلىٰ قسمين: مستجيبين؛ وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورىٰ: ٢٦]؛ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم علىٰ ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقًا ونشاطًا علىٰ العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر؛ زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم».

قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فالله يدعو عباده المؤمنين إلىٰ التوبة

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المتقي لا يكون معصومًا من فعل الفاحشة أو ظلم النفس؛ لأن الله لم يقل: وهم لا يفعلون

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٨٧).

الفواحش، أو لا يظلمون أنفسهم، بل قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ ففعل الفاحشة لا يخدش التقوىٰ إذا استغفر الإنسان وتاب، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»، وصحَّ عنه أنه قال ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله؛ فيغفر لهم**».

إذن ليس الشأن في أن لا يفعل الإنسان المعصية، كل إنسان لابد أن يعصي، لكن الشأن في أنه إذا فعل المعصية رجع إلىٰ الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذه الآية في حق من لم يتب، ولهذا خصص الشرك وقيّد ما سواه بالمشيئة، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه، وما دونه يغفره لمن يشاء، وأما قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر: ٥٣]، فتلك في حق التائبين، ولهذا عمّم وأطلق».

❁ ❁ ❁

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٧٧).

يرجون رحمته ويخافون عذابه

قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا تتمُّ العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكفُّ عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات».

وقال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كما ترجون رحمة الله بما تُؤدون من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فكذلك أشفقوا من عذاب الله بما تنتهكون من معاصي الله عَزَّوَجَلَّ».

والصالحون يسارعون إلىٰ الخيرات وفعل الطاعات، قلوبهم خاشعة مُخْبِتَةٌ لله، ترجو رحمته وتخشىٰ عذابه، قال تعالىٰ في شأن زكريا وأهل بيته: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٩).

(٢) اليقين، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ٣٨).

خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال عبد بن عكيم: خطبنا أبو بكرٍ الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثم قال: أمَّا بعد، فإني أوصيكم بتقوىٰ الله، وتُثنوا عليه بما هو له أهلٌ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ أثنىٰ علىٰ زكريا وأهل بيته؛ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته؛ سَعَوا في الأسباب الموصلة لهم إلىٰ رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادىٰ بهم الرجاء إلىٰ حال الأمن والإدلال، فنبئهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه. فإنهم إذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٥٣).

عرفوا أنه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] حذروا، وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلىٰ رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه؛ أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلىٰ ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه؛ أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها».

وقال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا ترغيب وترهيب، ودعوة إلىٰ الخير، وتحذير من الشر، دعوة إلىٰ التوبة والاستقامة وطلب المغفرة، وهو غفور رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتحذير من التساهل وارتكاب المحارم، والإصرار علىٰ المعاصي؛ فإنّ عذاب الله شديد، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق».

فوعيد الله لمن عصاه مقصوده زجر الناس عمّا يوقعهم في سخط الله وعقوبته، وإبعادهم عن المضارة بأنفسهم في الدنيا والآخرة، فما نهىٰ الله عنه مفسدته خالصة أو راجحة، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فما يأتيه الخلق مما نهىٰ الله عنه ضرر عليهم في أديانهم وأبدانهم وعقولهم، وضرره

(١) حديث المساء (ص١٢٨).

عليهم في الآخرة؛ فمن يقوىٰ علىٰ النار ولو لحظة؟!

قال تعالىٰ في أهل الشقاء: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، فقد ذكر الله في هذه الآية مقصوده في تخويف العباد ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾، تخويف يحمل علىٰ تقوىٰ الله، لا القنوط منه.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدَّة نكاله، ومع شدَّة عقابه؛ فإنه رؤوف رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خوَّف العباد، وزجرهم عن الغيِّ والفساد، كما قال تعالىٰ - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، فرأفته ورحمته سهَّلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذَّرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلىٰ المكروهات.

فنسأله تعالىٰ أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التي تفضي بسالكها إلىٰ الجحيم».

❁ ❁ ❁

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢١٦).

احذر الفترة والغفلة!

الغفلة تأتي من ركونك إلىٰ نفسك، وإسلام نفسك إلىٰ عدوك الشيطان، والشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم؛ ينتهز غفلة المسلم عن ذكر الله فيوسوس له ما يرديه في المعاصي والسيئات.

وفي الصحيحين من حديث صفيَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله ﷺ: «**يجري الشيطان من ابن آدم مجرىٰ الدَّم**».

قال العلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «المعنىٰ هنا: أن شيطان الإنس، أو شيطان الجن المستتر عن العيون؛ يتسلَّطُ علىٰ ابن آدم وعلىٰ بناته، فيُلقي إليه حِيله ودسائسه ووسوسته؛ حتىٰ يخدعه ويُميله إلىٰ مقاصده، فكأنه لكثرة إغوائه ووسوسته لا يُفارقه، كما لا يفارقه دمه».

تعاهد إيمانك بالتجديد والزيادة، وذلك يكون بترك الغفلة، والإقبال علىٰ الله، والمبادرة إلىٰ فعل الطاعات، والقصد إلىٰ شعب الإيمان، والإتيان

---

(١) شرح كتاب الشهاب (ص٢١٢، ٢١٣).

بها، واستباق الخيرات.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الله غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين بحسب إيمانهم، وقدَّر من ألطافه وفضله من الواجبات والسُّنن ما يسقي هذه الشَّجرة وينمِّيها، ويدفع عنها الآفات؛ حتَّىٰ تكمل وتؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها، وجعلها تنفي عنها الآفات. فالذُّنوب ضررها عظيم، وتنقيصها للإيمان معلوم».

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يُخبر تعالىٰ عن المتَّقين من عباده، الَّذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر: أنَّهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي أصابهم ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وقرأ الآخرون ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنًىٰ واحدٍ، وقيل بينهما فرق.

ومنهم من فسَّر ذلك بالغضب، ومنهم من فسَّره بمسِّ الشَّيطان بالصَّرع ونحوه، ومنهم من فسَّره بالهَمِّ بالذَّنب، ومنهم من فسَّره بإصابة الذَّنب.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٨٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤١٠).

وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده؛ فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله، ورجعوا إليه من قريبٍ ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصَحَوْا ممَّا كانوا فيه».

ثم قال(١): «وقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: تساعدهم الشياطين علىٰ المعاصي، وتُسهِّلها عليهم وتُحسِّنها لهم».

فالله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده؛ جعل لهم أسباب الأوبة والرجوع إليه، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الإنسان تعرض له عوارض، وإن كان من المتقين، تعرض له عوارض، وهو مأمور بسؤال الله التوبة والاستغفار، فالله غفور رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك مأمور بالحذر من المعاصي والشرور؛ لأن ربَّه شديد العقاب».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤١١).

(٢) حديث المساء (ص١٢٨).

وقال العلَّامة المحدِّث مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإيمان يزيد وينقص؛ في بعض الأوقات يكون الرجل متحمسًا للدين، فلا يفكر في المعصية، وفي أخرىٰ يوسوس له الشيطان حتىٰ يصبح منقادًا للشر بشعرة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «نحن محتاجون إلىٰ المحافظة علىٰ قلوبنا، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، لا أنا ولا أنت ضامنان لأنفسنا بحسن الخاتمة».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «العبد المؤمن في نفسه له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحيانًا بالعكس.

وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه.

وكان خيار الأمة والمعتنون بالإيمان منهم؛ يتعاهدون إيمانهم كل وقت، ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المُنْقصة له، ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله أن يثبِّت إيمانهم، ويزيدهم منه، من علومه وأعماله وأحواله».

---

(١) الأجوبة الوادعية علىٰ الأسئلة النسائية (ص٢١٣).

(٢) الأجوبة الوادعية علىٰ الأسئلة النسائية (ص٢٢٩).

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٥٧).

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويثبِّته، وكلما رأىٰ فيه تزعزعًا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ومضىٰ إلىٰ سبيله».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أقوىٰ الأسباب للسلامة من كيد الشيطان وطُرقه: قوَّة الإيمان بالله، وقوة التوكل علىٰ الله، وكثرة ذِكر الله، والاستعاذة بالله منه، والابتعاد عن جميع أسباب المعاصي، والمبادرة للتوبة النصوح إذا وقع منه شيء».

علىٰ كل حال: الوساوس دالة علىٰ حياة القلب، وأن الشيطان لم يمته بعد، لكنها دالة علىٰ قصده إماتة قلب المسلم، فلينتبه المسلم، وليأخذ حذره من عدوه، ويقوِّي إيمانه، ويجاهد عدوه.

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لا تجيء الوساوس إلا إلىٰ كل قلب عامر، رأيت لصًّا قد يأتي الخرابة ينقبها، وهو يدخل من أي الأبواب شاء؟! إنما يجيء إلىٰ بيت فيه رزم، وقد أُقفل؛ ينقبه ليستل الرِّزمة».

---

(١) تفسير سورة الحديد (ص٣٧٧).

(٢) الرياض الناضرة والحدائق النَّيِّرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (ص١٨٧).

(٣) سير السلف (٣/ ١٠٢٩).

فاحفظ قلبك من وساوس الشيطان، وجوارحك من الآثام، وجاهد الشيطان، ولا تجعل له عليك سبيلًا، بل اجعله مدحورًا، بالاستعانة بالله عليه.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتىٰ تذهب وتضمحل، ويبقىٰ القلب خالصًا صافيًا، ليس فيه إلا ما ينفع الناس، من العلم بالحق وإيثاره».

ومن أنفع ما يكون من الأسباب في تجديد الإيمان، وزيادته، وتقويته؛ هو مذاكرة أحوال السلف، وتحري قراءة القرآن؛ فإنه يحيي القلوب، ويوقظها من غفلتها، خصوصًا آيات الوعظ والتذكير.

قال خالد بن الصقر السدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان أبي خاصًّا بسفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاستأذن علىٰ سفيان، فدخل عليه وهو يبكي، وهو يقول: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ثم يقول: بلىٰ يا رب! بلىٰ يا رب! وينتحب، وينظر إلىٰ سقف البيت ودموعه تسيل[٢].

ومن أعظم الأسباب في الثبات علىٰ الدين، وزيادة الإيمان؛ دعاء الله،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٣٦).

(٢) الرّقة والبُكاء، لابن قدامة (ص٣٥٨، ٣٥٩).

والاستعانة به، وسؤاله التثبيت والزيادة من الطاعات؛ ولهذا كان يلهج النبي ﷺ بدعاء ربه في ذلك، وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكّاها**»، وكان يدعو يقول: «**اللهم إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ**».

قال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أن نقص الإيمان يكون بأسباب:

السبب الأول: الإعراض عن التفكر في آيات الله الكونيَّة والشرعيَّة، بحيث يبقىٰ الإنسان كالبهيمة، ليس له همٌّ إلا إشباع البطن، واتِّباع الفرْج، ولا ينظر في الآيات الكونية، وما خلق الله تعالىٰ في السماوات والأرض، ولا يتدبَّر في الآيات الشرعية، فينقص الإيمان.

السبب الثاني: ترك الطاعة، فإن ترك الطاعة نقص في الإيمان، والدليل علىٰ ذلك: أن النبي ﷺ جعل المرأة ناقصة الدِّين؛ لأنها إذا حاضت لم تصلِّ، ولم تصم، وهذا تركٌ للطاعة.

السبب الثالث: فعل المعصية، فإن الإنسان إذا فعل المعصية؛ نقص إيمانه، ونقص تعظيمه لله عَزَّوَجَلَّ، ما لم يتب منها، فإن تاب؛ ازداد إيمانه».

---

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٢٦٢، ٢٦٣)، باختصار.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنّه من أطال عنان الأمن في الغرَّة؛ طوىٰ عِذَار الحذر في المُهْلة، ومن لم يُعوِّل علىٰ طرق النجاة؛ كان بمنزلة قلة الاكتراث من الله مقيتًا، وصار في أمنه المحذور مثل نسج العنكبوت، لا يأمن عليها نفسه، ولا يُضيء له ما أظلم عليه من نسبه.

أما لو اعتبرت بما سلف، واستقبلت الحسن المُؤْتنف؛ فنظرت ليومك، وقدَّمت لغدك، وقصرْت أمَلك، وصوّرت بين عينيك اقتراب أجلك، واستقصرت مدة الدنيا، ولم تغتر بالمهلة؛ لما امتدت إليك يد الندامة، ولا ابتدرتك الحسرات غدًا في القيامة، ولكن ضرب عليك الهوىٰ رُواق الحيرة فتركك، وإذا بدت لك يَدُ موعظة لم تكد تراها، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]».

ومن أعظم النعم وأحراها بالشكر نعمة العفو، فمن أمهله الله حتىٰ استغفر وأناب وتاب، ولم يقبضه وهو مقارف للذنب؛ أحرىٰ أن لا يعود إلىٰ ما يسخط الله، وأن لا يكون كمن قال الله فيهم: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١].

---

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي (١/ ١٣٥).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الإنسان بعد التوبة ورفع الفتنة عنه قد لا يشكر هذه النعمة، ويعود إلىٰ عماه وصممه؛ لقوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾، وهذا يشبه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]».

❁ ❁ ❁

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ١٩٢).

الرحمة للكافرين والمبتدعين والعاصين

واجب المسلم معاملة الكافرين والمبتدعين والعاصين، بوسطية الشرع والقدر؛ فيقوم بعقيدة البراء من الكافرين، وهي براءة مطلقة، والبراء من العاصين براءة مقيّدة من معاصيهم، وموالاتهم علىٰ ما معهم من الإيمان، ومعاملة أهل البدع بما يليق ببدعتهم بحسب تغلظها، وحال المبتدع إن كان داعية لبدعته أو لا؟

ومع هذا هو مشفق عليهم من عذاب الله، ساع في هدايتهم ودعوتهم، وبيان صراط الله المستقيم لهم، الذي من سلكه؛ أدركته رحمة الله.

فأهل السنة ينصحون الخلق ويرحمونهم، والنبي ﷺ كان حريصًا علىٰ هداية قومه، والبشرية عمومًا، وخاصته كعمه أبي طالب إلىٰ آخر لحظة، وهو يقول له: «**يا عم! قل: لا إله إلا الله. كلمة أحاج لك بها عند الله**».

وعاد النبي ﷺ يهوديًّا في مرضه، ودعاه إلىٰ الإسلام فأسلم؛ فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**».

والنبي ﷺ بلغ أذىٰ قومه له ذروته في غزوة أحد؛ فشجوا وجهه، وكسروا رَبَاعِيَتَهُ، وهو يقول: «**اللهم اهدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلَقَّبُ حمارًا، وكان يُضْحِكُ رسول الله ﷺ، وكان النَّبيُّ ﷺ قد جلده في الشَّراب، فأُتي به يومًا، فأمر به فجُلد، قال رجل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤتىٰ به! فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت: إنَّه يُحبُّ الله ورسوله**»(١).

فهذا الصحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لعنه أحد الصحابة لشربه الخمر، وهذا دعاء شديد؛ فاللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ فزجر النبي ﷺ عن لعن العاصي بعينه، وعن لعن شارب الخمر، وأخبرهم بما يُوجب لهم الاعتدال في مواقفهم وأحكامهم؛ فقال «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت: إنه يُحبُّ الله ورسوله**».

وواجب المسلم هداية الناس، ونصيحتهم، ودلالتهم إلىٰ أسباب إدراك رحمة الله؛ من التوبة والاستغفار، لا الدعاء علىٰ العصاة باللعنة.

وقد هدىٰ الله عتاة قريش الكفار، الذين قاتلوا الإسلام وأهله، وانصرفت

---

(١) رواه البخاري كتاب الحدود، باب ما يُكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملَّة (ص١١٦٩ - رقم: ٦٧٨٠).

كل جهودهم لمنع ظهور الإسلام؛ فلا يستحيل ولا يمتنع علىٰ الله أن يهدي خلقه إلىٰ الأوبة إليه في تطبيق شرعه، خصوصًا من عُهد عن آبائه وأجداده تطبيق الشريعة.

فاصبر وصابر أيها الداعية والناصح إلىٰ الدعوة إلىٰ تطبيق الشريعة، واجعلها ديدنك أبدًا ما حييت، وهداية الخلق بيد الله، وما أنت إلا سبب.

قال تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف: ١-٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال قتادة: لو أنَّ هذا القرآن رُفع حين ردَّتْه أوائل هذه الأمة؛ لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنىٰ جدًّا، وحاصله أنه يقول في معناه: إنه تعالىٰ من لطفه ورحمته بخلقه، لا يترك دعاءهم إلىٰ الخير وإلىٰ الذِّكر الحكيم، وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمرَ به؛ ليهتدي من قَدَّر هدايته، وتقوم الحُجَّة علىٰ من كتب شقاوته».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٠٢).

فالمقصود هو هداية الخلق ورحمة الخلق ونصح الخلق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأئمة السنة والجماعة، وأهل العلم والإيمان؛ فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحقّ الّذي يكونون به موافقين للسّنّة، سالمين من البدعة، ويعدلون علىٰ من خرج منها، ولو ظلمهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨]. ويرحمون الخلق؛ فيريدون لهم الخير والهدىٰ والعلم، لا يقصدون الشّر لهم ابتداءً، بل إذا عاقبوهم، وبيّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم؛ كان قصدهم بذلك بيان الحقّ، ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأن يكون الدّين كلّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا».

ولا ينبغي للمسلم أن يقنط من هداية الخلق، فيحمله القنوط علىٰ ترك الدعوة والنصيحة للخلق، سواء كافرهم أو مبتدعهم أو عاصيهم.

ومن ذلك الدعوة إلىٰ تطبيق الشريعة، فهي أساس دعوتنا وحقيقة ديننا؛ فتطبيقها رحمة للخلق، وتحصيل لمصالحهم، وإتمام لنعمة الله عليهم، وسبب لحصول الخيرات وإدرار البركات، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) الرد علىٰ البكري (١/ ٣٨٠).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦].

ولا تيأس ولا تمل عبد الله، من الدعوة إلىٰ تطبيق شريعة الله؛ فهذا واجب عليك أن تدعو إليه، وتصبر عليه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

وإياك أن تنكص علىٰ عقبيك، فتصير داعيةً للإلحاد والعلمانية بعد أن كنت داعية للشريعة، فتقول: «الحرية قبل الشريعة»؛ فتكون من الضالين المعينين علىٰ تعطيل الشريعة.

والدعوة إلىٰ تطبيق الشريعة تحتاج إلىٰ صبر وصدق رغبة إلىٰ الله، ودعاء الله أن يهدي الولاة لتطبيقها.

وفي الصبر علىٰ الدعوة إلىٰ تطبيق الشريعة أداء لما افترضه الله عليك ولعل الله أن يهدي بذلك خلقه، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، قال تعالىٰ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** جاء الطفيل بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ النبي

ﷺ، وقال: إن دَوْسًا قد هلكت، وعصت، وأبت؛ فادعُ الله عليهم. فقال: «**اللهم اهدِ دَوْسًا، وأتِ بهم**»، متفق عليه.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا الحديث ما يدل علىٰ رحمة رسول الله ﷺ لأمته؛ فإنه كان ﷺ يُقبل علىٰ الآتي إليه، ويدعو للمدبر عنه؛ ألا تراه حين قال له الطفيل: ادعُ الله علىٰ دوس. فقال: «**اهدِ دوسًا وأتِ بهم**»».

وخير لك أن تكون إيجابيًّا في هداية الخلق، من أن تكون سلبيًّا، معرضًا عن بذل الأسباب في صلاحهم، أو أن تكون سببًا في إصرارهم علىٰ الكفر أو البدع أو المعاصي.

فربّ كلمة كانت سببًا في إسلام كافر، وهداية مبتدع، وتوبة عاصٍ.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الواجب علىٰ المؤمن في مثل تلك الحال؛ أن يسعىٰ في إصلاح الفاسد ما أمكنه، بنص القرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩]. ولا يترك الناس والهلاك، وهو يقدر علىٰ إنقاذهم بنوع إنقاذ ما تبلغه قدرته، إلا

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٢٣٦).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٤/ ٢١٩).

أن يضعف عن ذلك؛ فإن المتعين عليه حينئذ الاعتزال؛ مخافة أن يفسد نفسه، ولا يصلح به غيره؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنك ضعيف**».

فكن مشفقًا علىٰ المسلمين، كارهًا ما يأتونه من معاصي الله، موالِيًا لهم فيما معهم من الإسلام، وأعمال الخير، ساعيًا في هدايتهم، وإعانتهم علىٰ طاعة الله، وترك معاصيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن العبد إذا وقع في الذنب؛ خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتىٰ لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه؛ غضبًا منه لله، وحرصًا علىٰ أن لا يُعصىٰ؛ فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم.

فإذا جرت عليه المقادير، وخُلِّي ونفسه؛ استغاث الله والتجأ إليه، وتململ بين يديه تململ السليم، ودعاه دعاء المضطر؛ فتبدلت تلك الغلظة علىٰ المذنبين رقة، وتلك القساوة علىٰ الخاطئين رحمة ولينًا - مع قيامه بحدود الله -، وتبدل دعاؤه عليهم دعاءً لهم، وجعل لهم وظيفة من عمره؛

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

يسأل الله أن يغفر لهم».

وكان النبي ﷺ يعلم ما يقع في سوق المسلمين، من الحلف الكاذب الذي يحصل معه أكل أموال الناس بالباطل؛ فكان يدلُّهم علىٰ ما يوجب تطهير أموالهم من الخبث الذي ألمَّ به؛ فقال ﷺ: «**إن سوقكم هذا يحضره الكذب، فطهروا أموالكم بالصدقة**».

والنبي ﷺ يعلم فرق ما بين الملائكة وبني آدم، وهو الذي قال ﷺ: «**عصىٰ آدم فعصت ذريته**». فكان يرشد أصحابه وأمته إلىٰ أسباب إزالة آثار الذنوب، والخروج من سخط الله إلىٰ رحمته؛ فقد روىٰ مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟!**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: «**إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط**».

وكان ﷺ يُحذِّر من سوء الظن بالمسلمين؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**من قال: هلك الناس. فهو أهلكهم**»، رواه مسلم.

❁ ❁ ❁

رُبَّ يغفر الذنب ويأخذ به

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا؛ فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ اللَّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ اللَّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ** عَزَّوَجَلَّ: **عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»، متفق عليه.

هذا الحديث ليس فيه تهوين من شأن الذنوب، بل فيه الترهيب من فعلها؛ حيث قال الله: «**علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به**»، فقول الله «**رب يأخذ بالذنب**» وعيد وزجر عن مقارفة الذنوب ابتداءً، وزجر عن

الإصرار عليها؛ فإن الإصرار من أسباب سخط الله وغضبه وعقوبته فـ«**يأخذ به**»، وفيه ترغيب في التوبة لمن أتىٰ معصية؛ فيبادر إلىٰ التوبة، ويزيل آثار الذنب.

قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المُحرَّمات والجرائم، وإنَّما يدلُّ علىٰ أنه يُغفر له ما دام كذلك؛ إذا أذنب تاب. واختصاص هذا العبد بهذا؛ لأنَّه قد علم أنه لا يُصرُّ علىٰ ذنب، وأنه كلَّما أذنب ذنبًا تاب؛ حكم يعمُّ كلَّ من كانت حاله كحاله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «معلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك المحظور؛ لأن الإخلال بذلك سبب للزوم العقاب، وإن جاز مع إخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب. كما عليه أن يحتمي من السموم القتَّالة، وإن كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الأدوية. والله عليم حكيم رحيم، أمرهم بما يُصلحهم، ونهاهم عمَّا يفسدهم، ثم إذا وقعوا في أسباب الهلاك؛ لم يؤيسهم من رحمته، بل جعل لهم أسبابًا يتوصلون بها إلىٰ رفع الضرر عنهم.

ولهذا قيل: إن الفقيه: كل الفقيه الذي لا يُؤَيِّس الناس من رحمة الله، ولا يجرئهم علىٰ معاصي الله؛ ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب، قال

---

(١) قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي (٣/ ١٠٧٦).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٣٤٣، ٣٤٤).

بعضهم لشيخه: إني أذنبت! قال: تب. قال: ثم أعود! قال: تب. قال: ثم أعود! قال: تب. قال: إلىٰ متىٰ؟ قال: إلىٰ أن تُحزن الشيطان».

ومن رحمة الله بعباده: أنه أنذرهم عقابه، وحذَّرهم من أسباب ذلك؛ رحمةً للخلق، وإقامة للعذر عليهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: نوَّعْناها أنواعًا كثيرة؛ تارة بذكر أسمائه الدالة علىٰ العدل والانتقام، وتارة بذكر المَثُلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تُكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب؛ كل هذا رحمة بالعباد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله؛ فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم. فكونه عربيًّا، وكونه مُصَرَّفًا فيه من الوعيد؛ أكبر سبب، وأعظم داعٍ للتقوىٰ والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه؛ لم يكن له هذا الأثر».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٠).

والعبد إذا أراد الله به الخير؛ رزقه الصبر علىٰ الطاعات، والصبر عن المعاصي؛ حتىٰ يوافي ربه بموجبات الرضا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. وأهل الكتاب ضيَّعوا دينهم بسبب عدم صبرهم علىٰ ما أُمروا به من الطاعات، وما نُهوا عنه من المعاصي، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ليس العجب ممن يصبر علىٰ الأوامر، فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة؛ لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبرِّ، وهذه محابٌّ للنفوس الفاضلة الزكية؛ بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب النفوس؛ فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرىٰ، والنفس موكلة بحب العاجل؛ فصبرها عنه مخالف لطبعها.

قالوا: ولأن المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه، فلا يتركها حتىٰ يجاهد هذه الأربعة، وذلك أشق شيء علىٰ النفوس وأمرُّه.

---

(١) عِدَة الصابرين (ص٦٥، ٦٦).

قالوا: فالمناهي من بابِ حِمْية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها، والحمية مع قيام داعي التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه.

قالوا: ولذلك كان باب قربان النهي مسدودًا كله، وباب الأمر إنما يُفعل منه المستطاع؛ كما قال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**»؛ فدل علىٰ أن باب المنهيات أضيق من باب المأمورات، وأنه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر».

❁ ❁ ❁

تنال رحمة اللّه بطلب العلم

مجالس العلم مجالس تغشاها الرحمة والسكينة، وتحفها الملائكة؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: «**من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا؛ نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر علىٰ معسر؛ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا؛ ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا؛ سهّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه**».

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة؛ الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما - إن شاء الله تعالىٰ -،

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٥٩١).

ويدلّ عليه الحديث الَّذي بعده؛ فإنَّه مطلق يتناول جميع المواضع، ويكون التَّقييد في الحديث الأوَّل خرج علىٰ الغالب، لا سيَّما في ذلك الزَّمان، فلا يكون له مفهوم يعمل به».

وحاجة الناس للعلماء شديدة، فهم ورثة الأنبياء؛ يرفعون عن الناس الجهل، ويدلونهم إلىٰ صراط الله المستقيم، الذي إذا لزموه؛ أدركتهم رحمة الله، ونجوا من النار، ودخلوا الجنة.

فالعلماء يغيثون العباد بنور الوحي، وغيث النبوة الذي يؤدونه إلىٰ الناس؛ فتحيا قلوبهم بهذا الغيث، وتزهر بنور الوحي، وتشرق بالإيمان؛ فتسارع إلىٰ فعل الخيرات، وترك المنكرات؛ هو من أسباب إدراك رحمة الله لهم.

ففي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيَّة، قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء؛ فنفع الله بها النَّاس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرىٰ، إنَّما هي قيعان؛ لا تُمسك ماءً ولا تنبت كلأً؛ فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به؛ فعَلِمَ وعلَّم، وَمَثَل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هُدَىٰ الله الَّذي أُرسلت به**».

وحاجة الناس إلىٰ العلم أعظم من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب؛ كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال حِبَّان بن موسىٰ: عوتب ابن المبارك فيما يفرِّقُ من المال في البلدان، ولا يفعل في بلده؛ فقال: إني أعرفُ مكان قوم لهم فضلٌ وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، **وحاجة الناس إليهم شديدة**، وقد احتاجوا، فإن تركناهم؛ ضاع علمهم، وإن أغنيناهم؛ نشروا العلم، ولا أعلم بعد النبوَّة درجة أفضل من بثِّ العلم(١).

قال تعالىٰ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١، ٢].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا - والله - ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمةً ونورًا، ودليلًا إلىٰ الجنة».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «من آتاه الله العلم، فقد أراد به خيرًا كثيرًا؛ كما ثبت في «الصحيحين»، عن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**».

وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك،

---

(١) مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان (ص٢٧٥ - رقم ٥٣٩).

(٢، ٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٠٨).

حيث قال: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطَّالَقانِي، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سِماك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ للعلماء يوم القيامة إذا قعد علىٰ كُرسيِّه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم، إلا وأنا أُريد أن أغفر لكم علىٰ ما كان منكم، ولا أبالي**». إسناده جيد».

❁ ❁ ❁

تُنال رحمةُ اللّه بالاستغفار

قال تعالىٰ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]. قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ فإن رحمة الله تعالىٰ قريب من المحسنين، والتائب من الذنب هو من المحسنين».

وقال تعالىٰ عن الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ٩٩]؛ قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس له سلطان أن يحملهم علىٰ ذنب لا يُغفر».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٠).

(٢) حسن الظن بالله، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ١١٩).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه، وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، **فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفار إلىٰ يوم القيامة**»، رواه الترمذي.

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعِزَّتك يا ربِّ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الربُّ. وعزَّتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**» رواه أحمد.

وروىٰ أحمد من حديث فَضَالَةُ بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله** عَزَّوَجَلَّ».

ومن أعظم الأدلة علىٰ أن رحمة الله تُدرك بالاستغفار؛ ما رواه مسلم في صحيحه، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ سُئل عن عبد الله بن

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢١٤).

جُدْعَانَ: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: «**لا، إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».

فالله عَزَّوَجَلَّ لم يقبل من عبد الله بن جُدْعَانَ معروفه للناس؛ من قِرَىٰ الضيف؛ وإطعام المساكين، وعتق الأرِقَّاء؛ لأنه كافر مشرك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. والمؤمنون منهيون عن الاستغفار للكافرين؛ لأنهم منعوا أنفسهم أن تنالهم مغفرة الله ورحمته بكفرهم، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

❁ ❁ ❁

اتِّباع القرآن
سبب لإدراك رحمة اللّه

قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أكبر سبب لنيل رحمة الله؛ اتباع هذا الكتاب علمًا وعملًا».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أي: إنما أُنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك».

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٢٨٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٥).

يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

وقال تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ وهذا فيه بيان أنه بقدر الاهتداء بالقرآن، ينال المؤمن من ذلك من رحمة الله.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالهدىٰ هو العلم بالحقِّ والعمل به، والرحمة: هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدىٰ به؛ فالهدىٰ أجلُّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمةً إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدىٰ، وحلَّت الرحمة الناشئة عنه؛ حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور».

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يقول تعالىٰ مُخبراً عن كتابه الذي أنزله علىٰ رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]؛ إنه: ﴿شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]؛

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٧١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٨٧، ٨٨).

أي: يُذهبُ ما في القلب من أمراض؛ من شكٍّ ونفاقٍ، وشركٍ وزيغٍ ومَيْلٍ، فالقرآن يشفي من ذلك كلِّه. وهو أيضًا رحمةٌ يحصل فيها الإيمان، والحكمة، وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدَّقه واتَّبعه؛ فإنه يكون شفاءً في حقِّه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وتكذيبًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات في ذلك كثيرة.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في قوله:** ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ﴾ [الإسراء: ٨٢]. إذا سمعه المؤمن؛ انتفع به، وحفظه ووعاه، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ إنه لا ينتفع به، ولا يحفظه ولا يعيه؛ فإن الله جعل هذا القرآن شفاءً، ورحمةً للمؤمنين».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المؤمنون، وهم المتقون

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ١٧٨).

المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١، ٢]، كما قال في آية البر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهؤلاء هم المتبعون للكتاب، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]. وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يَشْقَ فهو مرحوم. وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم، الذين أنعم الله عليهم؛ من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوبًا عليهم، وأهل الهدىٰ ليسوا ضالين؛ فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله، مستحقين لجنته بلا عذاب، وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب».

❁ ❁ ❁

تنال رحمة اللّه برحمة عباده

الجزاء من جنس العمل، قال تعالىٰ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

فالجزاء من جنس العمل، وهكذا من شقّ علىٰ المسلمين وآذاهم؛ شقّ الله عليه، وفي «صحيح البخاري» من حديث جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**من يُشَاقِقْ؛ يَشْقُقِ الله عليه يوم القيامة**».

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: يضر الناس، ويحملهم علىٰ ما يشق من الأمر، ويقول فيهم أمرًا قبيحًا، ويكشف عن عيوبهم ومساويهم».

وقوله ﷺ: «**من يُشَاقِقْ يَشْقُقِ الله عليه يوم القيامة**»؛ دال علىٰ قاعدة العدل الإلهية؛ أن من تسلَّط علىٰ الناس بالأذىٰ والعدوان، وأوقعهم في العنت والحرج والسبِّ والقذف، وربما التكفير والتفسيق؛ أن الله يجعله في

(١) عون الباري (١٠/ ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧).

الآخرة من كلاب النار؛ كما قال النبي ﷺ في الخوارج.

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المؤمن يستر، والمؤمن يرحمُ ويعطفُ، والمؤمن يحوط ويستغفر، ويتوقَّىٰ أن يلوم أو يعيِّر، ويرجو من الله المغفرة والرحمة، ويرجِّيه ويؤمِّلُهُ.

وهذا المفتون يهتكُ، ويُعيِّرُ، ويؤنِّبُ، ويؤيِّسُ، ويقنِّطُ، ويكفِّرُ؛ فهذه أخلاق الكلاب، وبفعلهم وقولهم كلبوا علىٰ عباد الله، ونظروا إليهم بعين البِغضة، والعداوة، والملامةِ، فلما دخلوا النار؛ صاروا في هيئة أعمالِهِم كلابًا، كما كانوا علىٰ الموحِّدين في الدنيا كلابًا».

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال النبي ﷺ: «**ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم**»[٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**كان رجلٌ يُداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه، لعلَّ الله يتجاوز عنَّا. فلقي الله فتجاوز عنه**».

قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «في هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر،

---

(١) نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول ﷺ (١/ ٥٥٧).

(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٠٨).

(٣) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٩٩٤).

والوضع عنه: إمَّا كلّ الدَّين، وإمَّا بعضه من كثير أو قليل، وفضل المسامحة في الاقتضاء وفي الاستيفاء؛ سواء استوفي من موسر أو معسر، وفضل الوضع من الدَّين، وأنَّه لا يحتقر شيئًا من أفعال الخير؛ فلعلَّه سبب السَّعادة والرَّحمة».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من سرَّه أن يُنجيه الله من كرب يوم القيامة؛ فلينفِّس عن معسر، أو يضع عنه**».

وقال النبي ﷺ: «رحم الله عبدًا؛ سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترىٰ، سمحًا إذا قضىٰ»، رواه البخاري.

والناس عوضًا عن التراحم، صار بينهم الشحناء والتباغض إلا من شاء الله ورحم، وأكثر ذلك يرجع إلىٰ الحسد.

روىٰ مسلم في صحيحه، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة؛ فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلىٰ الناس الذي يحب أن يؤتىٰ إليه**».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن الإيمان الصحيح يقتضي ويستلزم الإحسان إلىٰ الناس، وأن يصل إليهم منه - من القول، والفعل، والمال، والمعاملة - ما يحب أن يعاملوه به. فهذا هو الميزان

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٤٨)، باختصار وتصرف يسير.

الصحيح للإحسان وللنصح».

وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت:** قدم ناس من الأعراب علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: أتُقَبِّلون صبيانكم؟! فقال: «**نعم**». قالوا: لكنَّا - والله - ما نُقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «**أوأملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة**».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «في هذا دليلٌ علىٰ تقبيل الصبيان؛ شفقة عليهم، ورقة لهم، ورحمة بهم.

وفيه دليلٌ علىٰ أن الله تعالىٰ قد أنزل في قلب الإنسان الرحمة، وإذا أنزل الله في قلب الإنسان الرحمة؛ فإنه يرحم غيره، وإذا رحم غيره؛ رحمه الله عَزَّوَجَلَّ، كما في الحديث الثاني، حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أن النبي ﷺ قال: «**من لا يرحم؛ لا يرحمه الله**». نسأل الله العافية.

الذي لا يرحم الناس لا يرحمه الله عَزَّوَجَلَّ، والمراد بالناس: الناس الذين هم أهل للرحمة؛ كالمؤمنين، وأهل الذمة، ومن شابههم، وأما الكفار الحربيون فإنهم لا يُرحمون، بل يقتلون؛ لأن الله تعالىٰ قال في وصف النبي ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالىٰ للنبي ﷺ:

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٥٤، ٥٥٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

ذكر الله تعالىٰ هذه الآية في سورتين من القرآن الكريم، بهذا اللفظ نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، ذكرها الله في سورة التوبة وفي سورة التحريم، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وكذلك أيضًا رحمة الدواب والبهائم، فإنها من علامات رحمة الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان؛ لأنه إذا رقَّ قلب المرء؛ رحم كل شيء ذي روح، وإذا رحم كل شيء ذي روح؛ رحمه الله. قيل: يا رسول الله! ألنا في البهائم أجر؟ قال: «**نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر**»».

وروىٰ أحمد والحاكم من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويُجِل كبيرنا، ويَعْرِفْ لعالمنا حقه**».

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «**الإجلال للكبير**: هو حقُّ سِنِّهِ؛ أنَّه تقلَّب في العبوديةِ لله تعالىٰ في مدةٍ طويلة.

(١) نوادر الأصول (١/ ٤٨٨).

والرحمةُ للصغير: هي موافقة الله تعالىٰ بأنَّه رحمه، ورفع عنه العقوبة، فلم يؤاخذه بحفظ حدٍّ ولا حكم.

والمعرفة للعالم: أن يعرف قدره بما رفع الله من قدره، فآتاه العلم، فإنَّ الله تعالىٰ قال في تنزيله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؛ فيعرفُ له درجاته التي رفع الله له، بما آتاه من العلم».

والرحمة للصغير لضعفه، وإذا لم يرع المسلمون حقه، وقاموا بأذيته أو أخذ حقوقه؛ فإن هذا من أسباب شقائهم؛ لظلمهم، وعدم قيامهم بالحقوق؛ حفظًا لعهد الله وأمانته، فمن لا يرعىٰ حق الضعيف ولا يؤدي الحق إلَّا إذا كان صاحب الحق قويًّا تخشىٰ سطوته، فهؤلاء أحرىٰ أن لا يرحمهم الله؛ فإن الله يرحم من عباده الرحماء، وظلم الضعفاء موجب لتسليط الله عليهم من يظلمهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وإذا كان الناس أهل رحمة بالضعفاء من الصبيان والنساء وضعفاء الرجال؛ رحمهم الله، وأدر لهم الخير بسببهم؛ قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفاءكم**»، رواه البخاري.

وأما العالم فحبُّه إيمان؛ لأنه يدعو إلىٰ الجنة بما عنده من ميراث النبوة،

ويحفظ الدين، ويجدِّده، ويذب عن سنة المصطفىٰ ﷺ.

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إحدىٰ علامات أهل السنَّة: حبهم لأئمة السنَّة وعلمائها، وأنصارها وأوليائها، وبغضهم لأئمة البدع، الذين يدعون إلىٰ النار، ويدلُّون أصحابهم علىٰ دار البوار.

وقد زيَّن الله سبحانه قلوب أهل السنَّة بحب علماء السنَّة، فضلًا منه جَلَّ جَلَالُهُ ومنَّة».

وقال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **لكُمَيْلِ بن زياد:** «محبة العالم دين يُدان بها»[٢].

وإعلاء شأن العلماء واجب؛ لأن الله جعلهم كذلك، حيث جعل العلماء تلو الأنبياء وفوق الشهداء؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]. والعلماء يتدارسون كتاب الله، فمجالسهم مجالس تغشاها الرحمة، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: «نعم المجلس مجلس تنشر فيه الحكمة، وترجىٰ فيه الرحمة».

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص٣٠٧).

(٢) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (١/ ١٨٢).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٨٨).

وروىٰ عبد الرزاق بإسناد صحيح عن طاوس؛ أنه قال: «من السُّنَّة أن توقر العالم».

وكان ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يأخذ بركاب زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فيقول له: أتفعل هذا وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟! قال: هكذا أُمرنا أن نصنع بعلمائنا.

والعلماء مرجع الناس في بيان أحكام الشرع؛ قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]. وهم مرجع الناس في مصالحهم العامة، وما يتعلق بأمنهم ونوازلهم؛ قال تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

قال أيوب السَّخْتِياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن من أعظم نعمة الله علىٰ عبده أن يكون مأمونًا علىٰ ما جاء به النبي ﷺ».

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **- في شأن علماء أهل السنَّة -**[2]: «قد جعل الله تعالىٰ أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كلَّ بدعة شنيعة؛ فهم أمناءُ الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمَّته، والمجتهدون في حفظ ملَّته».

---

(١) عِدَة الصابرين (ص٢٠٤).

(٢) شرف أصحاب الحديث (ص٨).

وعلماء أهل السنة أئمة هدًىٰ؛ لأنهم نصروا السنة ودلوا الناس إلىٰ صراط الله المستقيم، ودعاة البدعة تفرقوا بالمسلمين إلىٰ سبل الضلالة، التي تحبط الأعمال وتجعلها مردودة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أئمة السنة ليسوا مثل أئمة البدعة، فإن أئمة السنة تضاف السنة إليهم؛ لأنهم مُظاهر بهم ظهرت، وأئمة البدعة تضاف إليهم؛ لأنهم مصادر عنهم صدرت».

وقال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار؛ أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يُعدُّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنَّما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم».

وروىٰ مسلم في صحيحه، من حديث عِيَاضِ بن حِمَار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال في خطبته: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربىٰ، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له؛ الذين هم فيكم تبعًا، لا يبغون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفىٰ له طمع وإن دقّ إلَّا خانه، ورجل لا**

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص٤١٦).

يُصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ أهل الجنة ثلاثة أصناف:

أحدها: ذو السلطان المقسط المتصدِّق، وهو من كان له سلطان علىٰ الناس؛ فسار في سلطانه بالعدل، ثم ارتقىٰ درجة الفضل.

والثاني: الرحيم الرقيق القلب، الذي لا يخص برحمته قرابته، بل يرحم المسلمين عمومًا؛ فتبين أن القسمين أهل الفضل والإحسان.

والثالث: العفيف المتعفف ذو العيال، وهو من يحتاج إلىٰ ما عند الناس فيتتعفف عنهم، وهذا أحد نوعي الجود - أعني العفة عما في أيدي الناس - لا سيما مع الحاجة».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أمر بالتقوىٰ عمومًا، ورتب علىٰ القيام بالتقوىٰ وبحقوق المؤمنين الرحمة؛ فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص١٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٦٩١).

تُرۡحَمُونَ ﴾، وإذا حصلت الرحمة؛ حصل خير الدنيا والآخرة.

ودل ذلك علىٰ أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة».

وصفة المؤمن الرحمة بالمخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾ [البلد: ١٧، ١٨]. قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾: للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم علىٰ المصالح الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه».

عن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من لا يرحم الناس؛ لا يرحمه الله**»، متفق عليه.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يدل هذا الحديث بمنطوقه علىٰ: أن مَنْ لَا يَرْحَم النَّاسَ لَا يَرحمه الله، وبمفهومه علىٰ: أن من يرحم الناس يرحمه الله؛ كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «**الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض؛ يرحمكم من في السماء**».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٩٧١).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٢٤ - ٢٢٦).

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلىٰ رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم، واندفاع النقم؛ من رحمة الله.

فمتىٰ أراد أن يستبقيها، ويستزيد منها؛ فليعمل جميع الأسباب التي تُنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلىٰ عباد الله. والإحسان إلىٰ الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية؛ قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان علىٰ الخلق؛ ففعلوا بمقتضىٰ هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم. فهم محمودون مثابون علىٰ ما قاموا به، معذورون علىٰ ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنيَّاتهم الصادقة؛ ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة؛ تجعل قلبه علىٰ هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها؛ فيجاهد نفسه علىٰ الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب،

وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعىٰ بالسبب الذي ينال به ذلك. ويعلم أن الجزاء من جنس العمل، ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخوانًا متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك؛ من البغضاء، والعداوات، والتدابر.

فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به؛ حتىٰ يمتليء قلبه من الرحمة، والحنان علىٰ الخلق. ويا حبذا هذا الخلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل.

وهذه الرحمة التي في القلوب، تظهر آثارها علىٰ الجوارح واللسان؛ في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلىٰ الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

وعلامة الرحمة الموجودة في قلب العبد: أن يكون محبًّا لوصول الخير لكافة الخلق عمومًا، وللمؤمنين خصوصًا، كارهًا حصول الشر والضرر عليهم؛ فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن شُكْرِهِ أنه يجازي عدوه - الكافر - بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة؛ فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه.

---

(١) عِدَة الصابرين (ص٤١٥).

ومن شُكْرِهِ أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلبًا كان قد جهده العطش حتىٰ أكل الثرىٰ، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

فهو سبحانه يشكر العبد علىٰ إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه.

وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطىٰ العبد ما يحسن به إلىٰ نفسه، وشكره علىٰ قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم (الشكور) منه سبحانه؟!

وتأمل قوله سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]. كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالىٰ يأبىٰ تعذيب عباده سُدًىٰ بغير جُرْم، كما يأبىٰ إضاعة سعيهم باطلًا، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يُعذِّب غير مسيء».

❁ ❁ ❁

طريق الجنة

أسنان مفتاح دخول الجنة هي الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة شرطها الإخلاص والمتابعة؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**» متفق عليه من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. فلابد من طلب علم صفة أداء النبي ﷺ للطاعات عمومًا، وأركان الإسلام وفرائضه خصوصًا؛ فعن مالك بن الحويرث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» رواه البخاري. وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**لتأخذوا عني مناسككم**» رواه مسلم. وفي الصحيحين عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلىٰ ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه؛ غُفر له**».

فمن أجل هذا قال ربيعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم وسيلة إلىٰ كل فضيلة»، وفي حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**ومن سلك طريقًا يلتمس**

به علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة»، رواه أحمد والترمذي.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «سبب تيسير طريق الجنة علىٰ طالب العلم - إذا أراد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ وطلب مرضاته -: أن العلم يدل علىٰ الله من أقرب الطرق وأسهلها، فمن سلك طريقه ولم يعوّج عنه وصل إلىٰ الله وإلىٰ الجنة من أقرب الطرق وأسهلها؛ فتسهلت عليه الطرق الموصلة إلىٰ الجنة كلها في الدنيا وفي الآخرة.

ومن سلك طريقًا يظنه طريق الجنة بغير علم؛ فقد سلك أعسر الطرق وأشقها، ولا يوصل إلىٰ المقصود مع عسرة شديدة».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وقد وصف الله في سورة «الفاتحة» الصراط بأنه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

ثم سمَّىٰ الذين أنعم عليهم في سُورة «النساء»، وجعلهم أربعة أصناف: النبيين، والصِّديقين، والشُّهداء، والصالحين؛ فدلَّ علىٰ أنَّ هؤلاء كلَّهم علىٰ هذا الصراط المستقيم؛ فلا يخرج عنهم إلَّا: إمَّا مغضوبٌ عليه، وهو من عَرف الصراط، وسلك غيره عمدًا؛ كاليهود والمشركين، وإمَّا ضالٌّ

---

(١) جامع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ١٣).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ١٩٤).

جاهل يسلك غير الصراط جهلًا، ويظن أنَّه الصراط.

وحقيقةُ الإسلام: الاستسلام لله تعالىٰ، والانقياد لطاعته».

والآية الجامعة المبيّنة لطريق الجنة، المحذّرة من طرق النار؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ [النحل: ٩].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «السبيل القاصد هو الصراط المستقيم، والسبيل الجائر هو سبيلُ الشيطان الرجيم، وقد وحَّد طريقه في أكثر المواضع، وجمع طُرق الضلال؛ لأن طريق الحق أصلُه شيءٌ واحد، ودين الإسلام العام - كما سبق -، وهو توحيدُ الله وطاعته، وطُرق الضلالة كثيرة متنوعة، وإنْ جمعها الشرك والمعصية».

فهذه صفات أهل الرحمة: الإيمان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطاعة الله ورسوله عمومًا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١].

قال تعالىٰ مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٣

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ١٩٧).

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبّر القرآن، وتلقِّي نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم؛ سهل علىٰ العاملين لاستقامته، موصل إلىٰ المقصود، من قرب حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل. فدعوتك إياهم إلىٰ الصراط المستقيم؛ موجب لمن يريد الحق أن يتّبعك؛ لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟! فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك؛ لأنهم ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ متجنبون، منحرفون عن الطريق الموصل إلىٰ الله، وإلىٰ دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الإيمان والعمل الصالح في الدنيا؛ هو الصراط المستقيم في الدنيا الذي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه، وأمرهم بسؤال الهداية إليه، فمن استقام سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم في الدنيا، ظاهرًا وباطنًا؛ استقام مشيه علىٰ ذلك الصراط

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٨٥).

(٢) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار (ص١٥٨).

المنصوب علىٰ متن جهنم. ومن لم يستقم سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم في الدنيا، بل انحرف عنه: إما إلىٰ فتنة الشبهات، أو إلىٰ فتنة الشهوات؛ كان اختطاف الكلاليب له علىٰ صراط جهنم، بحسب اختطاف الشبهات والشهوات له علىٰ هذا الصراط المستقيم؛ كما في حديث أبي هريرة: «**إنها تخطف الناس بأعمالهم**»».

❁ ❁ ❁

تيسير فعل الطاعات برحمة اللّه

ما أعظم رحمة الله بخلقه وعبيده، فإنه سبحانه كلَّفهم ما يطيقون، وأمرهم بما يستطيعون؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. ومع هذا جعل الله في العبادات والطاعات التي أمرنا بها موجبات المبادرة إلىٰ فعلها، بما فيها من قرة العين والرضا عن الله والفرح بطاعته وذكره، مع ما يرجوه الطائعون من ثمرات العبودية لله من بركات الطاعة الدنيوية والأخروية؛ قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ومع هذا كله فنحمد ربنا علىٰ تيسيره علىٰ عباده فعل الطاعات، فانظر إلىٰ ركن الصيام؛ كيف أعان الله عباده علىٰ أدائه، وأعان عباده في هذا الشهر علىٰ أنواع الخيرات والانكفاف عن السيئات! ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جاء رمضان؛ فُتحت أبواب**

الجنة، وغُلقت أبواب النار، وصُفِّدت الشياطين».

وصحيح أن هذا الفضل من خصائص رمضان، إلا أن عائدته وثمرته علىٰ المسلم تكون في السنة كلها، وهكذا كل عام يتكرر فيه الصيام ويدرك الإنسان بركته في دهره كله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من صحَّ له يومُ جمعته وسلم؛ سلمت له سائر جمعته، ومن صحَّ له رمضان وسلم؛ سلمت له سائر سنته، ومن صحَّت له حجته وسلمت له؛ صحَّ له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر».

والتكاليف التي أمر الله بها عباده هي حقه الخالص في عبوديته، وثواب من أدَّىٰ هذا الحق الجنة؛ قال النبي ﷺ: «**حق الله أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**». وجعل الله حقًّا عليه أن من أدَّىٰ حقه أن يدخله الجنة؛ فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**وحق العباد علىٰ الله أن لا يُعذِّب من لا يشرك به شيئًا**» متفق عليه.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، قال العلامة السعدي: «ما تطهَّر من اتِّباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يسعىٰ، هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالةٌ إلىٰ السوء

(١) زاد المعاد (١/ ٣٩٨).

أمَّارةٌ به، والنقص مستول علىٰ العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خُلِّي وهذه الدواعي؛ ما زكىٰ أحدٌ بالتطهُّر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإنَّ الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكنَّ فضله ورحمته أوجبا أن يتزكَّىٰ منكم من تزكَّىٰ. وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم! آت نفسي تقْواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وَليُّها ومولاها**»، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾: من يعلم منه أن يتزكَّىٰ بالتزكية؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»(١).

وتيسير الله المؤمنين للإيمان به، والتزكية، والعمل الصالح؛ فضل من الله ورحمة ومنَّة، وإضلال الكافرين عن الصراط المستقيم، مع دلالة رسوله ﷺ إليه؛ عدل لرغبتهم عنه باختيارهم وإرادتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤]. وسبب كفر الكافرين زيغ قلوبهم عن أسباب الهداية؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وسبب إلحادهم وكفرهم خبث بواطنهم؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، وسبب كفرهم اتِّباع الشيطان؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١٥٨، ١١٥٩).

وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾ [النساء: ٣٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنما حملهم علىٰ صنيعهم هذا القبيح، وعدولهم عن فعل الطاعة علىٰ وجهها؛ الشيطان؛ فإنه سوَّل لهم وأملىٰ لهم، وقارنهم، فحسَّنَ لهم القبائح، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾؛ ولهذا قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرين بالمُقارن يقتدي

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩] الآية؛ أي: وأيُّ شيء يكْرُثهم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرِّياء إلىٰ الإخلاص، والإيمان بالله، ورجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملًا، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يُحبُّها الله ويرضاها.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾؛ أي: وهو عليم بنيَّاتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفِّقه، ويُلهمه رشده، ويقيِّضه لعمل صالح يرضىٰ به عنه، وبمن يستحقُّ الخذلان والطرد عن الجناب الأعظم الإلهيِّ، الذي من طُرد عن بابه؛ فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عياذًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٩٨، ٦٩٩).

بالله من ذلك».

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أضافها - العبودية - إلىٰ اسمه الرحمن؛ إشارةً إلىٰ أنَّهم إنَّما وصلوا إلىٰ هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أنَّ صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت».

وتُنال رحمةُ الله بالاستقامة علىٰ شرعه، ولزوم أمره ونهيه؛ فيبادر المسلم إلىٰ استباق الخيرات، فيوفقه الله إلىٰ ذلك؛ فيكون من أهل الطاعة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

فالمؤمنون يدركون رحمة الله بالرغبة إليه ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الرغبة إلىٰ الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ، وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره».

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٢٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٣٢).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم؛ أن جعلَ من صلاته عليهم، وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم؛ ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلىٰ نور الإيمان، والتوفيق، والعلم، والعمل؛ فهذه أعظم نعمة أنعم بها علىٰ العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه، أفضل الملائكة، ومن حوله؛ يُسَبِّحون بحمد ربِّهم، ويستغفرون للذين آمنوا، فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧-٩]؛ فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأجلُّ رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربِّهم، وتحيَّته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدريه، ولا يعرف كنهه؛ إلَّا من أعطاهم إياه؛ ولهذا قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٣٩١).

تنال رحمة اللّه بالالتجاء إليه

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥].

قال ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل علىٰ الله في جميع أمورهم».

وقال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: ٩٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «نثبت هذين الاسمين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٦).

(٣) تفسير سورة المائدة (٢/ ٤٢٧، ٤٢٨).

لله عَزَّوَجَلَّ، ونثبت ما دل عليهما من الصفة؛ وهي المغفرة في «غفور»، والرحمة في «رحيم»، وهل نثبت الأثر؛ يعني الحكم المترتب علىٰ هذه الصفة؟ الجواب: نعم؛ يغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء.

لو قال قائل: ما الذي يترتب علىٰ هذين الاسمين والإيمان بهما؟

الجواب: يترتب علىٰ ذلك: أن يتعرض الإنسان لمغفرة الله عَزَّوَجَلَّ بفعل الأسباب التي توجبها، ويتعرض للرحمة بفعل الأسباب التي يُحَصِّلُ بها الرحمة، عكس ما يظنه بعض العوام؛ فبعض العوام إذا نهيته عن معصية قال: الله غفور رحيم. فيظن أن هذا من باب تهوين المخالفة علىٰ العبد، وليس كذلك؛ بل هذا حث للعبد أن يفعل ما به المغفرة والرحمة».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلىٰ الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩٥).

وهيأ لهم من أمرهم مرفقًا؛ فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته علىٰ خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب؛ حتىٰ المحل الذي ناموا فيه، كان علىٰ غاية ما يمكن من الصيانة».

والنبيون جميعًا - عليهم الصلاة والسلام - يسألون الله أن يدخلهم في رحمته، وينشر عليهم سكينته ونصره وعفوه ورضاه؛ قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ داعيًا ربه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا الوصف الذي أدخل الله به نبيه لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رحمته: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ التي من دخلها كان من الآمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة، وبر، وسرور، وثناء؛ وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحًا الأنبياء - عليهم السلام -؛ ولهذا يصفهم بالصلاح».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٥٥).

تبديل السيئات بالحسنات

رحمة الله بخلقه عظيمة؛ فإنه سبحانه الودود الغفور الرحيم الكريم العفو، رحمته تجاوزت العفو عن الذنوب، ومغفرة السيئات؛ إلىٰ تبديلها حسنات، فما أعظم كرم الله ورحمته بخلقه!

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

وروىٰ مسلم في صحيحه، من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة، يُؤتىٰ برجل، فيقول: نحُّوا كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها.** قال: **فيُقال له: عملت يوم كذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا: كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيُقال: فإن لك بكلِّ**

سيئةٍ حسنة. فيقول: يا ربِّ! عملتُ أشياء لا أراها هاهنا». قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه.

وقال أبو الضيف، وكان من أصحاب معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يدخل أهل الجنة الجنة علىٰ أربعة أصناف: المتقين، ثم الشاكرين، ثم أصحاب اليمين. قلت: لم سُمُّوا أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم قد عملوا الحسنات والسيئات، فأُعطوا كُتبهم بأيمانهم، فقرؤوا سيئاتهم حرفًا حرفًا، وقالوا: يا ربنا! هذه سيئاتنا، فأين حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات؛ فعند ذلك قالوا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩]. فهم أكثر أهل الجنة[١].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «في معنىٰ قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم بدَّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾، قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم علىٰ السيئات، فرَغِبَ الله بهم عن ذلك؛ فحوَّلهم إلىٰ الحسنات، فأبدَلهم مكان

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٢).

السيئات الحسنات.

وروي عن مجاهد، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنه كان يُنشد عند هذه الآية:

بُـــدِّلن بعـــد حَـــرّهِ خريفـــا وبعـــد طُـــول الـــنَّفَسِ الوَجِيفـــا

يعني: تغيَّرت تلك الأحوال إلىٰ غيرها.

وقال عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا في الدنيا، يكون الرجل علىٰ هيئة قبيحة، ثم يبدله الله بها خيرًا.

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أبدَلَهم بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدَلَهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أبدَلَهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانًا، وبالكفر إسلامًا.

وهذا قول أبي العالية، وقتادة، وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذلك إلا أنه كلما تذكَّر ما مضىٰ؛ ندم واسترجع واستغفر؛ فينقلب الذنب طاعةً بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه؛ فإنه لا يضرُّه، وينقلب حسنةً في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحَّتْ به الآثار المروية عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ».

رحمة اللّه تُدرك بدوام اللجْء إلى اللّه

المسلم يعلم ضعفه، وأن الله إذا تولاه؛ حفظه في دينه وبدنه وعقله، ويسّره لليسرىٰ، وأعانه علىٰ كل خير؛ فالمؤمن يأوي إلىٰ ركن شديد ليغمره الله برحمته وأسبابها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿عِبَادَه﴾، وهما سواء؛ لأن المفرد مضاف، فيعمُّ عموم الجمع. فالكفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة مع الناقصة، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوِّه عليهم سلطان، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

ولما علم عدوُّ الله إبليس؛ أن الله تعالىٰ لا يُسْلِم عباده إليه، ولا يُسَلِّطُه

(١) الوابل الصيّب (٥-٨).

عليهم؛ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

فلم يجعل لعدوه سلطانًا علىٰ عباده المؤمنين؛ فإنهم في حِرْزه وكلاءته وحفظه، وتحت كَنَفِه، وإن اغتال عدوُّه أحدَهم كما يغتال اللصُّ الرجل الغافل؛ فهذا لابدّ منه، لأن العبد قد بُلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله علىٰ العبد من هذه الأبواب الثلاثة، ولو احترز العبد ما احترز؛ فلابد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب.

وقد كان آدم أبو البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ من أحلم الخلق، وأرجحهم عقلًا، وأثبتهم، ومع هذا فلم يزل به عدوُّ الله حتىٰ أوقعه فيما أوقعه فيه، فما الظن بفراشة الحِلْمِ(١)، ومن عقله في جنب عقل أبيه كتفلة في بحر؟!

ولكنَّ عدو الله لا يَخْلُصُ إلىٰ المؤمن إلا غيلةً علىٰ غرّة وغفلة؛ فيوقعه، ويظن أنه لا يستقيل ربه عَزَّوَجَلَّ بعدها، وأن تلك الواقعة قد اجتاحته

(١) مثل يُضرب في خفَّة الحِلْم.

وأهلكته، وفضل الله تعالىٰ ورحمته، وعفوه ومغفرته، من وراء ذلك كله.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا؛ فتح له بابًا من أبواب التوبة، والندم، والانكسار، والذل، والافتقار، والاستغاثة به، وصِدْق اللجْء إليه، ودوام التضرع والدعاء، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، حتىٰ يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أُوقِعْهُ.

وهذا معنىٰ قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يَدْخُلُ به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار.

قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نَصْب عينيه، خائفًا منه مشفقًا وَجِلًا، باكيًا نادمًا، مستحيًا من ربه تعالىٰ، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة؛ بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتىٰ يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يَمُنُّ بها علىٰ ربه، ويتكبَّر بها، ويَرىٰ نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلتُ، وفعلتُ. فيورثه ذلك من العجب والكِبْر، والفخر والاستطالة؛ ما يكون سبب هلاكه.

فإذا أراد الله تعالىٰ بهذا المسكين خيرًا؛ ابتلاه بأمر يكسرُه به، ويُذِلُّ به عُنُقَه، ويُصَغِّر به نفسه عنده. وإن أراد به غير ذلك؛ خلَّاه وعُجْبه وكِبْره، وهذا

هو الخذلان الموجب لهلاكه. فإن العارفين كلهم مجمعون علىٰ أن التوفيق: أن لا يكلك الله تعالىٰ إلىٰ نفسك، والخذلان: أن يَكِلَكَ الله تعالىٰ إلىٰ نفسك.

فمن أراد الله به خيرًا؛ فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللَّجْءِ إلىٰ الله تعالىٰ والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه، ورحمته، وجوده، وبِرّه وغِناه، وحمده.

فالعارف سائر إلىٰ الله تعالىٰ بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتىٰ فاته واحد منهما؛ فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: «العارف يسير إلىٰ الله بين مشاهدة المِنّة، ومطالعة عيب النفس والعمل».

وهذا معنىٰ قوله ﷺ في الحديث الصحيح، حديثِ: «**سَيِّدُ الاستغفار: أن يقول العبد: اللَّهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**».

فجمع في قوله ﷺ: «**أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي**» مشاهدة المنَّة، ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنَّة توجب له المحبة، والحمد والشكر لوليِّ النعم والإحسان،

ومطالعة عيب النفس والعمل؛ توجب له الذل والانكسار، والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرىٰ نفسه إلا مفلسًا.

وأقربُ باب دخل منه العبد علىٰ الله تعالىٰ، باب الإفلاس؛ فلا يرىٰ لنفسه حالًا، ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به، ولا وسيلة منه يَمُنُّ بها؛ بل يدخل علىٰ الله تعالىٰ من باب الافتقار الصَّرْف، والإفلاس المَحْض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه، حتىٰ وصلت تلك الكسرة إلىٰ سُوَيْدائه؛ فانصدع، وشملته الكَسْرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً، وضرورةً كاملةً إلىٰ ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأنه إن تخلىٰ عنه طرفة عين؛ هلك، وخسر خسارة لا تُجْبر؛ إلا أن يعود الله تعالىٰ عليه، ويتداركه برحمته. ولا طريق إلىٰ الله تعالىٰ أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدَّعْوى!

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: **حب كامل، وذل تام.**

ومنشأ هذين الأصلين عن ذَيْنك الأصلين المتقدمَيْن وهما: مشاهدة المِنَّة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس، والعمل التي تورث الذل التام.

وإذا كان العبد قد بنىٰ سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين؛ لم يظفر عدوه به إلا على غِرَّةٍ وغفلة، وما أسرع ما يُنْعِشُه الله عَزَّوَجَلَّ ويَجْبُرَه ويتداركه برحمته».

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئ الأعمال والأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»؛ رواه النسائي، وصححه العلامة المحدِّث الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

❁ ❁ ❁

سوء الظن بالله يُبعد عن رحمته

المؤمنون المقيمون علىٰ طاعة الله، المسارعون في الخيرات؛ حسن ظنهم بالله توحيد؛ لما يعلمونه من نعوت كماله وصفات جلاله، فهم أحسنوا الظن مع حسن العمل، ولهم سيئات هي من لوازم بشريتهم وانتفاء العصمة عنهم، يرجون مغفرتها من الله وحده ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وهم وجلون من حسناتهم أن لا تقبل؛ لما يعتريها من النقص؛ فيسارعون إلىٰ الاستغفار ويبادرون إلىٰ جبر الخلل بتحسين العمل؛ فالله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن ظنَّ أنَّه يُسوِّي بين المتضادَّيْن، أو يُفرِّق بين المتساويين من كلِّ وجهٍ، أو يُحْبطُ طاعاتِ العمر المديد الخالصة الصَّواب بكبيرةٍ واحدةٍ تكون بعدها؛ فيخلد فاعل تلك الطَّاعات في النَّار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبطُ بها جميع طاعاته، ويُخَلِّده في العذاب كما

(١) زاد المعاد (ص٤٠٧)، ط: مؤسسة الرسالة، ناشرون.

يخلِّد من لا يؤمن به طرفة عينٍ، وقد استنفد ساعات عمره في مساخِطه، ومعاداة رسله ودينه؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

وبالجملة: فمن ظنَّ به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رُسله؛ أو عطَّل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن ظنَّ به سبحانه أنَّه ينالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتَّقرُّب إليه؛ فقد ظنَّ به خلاف حِكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظنِّ السَّوء.

ومن ظنَّ به أنَّه إذا ترك لأجله شيئًا لم يُعوِّضه خيرًا منه، أو من فعل لأجله شيئًا لم يعطه أفضل منه، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ.

ومن ظنَّ به أنَّه يغضبُ علىٰ عبده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرمٍ، ولا سببٍ من العبد، إلَّا بمجرَّد المشيئة، ومحض الإرادة؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ به أنَّه إذا صدقه في الرَّغبة والرَّهبة، وتضرَّع إليه وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه؛ أنَّه يُخيِّبُه ولا يعطيه ما سأله؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ به خلاف ما هو أهله.

ومن ظنَّ به أنَّه يُثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في

---

(١) زاد المعاد (ص٤٠٧)، ط: مؤسسة الرسالة، ناشرون

دعائه؛ فقد ظنَّ به خلاف ما تقتضيه حِكمته وحمده، وخلافَ ما هو أهلُه، وما لا يفعله.

ومن ظنَّ به أنَّه إذا أغضبه وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثمَّ اتَّخذ من دونه وليًّا، ودعا من دونه ملَكًا أو بشرًا حيًّا أو ميِّتًا، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربِّه، ويُخَلِّصَه من عذابه؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء، وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه».

والإنسان يغلبه طبعه الكنود، وغفلته عن سنة الله الكونية؛ أنه يبتلي عباده بالخير والشر؛ فيسيء الظن بربه، أو يسارق إليه شيء من الإخلال بالإيمان بالقدر خيره وشره.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الكنود: هو الذي يعدُّ المصائب، وينسىٰ نِعَم ربِّه».

وقال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ أي: نختبركم بالمصائب تارةً، وبالنِّعم أخرىٰ؛ لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٨٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢٦١).

يصبر ومن يقنط، كما قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ يقول: نبتليكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنىٰ والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدىٰ والضلال.

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم».

والإنسان لو تأمل نعمة الله عليه، وفضله، وقارن نفسه بغيره ممن أصيب بأعظم مما أصيب به؛ لهانت عليه مصائبه، واسْتَكان لقدر الله، ناهيك عما يدفعه الله عنه وعن سائر الخلق من المصائب والشرور ما الله به عليم، وربما أراه الله مقدمات وبدايات تلك الشرور، فلطف به وصرف عنه السوء؛ من تسلط عدو، أو حادث سيارة، أو ذهاب بعض المال لا كله، ومع هذا كله فالله سابغ علينا نعمه، حافظ لنا ديننا، أعطانا من النعم لا نحصي ثناءً علىٰ الله، وأعظم ذلك نعمة الإسلام والسنة.

وواجب المسلم أن يكون شاكرًا لله، منيبًا إليه، ملازمًا لطاعته، ولو تقلبت به الأحوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بيّنة، وإن كان يسوؤه فهو نعمة؛ من جهة أنه يكفِّر خطاياه،

(١) الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (٦/ ١٦٧).

ويُثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها العبد، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]».

فواجبك - أيها المسلم - الإيمان بالقدر خيره وشرِّه، وأن لا تكون حكمًا علىٰ الله، تقول: لماذا قدَّر الله عليَّ كذا وكذا. فأنت مربوب والله هو الرب، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والله لا يقضي إلا لحكمة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وأنت - أيها المخلوق - تعلم من نفسك كم مرة هَمَمْتَ بسوء، أو بشر؛ فصرفك الله عنه؛ فالله لا يقضي للمؤمن إلا خيرًا.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد جرَّبت - أيها الإنسان - كيف يتنكب القدر اختياراتك الدنيَّة، وأبدلك بها الأمور العليَّة، غير راضٍ أن يجعل إحسانه إليك تابعًا لسوء اختيارك».

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٣/ ٢١٥).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرامٌ له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله: (كلا)؛ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يُحبُّ، ومن لا يُحبُّ، ويُضيِّقُ علىٰ من يحب ومن لا يُحبُّ، وإنما المدار في ذلك علىٰ طاعة الله في كل من الحالين: إذا كان غنيًّا بأن يشكر الله علىٰ ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أكثر الخلق - بل كلُّهم إلَّا من شاء الله - يظنُّون بالله غير الحقِّ، ظنَّ السَّوء؛ فإنَّ غالب بني آدم يعتقد أنَّه مبخوس الحقِّ، ناقص الحظِّ، وأنّه يستحقُّ فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه. ونفسه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره، ولا يتجاسر علىٰ التَّصريح به، ومن فتَّش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها؛ رأىٰ ذلك فيها كامنًا كُمونَ النَّار في الزِّناد، فاقدح زنادَ من شئت

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٧١).

(٢) زاد المعاد (ص٤٠٨).

يُنبئك شَرَاره عمَّا في زناده، ولو فتَّشت من فتَّشته لرأيت عنده تعتُّبًا علىٰ القدر، وملامةً له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرىٰ به، وأنّه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثِر، وفَتِّشْ نفسك؛ هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تَنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ وإلَّا فإنِّي لا إخَالُكَ ناجيًا

فليعتنِ اللَّبيب النَّاصح لنفسه بهذا الموضع، وليتُبْ إلىٰ الله تعالىٰ، وليستغفره كلَّ وقتٍ من ظنِّه بربِّه ظنَّ السَّوء، وليظنَّ السَّوءَ بنفسه الَّتي هي مأوىٰ كلَّ سوءٍ، ومنبع كلَّ شرٍّ، المركَّبة علىٰ الجهل والظُّلم، فهي أولىٰ بظنِّ السَّوءِ من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الرَّاحمين، الغنيِّ الحميد، الَّذي له الغنىٰ التَّامُّ، والحمدُ التَّامُّ، والحكمة التَّامَّة، المنزَّه عن كلِّ سوءٍ في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه؛ فذاته لها الكمال المطلق من كلِّ وجهٍ، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك؛ كلُّها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حسنىٰ».

ومع ما يُقدِّره الله علىٰ عباده من البلايا والمصائب؛ فإنه قد أمدَّهم بأسباب رفعها أو تخفيفها، ومن أعظم حِكَمِ الله في ذلك: أنه إذا كان في عباده بطرًا وكبرًا أو إعراضًا؛ قدَّر عليهم ما يوجب رجوعهم إليه، فيبتهلون إليه ويتضرعون إليه؛ فيرفع عنهم السوء.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

والدعاء من أعظم ما يدفع البلاء ويرفعه أو يُخففه، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**تعوذوا بالله من جهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماته الأعداء**».

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد يقضىٰ علىٰ الإنسان بلاء، ويسبق في القضاء أنه يدعو فيدفع عنه، فيكون في القضاء الدافع والمدفوع، وفائدة الدعاء: التعبد به وإظهار الفاقة».

بل وأرشدنا النبي ﷺ إلىٰ ما يجبر به الإنسان مصيبته بأن يسأل الله أن يخلفه خيرًا منها.

وأوكد ما يجب وينبغي من حسن الظن بالله؛ عند تقطع أسباب العمل وقرب موافاة الأجل؛ لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاثة أيام: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله تعالىٰ**».

قال العلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنه ينبغي للإنسان

---

(١) كشف المشكل (٤/ ٣٤٧).

(٢) شرح كتاب الشهاب (ص١٨١).

أن يرجح علىٰ ظنِّه أن الله يرحمه ويعفو عنه، حتىٰ يُوافيه الموت وهو علىٰ هذه الحالة؛ فإنَّ الكريم عَفُوٌّ، ورحمته تعالىٰ تسع جميع مخلوقاته، ولا يفعل ذلك إلا بعد سعيه في رضاء مولاه غاية جهده، فإذا أتاه المرض انقطع إلىٰ ربِّه بقلبه، وأحسن الظَّنَّ بعفوه وكرمه؛ فإن الله تعالىٰ لا يردُّه خائبًا، وهو أرحم الراحمين».

❁ ❁ ❁

العُجْب والغرور
يقطع عن العبد توفيق اللّه

إذا كان المسلم في مسارعة إلىٰ الطاعات واستباق للخيرات، فليحذر من العُجْب والغُرور؛ فإنه لولا توفيق الله في هدايته وإعانته علىٰ طاعته ما قام بما قام به من عبادة ربه، وهذا ما يتحدَّث به المؤمنون إذا دخلوا الجنة، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

والتحدُّث بنعمة الله في هداية العبد، وشكر الله علىٰ ذلك؛ هو من توحيد الله؛ فلو شاء الله لقطع عن عبده توفيقه وهدايته، وأزاغه، وجعل خاتمته خاتمة سوء.

وشكر الله علىٰ التوفيق للطاعة من أعظم أسباب الثبات علىٰ الخير وعبودية الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وواجب المسلم الحذر من الغُرور والارتفاعِ بالنفس علىٰ الخلق، فالزهو علىٰ الناس خصوصًا أهل المعاصي، أو سوء الظن بالمسلمين علىٰ العموم بتكفيرهم أو تفسيقهم؛ من أسباب الزيغ والضلالة، ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**من قال: هلك**

الناس. فهو أهلكهم» رواه مسلم.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هو أهلكُهم وأسوأهم حالًا فيما يلحقه من الإثم في عيبهم والإزراء بهم، وربما أداه ذلك إلىٰ العجب بنفسه، ويرىٰ أن له فضلًا عليهم، وأنه خير منهم؛ فيهلك».

والمسلم مأمور باستغفار الله من الخلل بعد أداء الطاعة، وسؤال الله القبول؛ قال الله آمرًا عباده المؤمنين بعد قضاء مناسك الحج: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة؛ أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره علىٰ التوفيق؛ فهذا حقيق بأن الله يجبر له ما نقص منها، ويتقبلها، ويزيده نعمًا أخرىٰ، لا من جهل حقَّ ربه، فرأىٰ نفسه أنه قد كمل حقوق العبادة؛ فأعجب بنفسه، ومنَّ بعبادته علىٰ ربه، وتراءىٰ له أنه قد جعلت له محلًّا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ويخشىٰ عليه من رد العمل».

لا ينادي أحد علىٰ نفسه بالتزكية والعصمة، بل الواجب اتهام النفس

---

(١) بواسطة شرح السنة (١٣/ ١٤٤).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص١٠٣).

بالتقصير، والخشية عليها من العُجْب والغرور، وأنواع الأهواء؛ خصوصًا الخَفِيَّة كالرياء ونحوه؛ فإنه أخوف ما خافه النبي ﷺ علىٰ أمته، فمن يأمنه علىٰ نفسه؟!

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لو حلفت يومئذ رجوت أن أبَرَّ؛ أنه ليس منَّا أحدٌ يريد الدنيا، حتىٰ أنزل الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾. رواه أحمد.

وفي الصحيحين: أن أبا بكر الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** يا رسول الله! علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**».

ولما أنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للنبي ﷺ: «وأيُّنا

لم يظلم نفسه»، متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فعل ما يوجب الملامة، فنجَّاه الله بما كان عليه من الصلاح وملازمة الذكر لله، والاستغفار حال نزول الضراء، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنَيْنًا، وفي أصحاب رسول الله رجل قاتل العدو قتالًا شديدًا، فقال الصحابة: ما أجزأ منَّا اليوم أحد كما أجزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: «**إنه من أهل النار**»، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. فخرج معه، فجُرح الرجل، فوضع نَصْل سيفه بالأرض وذُبابه بين ثدييه، ثم تحامل علىٰ سيفه؛ فقتل نفسه، فأُخبر النبي ﷺ بذلك؛ فقال: «**إن الرَّجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس؛ وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا الحديث حَذَر

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٣٣٧).

الإنسان الحذر التام من نفسه، وغرورها، واغترارها، لا يقول: أنا أصلي، وأصوم، أنا أفعل، أنا أترك. لأنه قد يكون هناك حبَّة سوداء في القلب تقضي عليه - والعياذ بالله -؛ لأن هذا الرجل شجاع، مِقدَام، مجاهد، ومع ذلك كانت نهايته هذه النهاية السيئة، نسأل الله حسن الخاتمة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الذُّنوب تُنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبَّه الله، وقد ترتفع درجته بالتَّوبة.

فمن قضي له بالتَّوبة؛ كان كما قال سعيد بن جبيرٍ: إنَّ العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النَّار، وإنَّ العبد ليعمل السَّيِّئة فيدخل بها الجنَّة. وذلك أنَّه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السَّيِّئة فتكون نصب عينيه؛ فيستغفر الله، ويتوب إليه منها».

وواجب المسلم أن تسره حسنته ولا تغره، ويسأل الله قبول عمله الصالح، وتثبيته علىٰ الطاعات، والزيادة من ذلك.

عن أبي رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنه سمع رجلًا حدَّثه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان؛ فقال: «**أتحب أن أُخبرك بصريح الإيمان؟**» قال: نعم. قال: «**إذا أسأت أو ظلمت أحدًا، عبدك أو أمتك، أو أحدًا من الناس؛ حزنت، وساءك**

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٦٥، ٣٦٦).

ذلك، وإذا تصدقت أو أحسنت؛ استبشرت، وسرك ذلك» رواه أبو نعيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن «**من سرَّته حسنته وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»؛ فهذا يحب الحسنة ويفرح بها، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها، وإن فعلها بشهوة غالبة، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ - **مبينًا واجب المسلم مع أمر الله ونهيه** -[٢]: «أن يكون عند الطَّاعة يستعين الله عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل، ويجتهد ألَّا يعصي، فإذا أذنب وعصىٰ؛ بادر إلىٰ التوبة والاستغفار؛ كما في الحديث: «**سيِّد الاستغفار: أن يقول العَبْدُ: أبوء لك بنعمتك عَلَيَّ، وأبوءُ بذنبي؛ فاغفر لي**»».

وقال العلامة المجدِّد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معلِّقًا**[٣]: «هذا هو الواجب علىٰ العباد؛ أن يشكروا الله علىٰ النعم بالطاعات، وأن يتوبوا إليه من المعاصي والمعائب، وأن يستمروا بهذا السبيل؛ يؤدون الطاعات شاكرين لله عَزَّوَجَلَّ، ويحذرون المعاصي سائلين له سبحانه وتعالىٰ أن يعينهم

---

(١) الإيمان (ص٢٩٠).

(٢) الاستقامة (٢/ ٥٣٠).

(٣) التعليقات البازية علىٰ الاستقامة (٢/ ٥٣٠).

علىٰ ذلك، وأن يثبتهم علىٰ الحق».

والعُجْب والغرور قد يحبط عمل الإنسان الصالح إذا تحامق بسببه علىٰ الخلق وقنَّطهم من رحمة الله؛ ففي «صحيح مسلم» عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ حدَّث: «**أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان. وأنَّ الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألَّىٰ عليَّ أن لا أغفر لفلان؛ فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**».

قال الإمام المجدِّد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الله قدَّر فيما سبق في علمه أنه لابد من وجود ذنوب؛ حتىٰ تظهر آثار رحمته وعفوه ومغفرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتوبته».

وعلَّمنا النبي ﷺ التواضع، وحذَّرنا من العُجب والغرور؛ حيث قال ﷺ: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّىٰ**» رواه البخاري ومسلم.

قال العلامة ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لأن الله تعالىٰ قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت، وهو مليم؛ أي: فاعل ما يُلام عليه، وقال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ فقد يقع في نفس

(١) التعليقات البازية علىٰ الرسائل العقدية، الاستقامة (٢/ ٥٨٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٦١، ١٦٢).

بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلىٰ هذا المقام؛ إذ لا يفعل ما يُلام عليه، ومن ظنَّ هذا فقد كذب، بل كُلُّ عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾؛ كما قال أوَّلُ الأنبياء وآخِرهم».

❁ ❁ ❁

نغرف من نهر جارٍ

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أن رسول الله** ﷺ **قال: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقىٰ من درنه شيء؟!»** قالوا: لا يبقىٰ من درنه شيء. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**» متفق عليه.

قال العلامة ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٦٠هـ)**[1]: «في هذا الحديث من الفقه: أن رسول الله ﷺ أقام الصلوات الخمس في غسل الذنوب مقام الماء في غسل الأوساخ، وإنما ضرب المثل بالنهر؛ لأن النهر لجريته لا يقف فيه الماء الأول الذي اغتسل به في المرة الأولىٰ، وإنما يتجدد عند كل مرة من الاغتسال ماء جديد.

فشبَّه رسول الله ﷺ الصلوات الخمس بالمرات الخمس في الاغتسال، وأن تلك المرة الأولىٰ أزالت ما وجدته من الخطايا بإزالة ذهبت بها

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ١٩٩، ٢٠٠).

الجرية، ثم جاءت الغسلة الثانية فغسلت ما عساه تجدد، ثم ذهبت به الجرية، ثم جاءت الغسلة الثالثة كذلك، فكانت الغسلات ماحية ما يتجدد بين كل غسلتين من الذنوب.

وهذا لأن الذنوب إنما تصدر عن الأعضاء؛ أعضاء الآدمي التي يستعملها في الصلاة؛ فيكون غسل ما نظر إليه نفسه، ونطق بلسانه، وبطش بيديه، ومشىٰ برجليه؛ بأن شغل كلًّا من ذلك في عبادة ربه مرة بعد مرة، وكان ذلك ماحيًا لآثار الخطايا.

وإنما ضرب المثل بالماء؛ لأن الماء هو الماحي للكتابة، وقد سبق أن الكاتبين يكتبان حركات العبد وأنفاسه؛ فكانت الصلوات مزيلة ما يرقمانه كما يزيل الماء أثر الكتابة المكتوبة بالمداد».

وأنت - أيها المسلم - إذا تأملت أذكار وأدعية الصلاة في مقاماتها كلها؛ وجدتها استغفارًا، فلا إله إلا الله! ما أعظم رحمة الله بخلقه! أن شرع لهم عبادة فرضها عليهم خمس مرات في اليوم والليلة، تجدِّد إيمانهم وتحفظه، وتزيل عنهم آثار ذنوبهم فيما يجترحونه من الذنوب بينها!!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان النبي ﷺ يَطلُب من الله

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٧٤، ٢٧٥).

المغفرة في أول الصلاة في الاستفتاح؛ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصحيح، وحديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصحيح؛ في أول ما يكبِّر، ثم يطلب الاستغفار بعد التحميد إذا رفعَ رأسَه، ويطلب الاستغفار في دعاء التشهد؛ كما في حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره، ويطلب الاستغفار في الركوع والسجود؛ كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الصحيح، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه. وروىٰ مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنبي كُلَّه، دِقَّهُ وجِلَّهُ، وأوَّلَه وآخرَه، وعلانيتَه وسِرَّه**».

فلم يَبقَ حالٌ من أحوال الصلاة ولا ركنٌ من أركانِها إلَّا استغفرَ الله فيه؛ فَعُلِمَ أنه كان اهتمامُه به أكثرَ من اهتمامِه بسائرِ الأدعية».

والصلاة كلها خير وبركة، وأفعالها في نفسها طاعة، وسبب لتكفير الذنوب، وكذلك ما كان من شروطها ووسائلها؛ فالطهارة لها تزكية وتكفير للسيئات، والسعي إليها بالمشي أو الركوب رفعة درجات وتكفير للسيئات.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تأمل هذا الفضل العظيم: يتطهر الإنسان في بيته فيسبغ الوضوء، فتكفَّر عنه سيئاته مع آخر قطرة من قطرات الماء، فإذا تشهد فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠).

أيها شاء، فإذا خرج من بيته بعد التطهر يريد المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطُ خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة. هذا أيضًا ثواب كثير، كل خطوة لك فيها فائدتان: الأولىٰ: رفع الدرجة، والثانية: حط الخطيئة؛ ثواب كثير عظيم في عمل قليل، فإذا دخل المسجد فصلىٰ لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه؛ تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. دعاء من الملائكة، سخرهم الله عَزَّوَجَلَّ».

وعن عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوُضوء؛ خرجت خطاياه من جسده حتىٰ تخرج من تحت أظفاره**»، رواه مسلم.

وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** رأيت رسول الله ﷺ توضَّأ مِثلَ وُضُوئي هذا، ثم قال: «**من توضأ هكذا، غُفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومشيه إلىٰ المسجد نافلة**»، رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ **أن رسول** ﷺ **قال:** «**إذا توضأ العَبْدُ المُسْلم - أو المؤمن - فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كُلُّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كُلُّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتىٰ يخرج نقيًّا من الذنوب**»، رواه مسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن المتوضئ يُطهِّر بدنه بالماء، وقلبه بالتوبة؛ ليستعد بذلك للدخول علىٰ ربه ومناجاته والوقوف بين يديه؛ طاهر البدن والثوب والقلب، فأي حكمة ورحمة ومصلحة فوق هذا؟!».

❁ ❁ ❁

(١) شفاء العليل (٣/ ١١٦٥).

الداء والدواء

كان عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كافرًا، ثم جعل الله الإسلام في قلبه، فأتىٰ النبي ﷺ، فقال له: ابسط يدك لأبايعك. ثم قبض عمرو يده، فقال له النبي ﷺ: «**مالك يا عمرو؟!**» قال: أردت أن أشترط. قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يُغفر لي. قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهْدمُ ما كان قبله**»، رواه مسلم.

وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»، رواه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وقال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ووصَّىٰ بملازمة التَّقوىٰ حيثما كان العبد في كلِّ وقتٍ، وكلِّ مكانٍ، وكلِّ حالةٍ من أحواله؛ لأنَّه مضطرٌّ إلىٰ التَّقوىٰ غاية الاضطرار، لا يستغني عنها في كلِّ

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٦٨، ٦٩).

حالةٍ من أحواله.

ثمَّ لمَّا كان العبد لا بدَّ أن يحصل منه تقصير في حقوق التَّقوىٰ وواجباتها؛ أمر ﷺ بما يدفع ذلك ويمحوه؛ وهو أن يتبع الحسنة السَّيِّئة.

«**والحسنة**»: اسم جامع لكلِّ ما يقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ، وأعظم الحسنات الدَّافعة للسَّيِّئات: التَّوبة النَّصوح، والاستغفار، والإنابة إلىٰ الله؛ بذكره وحبِّه، وخوفه ورجائه، والطَّمع فيه وفي فضله كلَّ وقتٍ، ومن ذلك الكفَّارات الماليَّة والبدنيَّة الَّتي حدَّدها الشَّارع.

ومن الحسنات الَّتي تدفع السَّيِّئات: العفو عن النَّاس، والإحسان إلىٰ الخلق من الآدميِّين وغيرهم، وتفريج الكربات، والتَّيسير علىٰ المعسرين، وإزالة الضَّرر والمشقَّة عن جميع العالمين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]».

❁ ❁ ❁

بمحاذرة أسباب الشر تدرك رحمة اللّه

قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فالمسلم لا يدرك الخير والرحمة إلا باتّباع أمر الله، ومخالفة هواه والشيطان، فالله يدعو إلىٰ دار السلام، ويهدي إلىٰ صراط مستقيم، والشيطان يدعو إلىٰ عذاب السعير؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا، ويستعين علىٰ الخروج عن العوايد بالهرب عن مظان الفتنة، والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «**ومن سمع بالدجال فلينأ عنه**»، فما استُعين علىٰ

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٩٩، ١٠٠).

التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وهاهنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق؛ وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير، ويدعوه إلىٰ تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله أعلم».

فما اصطاد الشيطان الصالحين بمثل شباك الطاعة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ [الصافات: ٢٧، ٢٨]، قال عكرمة: من حيث نأمنكم[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الشَّيطان بابه العجز والكسل؛ ولهذا استعاذ منهما النَّبيُّ ﷺ، وهما مفتاح كلِّ شرٍّ، ويصدر عنهما الهمُّ، والحَزَن والجُبْن، والبخل وضَلَعُ الدَّيْن، وغلبةُ الرِّجال، فمصدرها كلُّها عن العجز والكسل، وعنوانها «لو»؛ فلذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «فإنَّ [لو] تفتح عمل الشَّيطان»، فالمتمنِّي من أعجز النَّاس وأفلسهم؛ فإنَّ التَّمنِّي رأس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كلِّ شرٍّ.

وأصل المعاصي كلِّها العجز؛ فإنَّ العبد يعجز عن أسباب أعمال

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٣٩).

(٢) زاد المعاد (ص٢٩٧، ٢٩٨).

الطَّاعات، وعن الأسباب الَّتي تُبعده عن المعاصي، فجمع هذا الحديث الشَّريف في استعاذته ﷺ أصول الشَّرِّ وفروعه، ومباديه وغاياته، وموارده ومصادره، وهو مشتمل علىٰ ثماني خصالٍ، كُلُّ خصلتين منها قرينتان، فقال: «**أعُوذُ بك من الهمِّ والحَزَن**»، وهما قرينان؛ فإنَّ المكروه الوارد علىٰ القلب ينقسم باعتبار سببه إلىٰ قسمين؛ فإنَّه إمَّا أن يكون سببه أمرًا ماضيًا؛ فهو يُحدِث الحزن، وإمَّا أن يكون توقُّع أمرٍ مستقبلٍ، فهو يحدث الهمَّ، وكلاهما من العجز؛ فإنَّ ما مضىٰ لا يُدفع بالحزن؛ بل بالرِّضىٰ، والحمد والصَّبر والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدَّر الله وما شاء فعل.

وما يُستقبل لا يدفع أيضًا بالهمِّ؛ بل إمَّا أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه، وإمَّا أن لا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عُدَّته، ويتأهَّب له أهبته اللَّائقة به، ويستجنُّ بجُنَّةٍ حصينةٍ من التَّوحيد والتَّوكُّل، والانطراح بين يدي الرَّبِّ تعالىٰ، والاستسلام له، والرِّضىٰ به ربًّا في كلِّ شيءٍ، ولا يرضىٰ به ربًّا فيما يحبُّ دون ما يكره، فإذا كان هكذا، لم يرضَ به ربًّا علىٰ الإطلاق، فلا يرضاه الرَّبُّ له عبدًا علىٰ الإطلاق.

فالهمُّ والحَزَنُ لا ينفعان العبد البتَّة، بل مضرَّتهما أكثر من منفعتهما؛ فإنَّهما يُضعفان العزم، ويُوهنان القلبَ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ويقطعان عليه طريق السَّير، أو يُنكِّسانه إلىٰ وراءٍ، أو يعوقانه

ويقفانه، أو يحجبانه عن العَلَم الَّذي كلَّما رآه شمَّر إليه، وجدَّ في سيره، فهما حِمل ثقيل علىٰ ظهر السَّائر، بل إن عاقه الهمُّ والحزن عن شهواته وإراداته الَّتي تضرُّه في معاشه ومعاده؛ انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم؛ أن سلَّط هذين الجندين علىٰ القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبَّته، وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتَّوكُّل عليه، والأنس به، والفرار إليه، والانقطاع إليه؛ ليردَّها بما يبتليها به من الهموم والغموم، والأحزان والآلام القلبيَّة، عن كثيرٍ من معاصيها وشهواتها المُرْدية.

وهذه القلوب في سجنٍ من الجحيم في هذه الدَّار، وإن أُريد بها الخير، كان حظُّها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السِّجن حتَّىٰ تتخلَّص إلىٰ فضاء التَّوحيد، والإقبال علىٰ الله، والأنس به، وجعل محبَّته في محلِّ دبيب خواطر القلب ووساوسه؛ بحيث يكون ذِكره تعالىٰ وحُبُّه، وخوفه ورجاؤه، والفرح به، والابتهاج بذكره؛ هو المستولي علىٰ القلب، الغالب عليه؛ الَّذي متىٰ فقده فقدَ قُوتَه، الَّذي لا قوام له إلَّا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلىٰ خلاص القلب من هذه الآلام؛ الَّتي هي أعظم أمراضه، وأفسدها له؛ إلَّا بذلك، ولا بلاغَ إلَّا بالله وحده؛ فإنَّه لا يُوصل إليه إلَّا هو، ولا يأتي بالحسنات إلَّا هو، ولا يصرف السَّيِّئات إلَّا هو، ولا يُدلُّ عليه إلَّا هو، وإذا أراد عبده لأمرٍ هيَّأه له، فمنه الإيجاد، ومنه الإعدام، ومنه الإمداد».

نار الآخرة تُطفأ كنار الدنيا

نار الدنيا يُطفئها الماء، وأمرنا الله أن نطفئ نار الآخرة - إذا اقترفنا ما قد يُوقع فيها - بالماء والثلج والبرد؛ وذلك بالتوبة، والدعاء بالمغفرة، وفعل أنواع الحسنات التي تُذهب السيئات؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ كان يقول في دعاء استفتاح الصلاة: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّىٰ الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**».

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ذكر الثلج والبرد بعد الماء، المطلوب منهما: شمول أنواع الرحمة بعد المغفرة لإطفاء حرارة عذاب النار التي هي في

(١) عون الباري (١٠/ ٢٦٥).

غاية الحرارة؛ لأن عذاب النار يقابله الرحمة، فيكون التركيب من باب قوله: متقلدًا سيفًا ورمحًا؛ أي: اغسل خطاياي بالماء، أي: اغفرها، وزد علىٰ الغفران شمول الرحمة».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرىٰ**».

وهذه النار خرجت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين وستمائة؛ تصديقًا لما في هذا الحديث، قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تواتر العلم بخروج هذه النار.

قال القسطلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ظهرت ظهورًا اشترك فيه الخاص والعام، واشتدت حركتها، وعظمت رجفتها، وارتجت الأرض بمن عليها، وعجَّت الأصوات لبارئها تتوسل أن ينظر إليها[2]، ودامت حركة بعد حركة، حتىٰ أيقن أهل المدينة بالهلكة، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، فلما كان يوم الجمعة في نصف النهار، ثار في الجو دخان متراكم، أمره متفاقم، ثم شاع شعاع النار، وعلا حتىٰ غشي الأبصار، وحكىٰ لي جمع ممن حضر: أن النفوس سكرت

---

(١) جمل الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز، بواسطة عون الباري (١٠/ ١٥٤).

(٢) نظرًا يرفع عنهم البلاء

من حلول الوجل، وفنيت من ارتقاب تزلزل الأجل، وعج المجاورون في الجوار بالاستغفار، وعزموا علىٰ الإقلاع عن الإصرار، والتوبة عما اجترحوا من الأوزار، وفزعوا إلىٰ الصدقة بالأموال، فصُرفت عنهم النار ذات اليمين وذات الشمال».

والمسلم كما يهمُّه شأنه ويطفيء غضب الرب بموجبات الرحمة والمغفرة، كما جاء في الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه في دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك**»؛ فإنه لابدَّ أن يتأسىٰ بالنبي ﷺ الرؤوف الرحيم؛ حيث كان دائمًا مهتمًّا بأمر أمته ونجاتهم في الدنيا، وهذا معلوم من مقاماته التي لا تُحصىٰ في ذلك، وهو أشدُّ شفقة علىٰ أمته أحوج ما تكون أُمته لذلك يوم القيامة حيث يقول: «**أمتي! أمتي!**».

وقد تكلَّم بعض العلماء في معنىٰ حث النبي ﷺ علىٰ صيام الأيام البيض وسط الشهر، فذكر أن كسوف الشمس لا يقع إلا فيها، والطاعات تدفع الزلازل وسخط الرب[1]، وكان النبي ﷺ إذا وقع الكسوف صلَّىٰ وأمر بالصدقة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**والله! إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مَرَّة**».

---

(١) عون الباري (٥/ ١٧٦).

قال العلامة صدِّيق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: أفعل ذلك الاستغفار؛ إظهارًا للعبودية، وافتقارًا لكرم الربوبية، أو تعليمًا منه لأمته، أو من ترك الأولىٰ، أو قاله تواضعًا، أو أنه ﷺ لما كان دائم الترقي في معارج القرب، كان كلما ارتقىٰ درجة، ورأىٰ ما قبلها دونها؛ استغفر منها».

❁ ❁ ❁

(١) عون الباري بحل أدلة البخاري (١٠/ ٢٣٢).

عند اللّه الرحمة والسعة وعند البعض الضيق والمشقة

عن سلمة بن صخر البياضيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كنت امرأً أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلما دخل شهر رمضان، خِفْت أن أصيب من امرأتي شيئًا يتتابع بي حتىٰ أُصبح، فظاهرت منها حتىٰ ينسلخ شهر رمضان، فبينا هي تخدمني ذات ليلة؛ إذ تكشَّف لي منها شيء، فلم ألبث أن نزوت عليها، فلما أصبحت، خرجت إلىٰ قومي فأخبرتهم الخبر.

قال: فقلت: امشوا معي إلىٰ رسول الله ﷺ. قالوا: لا، والله.

فانطلقت إلىٰ النبي ﷺ فأخبرته.

فقال: «**أنت بذاك يا سلمة؟**».

قلت: أنا بذاك يا رسول الله - مرتين -، وأنا صابر لأمر الله، فاحكم فيَّ ما أراك الله!

قال: «**حرِّر رقبة**».

قلت: والذي بعثك بالحق، ما أملك رقبة غيرها. وضربتُ صفحة رقبتي!

قال: «**فصم شهرين متتابعين**».

قال: وهل أصبت ما أصبت إلَّا من الصيام؟!

قال: «**فأطعم وسقًا من تمر بين ستين مسكينًا**».

قال: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا وحْشَيْن، ما لنا طعام.

قال: «**فانطلق إلىٰ صاحب صدقة بني زُرَيْقٍ، فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكينًا وسْقًا من تمر، وكلْ أنت وعيالك بقيتها**».

فرجعت إلىٰ قومي، فقلت: وجدت عنكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند النبي ﷺ السَّعَة وحسن الرأي، وقد أمرني - أو أمر لي - بصدقتكم. رواه أبو داود، والترمذي وقال: هذا حديث حسن.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ عن النبي ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعةً وتسعين إنسانًا، ثم خرج يسأل، فأتىٰ راهبًا، فسأله: قال له: هل من توبة؟ قال: لا. فقتله.**

فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا. فأدركه الموت، فَنَاءَ بصدره نحوها.

فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحىٰ الله إلىٰ هذه: أن تقرَّبي، وأوحىٰ الله إلىٰ هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوُجد إلىٰ هذه أقرب بشبر، فغُفر له».

❁ ❁ ❁

إبليس يكره الرحمة لعباد اللّه

إبليس أبلس من رحمة الله؛ فلذلك هو أشد الخلق غيظًا وحسدًا لرحمة الله لعباده المؤمنين.

وإبليس لمَّا أبلس من رحمة الله كره لخلق الله وعباده أن تدركهم رحمته، وهو مع هذا يعلم أن رحمة الله تُدرك عباده المؤمنين؛ لقيامهم بالأسباب الموجبة لذلك؛ التي قطع إبليس نفسه عنها.

ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم آية سجدة فسجد، بكىٰ الشيطان، وقال: أُمر ابن آدم بالسجود فسجد؛ فالجنة له، وأُمرت بالسجود، فلم أسجد؛ فالنار مثوًىٰ لي**».

ولذلك قال النبي ﷺ: «**ما رُئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وذلك مما يرىٰ من تنزُّل الرحمة، والعفو عن الذنوب**».

أما المؤمنون فيرعون حق إخوانهم المؤمنين، ومن جملة ذلك: الاستغفار لهم، وهو من النصيحة لهم، وهو تحقيق للإيمان؛ فإن أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله والبغض في الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد: ١٩].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك؛ بأن تفعل أسباب المغفرة؛ من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب، والعفو عن الجرائم.

﴿وَ﴾ استغفر أيضًا ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق علىٰ كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم: أن يدعو لهم، ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم، ويحرص علىٰ اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق؛ الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٣٧).

وأشبه الخلق بطباع الشيطان في كراهية العفو والغفران لأهل الإيمان؛ هم الخوارج والرافضة، قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الخوارج لا يستغفرون للناس».

والرافضة كذلك عوضًا عن الاستغفار للصحابة خير الخلق بعد النبيين سبُّوهم؛ قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أمروا بالاستغفار لهم، فسبوهم!»، رواه مسلم.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المعنىٰ المقتضي لذلك يَعمُّ الصحابة وسائر طبقات الأمة؛ إذ كُلُّ طبقة متأخِّرة ينبغي أن تستعمل مع الطبقة المتقدمة معنىٰ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

فالمؤمن يجمع بين القيام بحق الله؛ بمعرفة دينه والعمل به، وحقوق المؤمنين متقدميهم ومتأخِّريهم؛ بالاستغفار وسلامة القلوب».

---

(١) رواه الطحاوي، بواسطة إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة (١٨/ ٤٢٠).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٦١)، باختصار

تُدرَك الرحمة
بلزوم دين الصحابة

الصحابة تلقوا الدين عن النبي ﷺ، وهم الجماعة التي يجب علينا لزوم دينهم واعتقادهم؛ فإن النبي ﷺ أخبر بافتراق الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، وأخبر أن كلها في النار إلا واحدة، وقال في صفة الفرقة الناجية المرحومة: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

وتوعّد الله بالعذاب من فارق دين الإسلام الذي أداه إلينا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

قال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والأساس الذي تُبنىٰ عليه الجماعة، وهم أصحاب محمد ﷺ، ورحمهم أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة؛ فمن لم يأخذ عنهم؛ فقد ضلَّ وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار».

---

(١) شرح السنة (ص٦٥- رقم ٣).

ولزوم دين الصحابة تحصل به الجماعة؛ لأنها تأتلف علىٰ شرع واحد، وهو حبل الله، والعدول عن دينهم الذي تلقوه عن النبي ﷺ يوقع في الاختلاف والفرقة والعداوة والشحناء والبغضاء.

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال وكيع: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل قال: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن هذا الصراط محتضر؛ تحضره الشياطين.

يا عبد الله! هذا الطريق، هلُمَّ إلىٰ الطريق، فاعتصموا بحبل الله؛ فإنَّ حبل الله القرآن[1].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن التَّفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرُّق والأمر بالاجتماع والائتلاف؛ كما في صحيح مسلم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا؛ يرضىٰ لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تُناصحوا من ولاه الله**

---

(١) إسناد كوفي صحيح، تفسير القرآن العظيم القرآن العظيم (١/ ٥٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤٤).

أمركم؛ ويسخط لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وقد ضُمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق، والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة؛ فافترقوا علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلىٰ الجنة ومُسَلَّمة من عذاب النار، وهم الذين علىٰ ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه».

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن النبي ﷺ قال: «**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**»، رواه أحمد، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «كما أنه لم يكن في القرون أكمل من قرن الصحابة، فليس في الطوائف بعدهم أكمل من أتباعهم، فكل من كان للحديث والسُّنَّة وآثار الصحابة أتبع؛ كان أكمل، وكانت تلك الطائفة أولىٰ بالاجتماع، والهدىٰ، والاعتصام بحبل الله، وأبعد عن التفرق والاختلاف والفتنة، وكل من بعد عن ذلك؛ كان أبعد عن الرحمة، وأدخل في الفتنة.

فليس الضلال والغي في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في الرافضة، كما أن الهدىٰ والرشاد والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث والسُّنَّة المحضة، الذين لا ينتصرون إلا لرسول الله ﷺ،

(١) منهاج السنة (٦/ ٣٦٨).

فإنهم خاصته، وهو إمامهم المطلق الذي لا يغضبون لقول غيره إلا إذا اتَّبع قوله، ومقصودهم نصر الله ورسوله ﷺ».

ومن أعظم الخِذْلان - وهو دليل الشقاء - التعرض لجناب خير الخلق بعد النبيين بالسب والثلب؛ فما كان ولا يكون مثل الصحابة ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمَّا تلويث اللسان بالطعن علىٰ الصحابة، أو بما يُشبه الطعن؛ ليس من علامة السعادة، بل نقطع أنه ابتداع وضلالة وخذلان من الله تعالىٰ لعبده؛ فإن الله تعالىٰ إذا خذل عبدًا من عبيده سهَّل له الطريق إلىٰ مثل هذه الظلمات، وأوقعه في هذه الورطات، وألقاه في مثل هذه المهالك والمتالف، وعلىٰ مَنْ يشفق علىٰ دينه أن يحترز عن هذا وأشباهه.

وقد قال ﷺ: «**لا تذكروا أحدًا من أصحابي إلا بخير، فلو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبًا لم يدرك مدَّ أحدهم ولا نصفه**»، يعني: أجر ما أنفق من مدٍّ أو نصف مدٍّ».

---

(١) الاصطلام في الخلاف (٣/ ١٢٧).

رحمة اللّه بخلقه
بإمدادهم بعُدة جهاد عدوهم

خلق الله الخلق، واقتضت حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ امتحانهم في الدنيا بدلالتهم إلىٰ طريق الجنة صراط الله المستقيم، ومن لزم هذا الصراط كان ثوابه الجنة، وهذا هو الفوز العظيم؛ قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكان من لازِمِ الاختبار، والتكليف في الدنيا: تسليط الله عَزَّوَجَلَّ الشياطين علىٰ الخلق، الذين يصدون خلق الله عن صراطه المستقيم؛ بما يصرفونهم به من الشهوات والشبهات، ومع هذا فقد أمدَّ الله عباده بالعُدَّة التي توجب لهم غلبة الشياطين، والسير إلىٰ الله بموجبات رضاه، والفوز بجنته ولقاه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الآدمي، واختاره من بين سائر البريَّة، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان، والتوحيد، والإخلاص،

(١) الوابل الصيِّب ورافع الكلم الطيِّب (ص٣١، ٣٤).

والمحبة، والحياء، والتعظيم، والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلىٰ وجهه، والفوز برضوانه، ومجاورته في جنته.

وكان مع ذلك قد ابتلاه: بالشهوة، والغضب، والغفلة، وابتلاه بعدوُّه إبليس لا يَفْتُر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسه معه؛ لأنه يدخل عليها بما تحب، فيتفق هو ونفسه وهواه علىٰ العبد؛ ثلاثة مُسَلَّطون آمرون، فيبعثون الجوارح في قضاء وَطَرِهِم، والجوارح آلة منقادة، فلا يمكنها إلا الانبعاث، فهذا شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح؛ فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا، وأين يَمَّموا.

هذا مقتضىٰ حال العبد.

فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجُند آخر، وأمدَّه بمَدَدٍ آخر؛ يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل عليه كتابه، وأيَّده بمَلَكٍ كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمره، أمره المَلَك بأمر ربه، وبيَّن له ما في طاعة العدو من الهلاك.

فهذا يُلِمُّ به مرة، وهذا مرة، والمنصور من نصره الله عَزَّوَجَلَّ، والمحفوظ من حفظه الله تعالىٰ.

وجعل له مقابل نفسه الأمَّارة نفسًا مطمئنة، إذا أمرته النفس الأمَّارة بالسوء

نَهَتْهُ عَنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمَّارة عن الخير أمرته النفس المطمئنة.

فهو يطيع هذه مرة، وهذه مرة، وهو للغالب عليه منهما، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهرًا لا تقوم معه أبدًا.

وجعل له مقابل الهوىٰ الحامل علىٰ طاعة الشيطان والنفس الأمَّارة؛ نورًا، وبصيرة، وعقلًا يرده عن الذهاب مع الهوىٰ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوىٰ ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذر الحذر! فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامِيَّة، وقُطَّاع الطريق، إن سرْت خلف هذا الدليل.

فهو يطيع الناصح مرة فيبن له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوىٰ مرة فيُقطع عليه الطريق، ويُؤخذُ ماله ويُسلب ثيابه، فيقول: تُرىٰ من أين أُتيت؟!

والعجب أنه يعلم من أين أُتي، ويعرف الطريق التي قُطعت عليه وأُخِذ فيها، ويأبىٰ إلا سلوكها؛ لأن دليلها قد تمكَّن منه وتحكَّم فيه، وقوي عليه!

ولو أضعفه بالمخالفة له، وزجْرِه إذا دعاه، ومحاربته إذا أراد أخذه؛ لم يتمكَّنْ منه، ولكنْ هو مكَّنَهُ من نفسه، وهو أعطاه يده، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه، فيأسره ثم يسومه سوء العذاب، فهو يستغيث فلا يُغاث، فهكذا يستأسر للشيطان والهوىٰ، ولنفسه الأمارة، ثم يطلب الخلاص، فيعجز عنه.

فلما أن بُلي العبد بما بُلي به أُعين بالعساكر والعُدَدِ والحصون، وقيل

له: قاتل عدوك وجاهده، فهذه الجنود خُذ منها ما شئت، وهذه العُدَدُ الْبَسْ منها ما شئت، وهذه الحصون تحصَّنْ منها بأي حصن شئت، ورابط إلىٰ الموت؛ فالأمر قريب، ومدة المرابطة يسيرة جدًّا، فكأنك بالملِك الأعظم وقد أرسل إليك رسله، فنقلوك إلىٰ داره، واسترحت من هذا الجهاد، وفُرِّقَ بينك وبين عدوك، وأُطْلِقْتَ في دار الكرامة تتقلَّب فيها كيف شئت، وسُجن عدوك في أصعب الحُبوس، وأنت تراه.

فالسجن الذي كان يريد أن يُودِعَك فيه قد أُدْخِلَه وأُغلقت عليه أبوابه، وأيس من الخروج والفرج، وأنت فيما اشتهت نفسك، وقَرَّت عينك؛ جزاءً علىٰ صبرك في تلك المدة اليسيرة، ولزومك الثغر للرِّباط، وما كانت إلا ساعة ثم انقَضَتْ، وكأنَّ الشدة لم تكن».

وإذا أردت أن تعرف أن الله أمدَّ أولياءه بالعدَّة التي إذا تترسوا بها وجاهدوا بها الشيطان ظفروا به وهزموه، ولم يكن له عليهم سبيل؛ فاقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ

عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لما أخبر عمَّا يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يُعْتَصَمُ به من فتنته؛ وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل؛ فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ﴾ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ لمن توكل عليه، وأدىٰ ما أُمر به».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٨٦).

رحمة اللّه بما قضاه من معارضة الباطل للحق

قال تعالىٰ: ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ليقوم سوق الجهاد، وتتبيَّن بذلك أحوال العباد؛ الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانًا صحيحًا عن تبصرة لا إيمانًا مبنيًّا علىٰ متابعة أهل الغلبة، فإنَّه إيمان ضعيف جدًّا، لا يكاد يستمرُّ لصاحبه عند المحن والبلايا».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، **وقال تعالىٰ:** ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالىٰ في شأن ثبات أوليائه علىٰ الحق؛ رغم أذىٰ أهل الباطل:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٦٥٤).

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن ما يصيب المؤمنين في الله تعالىٰ مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعوَّلهم علىٰ الصبر والاحتساب، وذلك يخفِّف عنهم ثقل البلاء ومؤنته؛ فإنهم كلما شاهدوا العِوَض؛ هان عليهم تَحَمُّل المشاقِّ والبلاء، والكفار لا رضًا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبَّه تعالىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [النساء: ١٠٤].

فاشتركوا في الألم، وامتازَ المؤمنون برجاء الأجر والزُّلْفَىٰ من الله تعالىٰ.

إن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه، ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتىٰ يُحْمَلَ عنه من الأذىٰ ما لو كان شيء منه علىٰ غيره؛ لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن؛ فإنه يدفع عنه كثيرًا من البلاء، وإذا كان لابدَّ له من شيء منه؛ دفع عنه ثقله ومَؤُنته ومشقَّته وتبعته».

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٢٠).

كُرَبُ الدنيا حسنات ومكفرات ورفعة درجات

الدنيا لا تصفو لأحد خالية من الكدر، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ولكن من رحمة الله أن ما يصيب عباده المؤمنين من كدر الدنيا وتغيُّر أحوالها من السراء والضراء، وما يصيب المسلمين فيها من المصائب والأمراض والملمَّات والشدائد؛ لا يذهب هدرًا مع الاحتساب؛ فإنه سبب لتكفير السيئات وزيادة الحسنات.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، ما علىٰ الأرض مسلم يصيبه أذًىٰ من مرض فما سواه؛ إلا حطَّ الله عنه به خطاياه، كما تحط الشجرة ورقها**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصَّادقون تعبوا في العاجلة بعض التَّعب؛ فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كُلَّ الفلاح، وعلىٰ هذا قامت الدُّنيا

(١) زاد المعاد (ص٥٤٠).

والآخرة؛ فمرارات المبادي حلاوات في العواقب».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ سمعا رسول الله ﷺ يقول: «**ما يصيب المؤمن، من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتىٰ الهمُّ يهمُّه؛ إلا كفِّر به من سيئاته**».

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه: إعلام النبي ﷺ أمَّته أن نَصَبَها ووَصَبَها وسقمها وحزنها وهمَّها؛ يُكفِّر الله به من خطاياها؛ وذلك لأنه لما كانت الدنيا عند الله ليست رضًىٰ منه لعباده المؤمنين مقرًا لهم دائمًا، وكانت حكمته أن يخرجهم عن هذا المقر الأدنىٰ إلىٰ مقر أعلىٰ؛ فأحل بهم سبحانه من المزعجات ما ينفرهم عنه ويزعجهم منه، وكان من لطفه بهم أن لا يعرض لهم الألم إلا بثواب وثمن؛ هو تكفير السيئات عنهم، فجمع لهم بين تكفير الخطايا، والإزعاج عن هذا المقر الأدنىٰ، والارتياح للخروج منه إلىٰ دار المقامة».

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم العِدْلان ونِعمَتِ العلاوة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ فهذان العِدْلان، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العِدْلينَ، وهي زيادة في الحمل؛ فكذلك هؤلاء أُعطوا ثوابهم، وزيدوا أيضًا[1].

وفي «صحيح مسلم» من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن؛ إن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له**».

والصبر علىٰ أقدار الله هو من عزم الأمور؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القدر قد أجرىٰ الأمور[3] علىٰ اختيار، ولم تكن تحسن أنت أن تتمناه، ثم أنه تداركك بعد ذلك بأن قال: إن خطرت منك زلة أو هفوة فمن ورائك التدارك لك بتوبة وكلمة وإنابة ورجعة وأوبة؛ فإنه سبق مني القول بأني أحب التوابين؛ فكان ما أتيته من ذلك ثم تداركتك بتوفيقي إياك للتوبة، فألحقتك بمن وعدت أني أحبه؛

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٣٧٩).

(٣) المقدِّر هو الله.

فما هذه الغوغاء علىٰ الأقدار!».

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا؛ سمعت النبي ﷺ قال: «**الحُمَّىٰ حظُّ كل مؤمن من النار**»(١).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «إن حرارة الحمىٰ في الدنيا تكفِّر ذنوب المؤمن، ويطهر بها؛ حتىٰ يلقىٰ الله بغير ذنب، فيلقاه طاهرًا مطهرًا من الخبث؛ فيصلح لمجاورته في دار كرامته، ولا يحتاج إلىٰ تطهير في كير جهنم غدًا؛ حيث لم يكن فيه خبث يحتاج إلىٰ تطهير، هذا من حق المؤمن الذي حقق الإيمان، ولم يكن له ذنوب إلا ما تكفِّره الحمىٰ وتطهره».

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا؛ أن النبي ﷺ دخل علىٰ أم السائب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا فقال: «**مالك تُزَفْزِفِين** - أي: ترتعدين -؟!». قالت: الحمىٰ، لا بارك الله فيها. قال: «**لا تسبي الحمىٰ؛ فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير الخبث**».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ: «وفي مناسبة تكفيرها الذنوب كلها: أن الحمىٰ يأخذ منها كل أعضاء البدن ومفاصله؛ قسطه من الألم

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وهو مروي من حديث أبي أمامة، وأبي ريحانة، وأنس، وعثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وصححه العقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٤٤٨).

(٢) جامع رسائل ابن رجب (٢/ ٣٧٤).

والضعف؛ فيكفر ذلك البدن كله».

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حمَّىٰ ليلة؛ كفارة سنة»، رواه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أن الله يربِّي عبده علىٰ السَّرَّاء والضَّرَّاء والنعمة والبلاء؛ فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال؛ فإنَّ العبد علىٰ الحقيقة من قام بعبودية الله علىٰ اختلاف الأحوال.

وأمّا عبد السرَّاء والعافية، الذي يعبد الله علىٰ حرف، فإن أصابه خير اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب علىٰ وجهه؛ فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته.

فلا ريب أنَّ الإيمان الذي يثبت علىٰ محكِّ الابتلاء والعافية؛ هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأمَّا إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبدَ ويبلِّغه منازل المؤمنين، وإنَّما يصحبه إيمانٌ يثبت علىٰ البلاء والعافية.

فالابتلاء كيرُ العبد ومحكُّ إيمانه: فإمَّا أن يخرج تبرًا أحمر، وإمَّا أن يخرج زغلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادَّتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاءُ حتىٰ يخرج المادَّة النحاسية من ذهبه، ويبقىٰ ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبد أنَّ نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمته عليه في

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٠٣، ٦٠٤).

العافية؛ لشغلَ قلبَه بشكره، ولسانه بقوله: «**اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وكيف لا يشكر من قيَّض له ما يستخرج خَبَثه ونحاسه، ويُصيِّره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟!».

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يخبر تعالىٰ عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أنَّ كل من قال: «إنه مؤمن» وادَّعىٰ لنفسه الإيمان؛ أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميَّز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنَّته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة؛ أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنىٰ والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن؛ التي ترجع كلها إلىٰ فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٣).

الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلىٰ المعاصي والذنوب، أو الصارفة عمَّا أمر الله به ورسوله؛ يعمل بمقتضىٰ الإيمان، ويجاهد شهوته؛ دلَّ ذلك علىٰ صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًّا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلىٰ المعاصي، أو تصدفه عن الواجبات؛ دلَّ ذلك علىٰ عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها».

وكون المصائب كفارات للذنوب؛ ليس معناه أن المسلم يستدعي المصائب والبلايا لنفسه طلبًا للتخفف من ذنوبه؛ فساحة العافية أوسع من ساحة الصبر.

قال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لأن أعافىٰ فأشكر أحب إليَّ من أن أبتلىٰ فأصبر».

---

(١) عِدَة الصابرين (ص١٩٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الثواب علىٰ المصائب التي يُبتلىٰ العبدُ بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما.

وأمَّا أن يكون عبادةً مأمورًا بتحصيلها وطلبها؛ فلا.

ففرْق بين ما يُثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليَّات».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «زوال أثرها - الذنوب - بالتوبة النصوح أعظمُ من زوال أثرها بالعقوبة، فإذا بدِّلت بعد زوالها بالعقوبة حسنات، فلأن تُبَدَّل بعد زوالها بالتوبة حسنات أولىٰ وأحرىٰ.

وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل أقوىٰ من تأْثير العقوبة؛ لأن التوبة فعل اختياري أَتىٰ به العبدُ طوعًا ومحَبَّةً لله وفرَقًا منه.

وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره، بل بفعل الله، ولا ريب أن تأْثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب أعظم من تأْثير المصائب التي تناله بغير اختياره».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ ما يصيب المؤمن في هذه الدار - من إدالة عدوِّه عليه، وغلبته له، وأذاه في بعض الأحيان - أمر لازم، لا بدَّ منه، وهو

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٢/ ٦٠٧، ٦٠٨).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٥٤٥).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٢٢).

كالحَرِّ الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتىٰ للأطفال والبهائم؛ لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين.

فلو تجرَّد الخير في هذا العالم عن الشرِّ، والنفع عن الضرِّ، واللَّذة عن الألم؛ لكان ذلك عالمًا غير هذا، ونشأة أخرىٰ غير هذه النشأة، ولكانت تفوتُ الحكمة التي مُزج لأجلها بين الخير والشرِّ، والألم واللذة، والنافع والضار.

وإنما يكون تخليص هذا من هذا، وتمييزه في دارٍ أخرىٰ غير هذه الدار، كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أن الله سبحانه يحب أن يُسأل العافية، وما يُسأل شيئًا أحب إليه من العافية، كما في المسند، عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قام أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ المنبر، ثم قال: «سلوا الله العافية؛ فإنه لم يعطَ عبد بعد اليقين خيرًا من العافية».

وفي حديث آخر: «إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئًا أفضل من العفو والعافية، فسلوهما الله عَزَّوَجَلَّ».

---

(١) عِدَة الصابرين (ص٢١٩ - ٢٢١).

وقال لعمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا عم! أكثر من الدعاء بالعافية**».

وفي الترمذي: قلت: يا رسول الله؛ علمني شيئًا أسأله الله. **قال**: «**سل الله العافية**»، فمكثت أيامًا ثم جئت فقلت: علمني شيئًا أسأله الله. فقال لي: «**يا عباس، يا عم رسول الله** ﷺ، **سل الله العافية في الدنيا والآخرة**».

وقال في دعائه يوم الطائف: «**إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي**»، فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**».

وفي حديث آخر: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة**»، وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضىٰ، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها، وكان عبد الأعلىٰ التيمي يقول: «أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المبتلىٰ - وإن اشتد بلاؤه - ليس بأحق بالدعاء من المعافىٰ، الذي لا يأمن من البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلىٰ خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رُبَّ بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزىٰ في الآخرة، فما يأمن من أطال المقام علىٰ معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة». ثم يقول بعد ذلك: «الحمد لله الذي إن نعد نعمه لا نحصيها، وإن ندأب له عملًا لا نجزيها، وإن نُعمَّر فيها لا نبليها»».

التعرض لرحمة اللّه

قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «معناه: قضاها وأنفذها، وفي هذا المعنىٰ أحاديث عن النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة، ولجميع الناس في الدنيا؛ منها «أن الله تعالىٰ خلق مائة رحمة، فوضع منها واحدة في الأرض فيها تتعاطف البهائم، وترفع الفرس رجلها لئلا تطأ ولدها، وبها تتعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة صيَّر تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثها في عباده».

قال القاضي أبو محمد: فما أشقىٰ من لم تسعه هذه الرحمات! تغمدنا الله بفضل منه.

ومنها حديث آخر: «أن الله عَزَّوَجَلَّ كتب عنده كتابًا فهو عنده فوق العرش:

---

(١) المحرر الوجيز (٦/ ١٢، ١٣).

أن رحمتي سبقت غضبي»، ويروىٰ: «**نالت غضبي**»، ومعناه: سبقت. وأنشد عليه ثابت بن قاسم:

أبنـــي كليـــب إنَّ عمّـــيّ اللّـــذا نـــالا الملـــوك وفككـــا الأغـــلالا

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالىٰ بأنه كتب الرحمة: تأنيس الكفار، ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا، وأن باب توبتهم مفتوح».

فالسعيد من اغتنم الأوقات والأزمنة والأمكنة الفاضلة، وتعرض لرحمة الله بما شرعه فيها من موجبات رحمته وعزائم مغفرته، وبعض الأزمنة والأمكنة اختصها الله بمزيد فضله ورحمته، وضاعف فيها الحسنات ويسّر فيها أسباب العفو والمغفرة.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كما يقوىٰ الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوىٰ الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جَلَّجَلَالُهُ في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم، وتساعدت القلوب، وعظم الجمْع؛ كجمع عرفة وجمْع الاستسقاء وجمْع الجمعة؛ فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالىٰ مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلىٰ مسبباتها، بل هذه الأسباب

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٩٨).

في حصول الرحمة أقوىٰ من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها».

والمؤمن متىٰ ما أراد الرجاء لرحمة الله؛ فإن باب الرحمة لا يُغلق أبدًا دون العباد، فالناس في أقطار الدنيا يسألون الله حاجاتهم ومغفرة ذنوبهم، والله لا تشغله حاجات المخلوقين عن إجابة المضطرين والمتعرضين لرحمته في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، والله جعل لعباده وظائف من فرائضه في اليوم والليلة مضمّنة أدعية هي من أسباب هدايتهم ورحمة الله بهم؛ خصوصًا الصلوات الخمس، فيقرأ المسلم في كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وكل هذا من رحمة الله بخلقه، وتذكيرًا لهم ببذل أسباب إدراك رحمة الله.

❁ ❁ ❁

رحمة اللّه بكشف الضر عن عباده

من أعظم رحمات الله كشفه الضر عن عباده؛ قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

ومن أعظم الكربات التي يكشفها الله عن عباده؛ كربة الذنوب وآثارها، فيحفظ لعباده وأوليائه دينهم ويردَّهم إليه ردًّا جميلًا، بعد أن شردوا، فيجبر نقصهم، ويغفر زلتهم، ويكشف كربتهم؛ فيكونوا أكمل من قبل وقوعهم بالذنب إذا جدَّدوا إيمانهم، وأخلصوا توبتهم إلىٰ الله، وتضرعوا واستكانوا إليه، وحده لا شريك له.

ومن رحمة الله أن يكشف عن عباده أنواعًا من كرب الدنيا؛ من مرض أو نقص رزق، أو تسلط عدو، ونحوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمَّا آدم ﷺ فإنه اعترف أولًا

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٣٨٠، ٣٨١).

بذنبه، فقال: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به، مما يزاحم الإلهية، بل ظن صدق الشيطان الذي ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١، ٢٢]، فالشيطان غرَّهما وأظهر نصحهما، فكانا في قبول غروره، وما أظهر من نصحه؛ حالهما مناسبًا لقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ لما حصل من التفريط، لا لأجل هوًىٰ وحظ يزاحم الإلهية، وكانا محتاجين إلىٰ أن يربهما ربوبية تكمل علمهما وقصدهما، حتىٰ لا يغترا بمثل ذلك، فهما يشهدان حاجتهما إلىٰ الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره.

وذو النون شهد ما حصل من التقصير في حق الإلهية، بما حصل من المغاضبة، وكراهة إنجاء أولئك؛ ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب شيء آخر؛ ما يوجب تجريد محبته لله، وتألهه له أن يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ فإن قول العبد: لا إله إلا أنت. يمحو أن يتخذ إلهه هواه، وقد روىٰ: «**ما تحت أديم السماء إله يُعبد أعظم عند الله من هوًىٰ متبع**». فكمل يونس - صلوات الله عليه - تحقيق إلهيته لله، ومحو الهوىٰ الذي يتخذ إلهًا من دونه، فلم يبقَ له - صلوات الله عليه وسلامه - عند تحقيق قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ إرادة تزاحم إلهية الحق، بل كان مخلصًا لله الدين؛ إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة؛ فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة يسأل بصيغة الخبر؛ إمَّا بوصف حاله، وإمَّا بوصف حال المسؤول، وإمَّا بوصف الحالين؛ كقول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهذا ليس صيغة طلب، وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه؛ خسر.

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ هو من هذا الباب، ومن ذلك قول موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]؛ فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلىٰ ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه».

وقال أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره، وهي صيغة خبر تضمنت السؤال، وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء».

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٣٨١).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٣٨٢).

ويونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تحدَّث عن حاله، وناجىٰ ربه بذلك، وهو أعلم بحاله؛ قاصدًا بذلك رفع ما نزل به من الضر بسبب ذنبه، ولم يُعيِّن صيغة في سؤاله؛ استشعارًا لإساءته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يبقىٰ أن يقال: فصاحب الحوت ومن أشبهه؛ لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟

فيقال: لأن المقام مقام اعتراف بأن ما أصابني من الشرِّ كان بذنبي؛ فأصل الشر هو الذنب، والمقصود دفع الضر، والاستغفار جاء بالقصد الثاني، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسيء ظالم. وهو الذي أدخل الضرَّ علىٰ نفسه؛ فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة؛ لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني، بخلاف كشف الكرب؛ فإنه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول؛ إذ النفس بطبعها تطلب ما هي محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال، قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني، والمقصود الأول في هذا المقام: هو المغفرة، وطلب كشف الضر، فهذا مقدَّم في قصده وإرادته، وأبلغ ما ينال به رفع سببه، فجاء بما يُحصِّل مقصوده».

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٣٨٣).

أمة مرحومة

من صفات هذه الأمة المرحومة: التراحم بينهم، والرحمة لأهل الرحمة، والشدَّة للأشقياء الكافرين برحمة الله.

قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وهو ﷺ نبيُّ الرحمة، ونبي الملحمة، وأمَّته أشداء علىٰ الكفار، رحماء بينهم، أذلَّة علىٰ المؤمنين أعزَّة علىٰ الكافرين، بخلاف الأذلَّاء المقهورين المستكبرين، الذي يذلون لأعداء الله ويتكبَّرون عن قَبُول الحقِّ».

أُمّة الإسلام أُمَّة مرحومة، علَّمها نبيها ﷺ الرحمة والتواضع للضعفاء

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص١٦٥).

والمساكين وذوي الاحتياجات؛ قال ابن القيم - أيضًا - رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن من تأمل سيرته وجده أعظم الناس تواضعًا للصغير والكبير والمسكين والأرملة والحر والعبد؛ يجلس معهم علىٰ التراب، ويُجيب دعوتهم، ويسمع كلامهم، وينطلق مع أحدهم في حاجته، ويأخذ له حقَّه ممن لا يستطيع أن يطالبه به».

أُمَّة مرحومة، يوصيها ربها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسولها ﷺ بحقوق الضعفاء؛ حتىٰ لا يشقىٰ قوي بظلمهم وأذيتهم والعدوان عليهم لضعفهم، قال رسول الله ﷺ: «**أُحرِّج عليكم حق الضعيفين: المرأة واليتيم**»، رواه النسائي في «السنن الكبرىٰ».

ومن رحمة الله بأمة الإسلام أنه جعل ما يصيبها في الدنيا من مصائب ونكبات كفارات، وسببًا للوقاية والنجاة من عذاب الآخرة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن من رحمة الله تعالىٰ بهذه الأمة المحمدية؛ أنه عجَّل لهم عقوباتهم في الدنيا؛ ففي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا: الفتن والزلازل والقتل**»، أخرجه أبو داود بسند حسن.

---

(١) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص١٨١).

(٢) بذل الماعون في فضل الطاعون (ص٢١٣، ٢١٤).

وأخرجه الطبراني من رواية سليمان بن داود الخولاني؛ قال: سمعت عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لأبي بردة: حدِّثنا بحديث ليس بينك وبين أبيك فيه أحد. قال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أمَّتي أمَّة مقدسة مباركة مرحومة، لا عذاب عليها يوم القيامة؛ إنما عذابهم بينهم في الدنيا**»، ورجاله ثقات.

وأخرج أبو يعلىٰ من رواية حميد بن هلال، عن أبي بُردة، عن رجل من المهاجرين قال: قال رسول الله ﷺ: «**عقوبة هذه الأمة بالسيف**»، ورجاله ثقات.

وأخرج أبو يعلىٰ أيضًا بسند صحيح من رواية أبي مالك الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «إن هذه الأمة أمة مرحومة، لا عذاب عليها، إلا ما عذَّبت به أنفسها».

قلت: وكيف تعذِّب أنفسها؟! قال: أما كان يوم النهر عذاب؟ أما كان يوم الجمل عذاب؟ أما كان يوم صِفِّين عذاب؟!

قلت: وهذا معنىٰ حديث أبي موسىٰ: «**عذابها في الدنيا الفتن، والزلازل، والقتل**»، فهو شاهد قوي له، ومثله لا يقال بالرأي، وهو محمول علىٰ معظم الأمة المحمدية؛ لثبوت أحاديث الشفاعة؛ أن قومًا: «**يُعذبون، ثم يخرجون من النار، ويدخلون الجنة**»».

أمُّة محمد ﷺ أُمَّة الإسلام أمَّةٌ مرحومة، واليهود أمَّةٌ ملعونة مغضوب عليها، والنصارىٰ أمَّة ضالة.

قال تعالىٰ في فرق ما بين أُمّة الرحمة والهداية، والأمَّة المغضوب عليها والضالة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وقال النبي ﷺ: «**النصارىٰ ضالون، واليهود مغضوب عليهم**».

وإن أردت أن تعرف فرق ما بين الأمة المرحومة، والمغضوب عليها؛ فالأمَّة المرحومة أُمَّة الإسلام أُنزل علىٰ نبيها ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقرأها الصحابة، وذلت لها قلوبهم وألسنتهم، فعلم الله ما في قلوبهم؛ فخفَّف عنهم؛ فنسخها الله، وأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٨٦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

واليهود أرسل الله إليهم الرسل يبشرونهم بالرحمة المهداة خاتم النبيين

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد ذكر الله لهم نعوته في التوراة واضحة جليَّة، وكانوا يخبرون العرب في المدينة به، وبنعته قبل بعثته، فلما أظهره الله وكان من العرب، من غير جنسهم اليهودي؛ كفروا به؛ كبرًا وعنادًا وحسدًا؛ فتضاعف غضب الله عليهم فوق ما كانوا فيه من الغضب لقتلهم أنبياء الله من قبل من بني إسرائيل، وكفرهم وعنادهم بما بُعثوا وأمروا به، قال تعالىٰ في شأنهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

ففرق ما بين طبيعة اليهود وطبيعة المسلمين معلوم لا يخفىٰ؛ فاليهود أهل عنت وعناد، وطبيعتهم قاسية لا تنقاد لأمر الله وشرعه؛ قتلوا أنبياء الله، وحرفوا كلام الله وشرائعه، وشدّدوا علىٰ أنفسهم في الأوامر التي خُوطبوا بها مطلقةً عن القيود؛ فشدّد الله عليهم.

والمقصود: أن كل مخلوق خلق الله فيه دواعي الخير والشر، فإذا انقاد لأمر الله ونهيه، وثبت علىٰ ذلك، ولازم السير إلىٰ الله؛ فقد سلك الصراط الموصل إلىٰ جنة الخلد، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من إحدىٰ جهتين: إما أَن تكون طبيعته يابسة قاسية، غير ليِّنة منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها، وإما أن تكون ليّنة منقادة سلسة القياد، لكنها غير ثابتة علىٰ ذلك، بل سريعة الانتقال عنه، كثيرة التقلب، فمتىٰ رُزق العبد انقيادًا للحق وثباتًا عليه؛ فليبشر؛ فقد بُشِّر بكل خير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ».

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين (ص١٦٣)، ط: المكتبة السلفية.

العقل رحمة ونعمة

العقل يعقل صاحبه عمّا يضر، ومن كان له عقل فلم يبصر به ربوبية الله في نفسه، وفي السموات والأرض والآفاق، وفي الكون، ولم يفقه حق الله في العبودية وحده، ولم يتدبّر مصالح الخلق والخليقة فيما أمر الله به ونهىٰ عنه؛ فهو أضل من الأنعام؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحقَّ ولا يعونه، ولا يبصرون الهدىٰ؛ كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ﴾ [البقرة: ١٧١]، أي: ومثلهم - في حال دعائهم إلىٰ الإيمان -

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٩٥).

كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسَّ بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خُلِقتْ له؛ إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خُلق ليعبد الله ويوحِّده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتمَّ منه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾».

وقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر تعالىٰ أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة؛ فقال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شرُّ البريَّة؛ لأنَّ كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خُلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبَّههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال في الآية

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٧).

الأخرىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]».

فمن أعظم نعم الله علىٰ خلقه؛ ورحماته: نعمة العقل، قال تعالىٰ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله. ومما يبيِّن ذلك: أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا، ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه، بصيرًا به، يؤتيه الله إياه، ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله.

وقال السُّدِّي: الحكمة: النبوة.

والصحيح: أن الحكمة - كما قاله الجمهور -: لا تختص بالنبوة، بل هي أعمُّ منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخصُّ، ولكن لأتباع الأنبياء حظٌّ من الخير علىٰ سبيل التبع، كما جاء في بعض الأحاديث: «**من حفظ القرآن فقد أُدرجت النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يُوحَىٰ إليه**». رواه وكيع بن الجراح في «تفسيره»، عن إسماعيل بن رافع، عن رجل لم يُسمِّه، عن عبد الله بن

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٥٥).

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قوله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويزيد؛ قالا: حدثنا إسماعيل - يعني: ابن أبي خالد - عن قيس - وهو ابن أبي حازم - عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها**».

وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه؛ من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبي خالد؛ به.

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لبٌّ وعقل؛ يعي به الخطاب، ومعنىٰ الكلام».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنّ الله بحكمته ورحمته خلق الإنسان، ووضع فيه الشهوة التي تدعوه إلىٰ جميع ما تشتهيه النفس، وعند الاسترسال مع هذه القوة لا يقف عند حد الاعتدال الواجب، بل توقعه في فساد عريض. ولكن من رحمته: وضع فيه العقل الذي يُميِّز به الأمور النافعة، التي ينبغي إيثارها، والأمور الضارَّة التي عليه اجتنابها.

فوقف العقل الصحيح معدِّلًا للشهوة، ومانعًا لها من الاسترسال

(١) الرياض الناضرة (ص١٤٦).

المهلك؛ بما يشاهده من أضرار وأخطار.

ورغَّب في خير الدنيا والآخرة لمن آثر ما يدعو إليه العقل والشرع من الخير، والاحتماء عن الشر، وتقديم الوازع الديني العقلي، علىٰ الوازع البهيمي؛ بما له من الآثار الجميلة عاجلًا وآجلًا، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

فهذا جزاء الطاغي، المسترسل مع الشهوات البهيمية الداعية إلىٰ الطغيان.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فهذا جزاء من قدَّم خوف الله علىٰ رغباته المطلقة الضارَّة، وراقَب نفسه عن جماحها في الهوىٰ المُردي.

فإنّ الهوىٰ يدعو صاحبه إلىٰ ترك الواجبات والمستحبَّات؛ طلبًا للراحة الحاضرة، وإيثار الكسل، وإلىٰ التجرُّؤ علىٰ المحرَّمات التي في النفس داعٍ قويٍّ إليها.

فإذا لم يكبحه بخوف الله، وخشية العقوبة؛ استرسل به إلىٰ الطغيان، فلم يتورع عن محرَّم، ولم يقُم بواجب، وهذا هو الهلاك الأبديُّ.

فإذا خاف ربَّه وراقبه، وعلِم ما عليه من الواجبات، وما هو محتم عليه

من ترك المحرمات، وجاهد نفسه وهواه علىٰ القيام بذلك؛ فقد أفلح وأنجح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ألقىٰ الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوىٰ، والعداوة بين النفس الأمَّارة وبين القلب، وابتلىٰ العبد بذلك، وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كلَّ حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالًا ودُوَلًا بين الفريقين، إلىٰ أن يستولي أحدُهما علىٰ الآخر، ويكون الآخر مقهورًا معه. فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك؛ فهناك السُّرور، والنعيم، واللَّذَّة، والبهجة، والفرح، وقُرَّةُ العين، وطيبُ الحياة، وانشراحُ الصدرِ، والفوز بالغنائم.

وإذا كانت النوبة للنفس والهوىٰ والشيطان؛ فهنالك الغموم، والهموم، والأحزان، وأنواع المكاره، وضيق الصدر، وحبسُ المَلَكِ».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «معلوم إنه - الله - لم يُعطِ الإنسان إماتة الخواطر ولا القوَّة علىٰ قطعها؛ فإنَّها تهجم عليه هجوم النَّفس إلَّا أن قوَّة الإيمان والعقل تُعينه علىٰ قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلىٰ رفع أقبحها

---

(١) الفوائد (ص٨٣).

(٢) الفوائد (ص٢٥٤).

وكراهته له ونفرته منه، كما قال الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: يا رسول الله! إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتَّىٰ يصير حممة أحبُّ إليه من أن يتكلَّم به. فقال: «**أوقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»، وفي لفظ: «**الحمد لله الَّذي ردَّ كيده إلىٰ الوسوسة**»».

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وبهذا الأصل تعرف عُقول الناس، وتُميِّزُ بين العاقل وغيره، ويظهر تفاوتهم في العقول.

فأين عقل من آثر لذة عاجلة منغصة منكدة - إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطيف يمتع به من زائره في المنام -؛ علىٰ لذة هي من أعظم اللذات، وفرحة ومسرة هي من أعظم المسرات، دائمة لا تزول ولا تفنىٰ ولا تنقطع، فباعها بهذه اللذة الفانية المضمحلة، التي حُشيت بالآلام، وإنما حصلت بالآلام، وعاقبتها الآلام؟!

فلو قايس العاقل بين لذتها وألمها، ومضرتها ومنفعتها؛ لاستحيا من نفسه وعقله، كيف يسعىٰ في طلبها! ويُضيع زمانه في اشتغاله بها! فضلًا عن إيثارها علىٰ «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر!**»

وقد اشترىٰ الله سبحانه من المؤمنين أنفسهم، وجعل ثمنها جنته، وأجرىٰ

---

(١) رسالة إلىٰ أحد إخوانه (ص٣٠ - ٣٢).

هذا العقد علىٰ يد رسوله ﷺ وخليله وخيرته من خلقه، فسلعَةٌ ربُّ السموات والأرض مشتريها، والتمتع بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وسماع كلامه منه في داره؛ ثمنها، ومن جرىٰ علىٰ يده العقد رسوله ﷺ، كيف يليق بالعاقل أن يضيعها ويهملها، ويبيعها بثمن بخس، في دار زائلة مضمحلة فانية!

وهل هذا إلا من أعظم الغبن؟!

وإنما يظهر له هذا الغبن الفاحش يوم التغابن، إذا ثقلت موازين المتقين، وخفَّت موازين المبطلين».

قال الحافظ ابن المِبْرد يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدسي[1]: «هذه الدُّنيا ليس خُلقت للدَّوام حتىٰ يعمل الإنسان فيها هذه الكبائر؛ فإنَّها عن قليل تنفد وتزول، ويبقىٰ التَّبعة علىٰ الإنسان، فمن عنده أدنىٰ عقل لم يفعل شيئًا من هذا، ويعتبر بالموت كيف يأخذ الناس واحدًا بعد واحد، وينظر إلىٰ هذه الدُّنيا وسرعة تقلبها بأهلها، لكن الشَّيطان وهوىٰ الإنسان يلقيانه في الخسران؛ كما قيل:

جند المكاره أربعٌ ما جُنِّدت ... إلا لعُظْم شقاوتي وبلائي
إبليس والدُّنيا ونفسي والهوىٰ ... كيف الخلاص وهذه أعدائي

---

(١) إرشاد الحائر إلىٰ علم الكبائر (ص٥٥، ٥٦).

قال بعض السَّلف: ما ترك ذكر الموت لنا قُرَّة عين في أهل ولا مال.

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: يا دار! تخربين ويموت سُكَّانك.

كما قيل:

قد نادت الدُّنيا علىٰ نفسها ... لو كان في العالم من يسمع

كم واثق بالعمر أفنيته ... وجامع بدَّدتُ ما يجمع

وقال بعضهم: ذهب ذكر الموت بلذَّة كل عيش، وسرور كلِّ نعيم».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه لا أنفع له - العبد - من امتثال الأمر، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأنَّ عواقبه كلها خيراتٌ ومسراتٌ ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع.

وكذلك لا شيء أضرَّ عليه من ارتكاب النهي، وإن هَوِيته نفسه ومالت إليه، وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصَّةُ العقل تحمّلُ الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المباديء إلىٰ غاياتها، والعاقل الكيِّس دائمًا

---

(١) الفوائد (ص١٩٩).

ينظر إلىٰ الغايات من وراء سُتور مبادئها، فيرىٰ ما وراء تلك السُّتور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرىٰ المناهي كطعام لذيذ قد خُلِط فيه سُمٌّ قاتل، فكلما دعته لذته إلىٰ تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرىٰ الأوامر كدواء كريه المذاق مُفْضٍ إلىٰ العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهةُ مذاقه عن تناوله أمرهُ نفعُه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلىٰ فضل علم تُدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطِّنُ به نفسه علىٰ تحمُّلِ مشقَّة الطريق لما يُؤمِّل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذَّر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبرُهُ هان عليه كلُّ مشقة يتحمَّلها في طلب الخير الدائم واللَّذَّة الدائمة».

❁ ❁ ❁

ترجيح الفضل على العدل

إن أوضح دلائل رحمة الله بخلقه معاملتهم بالفضل، وهو فوق العدل، فالسيئة جزاؤها سيئة مثلها، والحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف مضاعفة، إلىٰ ثواب لا حدَّ له؛ كما في عبادة الصوم والصبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جانب الفضل أرجح من جانب العدل؛ ولهذا كان جانب العدل آحادًا بآحاد، وجانب الفضل آحادًا بعشرات، إلىٰ سبعمائة، إلىٰ أضعاف كثيرة، وهذا يدلُّ علىٰ رجحان جانب الفضل وغلبته. وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة؛ فإنَّ رحمة الربِّ تعالىٰ تغلب غضبه».

وفضل الله يُدْرِك من يطيعه ويستجيب له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾ [الشورىٰ: ٢٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الله تعالىٰ دعا جميع

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٥٠٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٤/ ١٥٩٤).

العباد إلىٰ الإنابة إليه، والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلىٰ قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورىٰ: ٢٦] أي: يستجيبون لربِّهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبُّون دعوته؛ لأنَّ ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملُهم علىٰ ذلك، فإذا استجابوا له؛ شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور، وزادهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾: توفيقًا ونشاطًا علىٰ العمل، وزادهم مضاعفةً في الأجر زيادةً عن ما تستحقُّه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله، وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله؛ فـ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ [آل عمران: ٤] في الدُّنيا والآخرة».

ومن معاملة الله لخلقه بالفضل: أنه يُلحق المفضول بالفاضل في درجته في الجنة، فإن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أعظم الخلق فرحًا بصحبة النبي ﷺ في الدنيا، وخشوا أن تفوتهم صحبته في الآخرة لأن أعمالهم ليست في درجة أعماله ﷺ، فقالوا للنبي ﷺ: الرجل يُحب القوم ولمّا يلحق بهم! فقال النبي ﷺ: «**المرء مع من أحب يوم القيامة**».

وكذلك يُلْحِق الله الذرية بوالديهم في الجنة؛ وإن قَصُرَتْ أعمالهم عن بلوغ درجتهم؛ فضلًا وإحسانًا من الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «النوع الثاني من الأتباع السُّعَداء: فهم أتباع المؤمنين من ذريَّتهم، الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا، وإنما هم مع آبائهم تبَعٌ لهم، قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيءٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

أخبر سبحانه أنه ألحق الذُّرية بآبائهم في الجنة، كما أتبَعَهم إياهم في الإيمان، ولما كان الذُّرية لا عَمَل لهم يستحقون به تلك الدرجات؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، والضمير عائد إلىٰ الذين آمنوا؛ أي: وما نقَصنَاهم شيئًا من عملهم، بل رفعنا ذريّتهم إلىٰ درجاتهم، مع توفيتهم أجورَ أعمالهم؛ فليست منزلتُهم منزلةَ من لم يكن له عمل، بل وفَّيناهم أجورَهم، وألحقنا بهم ذرياتهم فوق ما يستحقونه من أعمالهم.

ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلًا من الله، فربما وقع في الوهم أن إلحاقَ الذرية أيضًا حاصلٌ بهم في حكم العدل، فإذا اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة، كان كل عامل رهينًا بكسبه لا يتعلق بغيره منه شيء.

فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب، لا في العدل والعقاب، وهذا ونحوه من أسرار القرآن وكنوزه، التي يختص الله بفهمها من شاء».

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٦٥، ٦٦).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن أعظم الرحمة والإعانة: ترجيح جانب الفضل والمُجازاة علىٰ الحسنات، علىٰ جانب العدل والمُجازاة علىٰ السيئات، «**فمن همَّ بحسنة فلم يعملها؛ كُتبت له حسنة واحدة، فإن عملها؛ كتبها الله عنده عشر حسنات، إلىٰ سبعمائة ضِعف إلىٰ أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئةٍ فلم يعملها؛ كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبها سيِّئة واحدة**».

وقال ﷺ: «**من مَرض أو سافر؛ كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**».

ونزَّل من نوىٰ الخير، وعمل ما يقدر عليه منه، بمنزلة الفاعل له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾ [النساء: ١٠٠].

وجعل آثار الأعمال التي تُعمل بسبب دِعاية العبد، أو بداعي الاقتداء به، جعلها من الأعمال التي تُكتب للعبد في حياته وبعد مماته؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾ [يس: ١٢]. وقال ﷺ: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له**»».

---

(١) الرياض الناضرة (ص١١٨، ١١٩).

عبودية لابُدَّ منها

قال رجل لمحمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عاهدت الله أن لا أعصيه أبدًا!

فقال له: فمن أعظم جرمًا منك! تألَّىٰ علىٰ الله أن لا ينفذ فيك أمره[١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ «**لو لم تُذنبوا لأتىٰ الله بقوم يُذنبون ويستغفرون؛ فيغفر لهم، ويُدخلهم الجنَّة**».

قال العلامة عبد القادر الدُّومي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن إيقاع العباد في الذنوب أحيانًا اعتراف العَبْدِ بالعجز والرُّجوع إلىٰ خالقه بالذُّلِّ والانكسار، وذلك شأن العبودية».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قيل: تخليص الأعمال مما يفسدها أشد علىٰ العاملين من طول الاجتهاد، وهذا مما يُبيِّن **احتياج الناس**

---

(١) الفوائد لأبي علي الهمداني (ص١٢٥).

(٢) شرح كتاب الشهاب (ص٦١٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٦٨٨ - ٦٩٠).

إلىٰ التوبة دائمًا؛ ولهذا قيل: هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلىٰ آخر عمره، ولا بد منه لجميع الخلق؛ فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا، وأن يستديموا التوبة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]، فغاية كل مؤمن التوبة، وقد قال الله لأفضل الأنبياء وأفضل الخلق بعد الأنبياء؛ وهم السابقون الأولون: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]، ومن أواخر ما أنزل الله قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣].

وقد ثبت في الصحيحين: «أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن». وفي لفظ لمسلم عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول ﷺ يُكثر أن يقول قبل أن يموت: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، فقال: «**أخبرني ربي أني سأرىٰ علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: «سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك» فقد رأيتها**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١] فتح

مكة: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٢، ٣].

وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده، والاستغفار في هذه الحال؛ لا يقتضي أنه لا يُشرع في غيرها، أو لا يؤمر به غيره، بل يقتضي أن هذا سبب لما أُمر به، وإن كان مأمورًا به في مواضع أخر، كما يؤمر الإنسان بالحمد، والشكر علىٰ نعمه، وإن كان مأمورًا بالشكر عليها، وكما يؤمر بالتوبة من ذنب، وإن كان مأمورًا بالتوبة من غيره؛ لكن هو أمرٌ أن يُختم عمله بهذا، فغيره أحوج إلىٰ هذا منه.

وقد يحتاج العبد إلىٰ هذا في غير هذه الحال، كما يحتاج إلىٰ التوبة فهو محتاج إلىٰ التوبة والاستغفار مطلقًا، كما ثبت في الصحيح: «أن النبي ﷺ كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثًا». قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران: ١٧]؛ قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون.

وقد ختم الله «سورة المزمل» وفيها قيام الليل بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠]، كما ختم بذلك «سورة المدثر» بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر: ٥٦]، فهو سبحانه أهل التقوىٰ، ولم يقل سبحانه: أهل للتقوىٰ، بل قال: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، فهو وحده أهل أن يُتقىٰ فيُعبد، دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يُتقىٰ، كما قال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، وهو أهل المغفرة، ولا يغفر الذنوب غيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي غير حديث يقول النبي ﷺ: «إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، فهو سبحانه أهل التقوىٰ وأهل المغفرة، وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع، كقوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله وعبادته وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد - كما تقدم -، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه، كما قال فيه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب، والمؤمن إذا تبين له أنه ضيّع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب، وكذلك إذا تبيَّن له أن بعض ما يفعله هو مذموم»

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الطاعة من أَجلِّ نعمه، وأَمَّا المعصية فإِذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإِنابة والذل والخضوع؛ فقد ترتَّب

(١) طريق الهجرتين (١/ ٢٥١، ٢٥٢).

عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا، وإِن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للربِّ تعالىٰ، ولكنَّه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار.

وهو سبحانه أَفرح بتوبة عبده من الرجل إِذا أضلَّ راحلته بأَرض دَوِّيَّة - صحراء - مهلكةٍ عليها طعامه وشرابه، فأَيس منها ومن الحياة، فنام، ثمَّ استيقظ فإِذا بها قد تعلَّق خطامُها في أَصل شجرة، فجاءَ حتىٰ أخذها، فالله أَفرح بتوبة العبد حين يتوب إِليه من هذا براحلته.

فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أَحبُّ إِليه سبحانه من عدمه، وله أَسباب ولوازم لابدَّ منها. وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإِن كان محبوبًا له، فهذا الفرح أَحبُّ إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع، فله من الحكمة في تقدير أَسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة.

هذا بالإضافة إلىٰ الرب جَلَّجَلَالُهُ، وأَمَّا بالإِضافة إلىٰ العبد فإِنَّه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفًا علىٰ أَسباب لا يحصل بدونها.

فتقدير الذنب عليه إِذا اتصل به التوبةُ والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار؛ كان من النعم باعتبار غايته وما يُعقبه، وإِن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه، والربُّ سبحانه محمود علىٰ الأَمرين.

فإِن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإِنابة والذل والانكسار؛ فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا واقعوا معصيةً صغيرةً أو كبيرةً عاد ذلك عليهم رحمةً، وانقلب في حقهم دواءً، وبُدِّل حسنةً؛ بالتوبة النصوح والحسنات الماحية؛ لأنَّه سبحانه عرَّفهم بنفسه وبفضله، وبأنَّ قلوبهم بيده وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتهم، وقد عزموا أن لا يعصوه، وأراهم عزَّته في قضائه، وبرَّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه وافتقارهم وذلَّهم، وأنَّه إن لم يعفُ عنهم ويغفر لهم؛ فليس لهم سبيل إلىٰ النجاة أبدًا.

فإِنَّهم لمَّا أعطوه من أنفسهم العزمَ أن لا يعصوه، وعقدوا عليه قلوبهم، ثم عصوه بمشيئته وقدرته؛ عرفوا بذلك عظيم اقتداره، وجميل ستره إيَّاهم، وكريم حلمه عنهم، وسعة مغفرته لهم، وبردَ عفوه وحنانه وعطفه ورأْفته، وأنَّه حليم ذو أناة لا يعجل، ورحيم سبقت رحمته غضبه، وأنَّهم متىٰ رجعوا بالتوبة إليه وجدوه غفورًا رحيمًا، حليمًا كريمًا، يغفر لهم السيئات، ويُقيلهم العثرات، ويودهم بعد التوبة ويحبهم.

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٢٩٠ - ٢٩٢).

فتضرعوا إليه حينئذ بالدعاء، وتوسلوا إليه بذل العبيد وعزِّ الربوبية؛ فتعرَّف سبحانه إليهم بحسن إجابته، وجميل عطفه، وحسن امتنانه؛ في أن ألهمهم دعاءه، ويسّرهم للتوبة والإنابة، وأقبل بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه. ولم تمنعه معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبرِّه لهم وإحسانه إليهم، فتابَ عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه.

فلما تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه تعرَّف إليهم تعرُّفًا آخر؛ فعرَّفهم رحمته، وحسن عائدته، وسعة مغفرته، وكريم عفوه، وجميل صفحه، وبرَّه وامتنانه وكرمَه، وسرعة مبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور، وشدَّة النفور، والإيضاع في طرق معاصيه.

وأشهدهم مع ذلك حمدَه العظيم، وبرَّه العميم، وكرمه في أن خلَّىٰ بينهم وبين المعصية، فنالوها بنعمته وإعانته، ثمَّ لم يُخلِّ بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يُرجىٰ معه صلاح، بل تداركهم بالدواء الشافي، فاستخرج منهم داءً لو استمرَّ معهم لأفضىٰ إلىٰ الهلاك.

ثمَّ تداركهم بروح الرجاء، فقذفه في قلوبهم، وأخبر أنَّه عند ظنونهم به.

ولو أشهدهم عظم الجناية، وقبح المعصية، وغضبه ومقته علىٰ من عصاه فقط؛ لأورثهم ذلك المرض القاتل أو الداءَ العضال؛ من اليأْس من

رَوْحه والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم، ولكن رحمهم قبل البلاء، وفي حشو البلاء، وبعد البلاء. وجعل تلك الآثار التي تُوجبها معصيته من المحن والبلاء والشدائد رحمةً لهم وسببًا إلىٰ علوِّ درجاتهم ونيل الزلفىٰ والكرامة عنده. فأشهدهم بالجناية عزَّة الربوبية وذلَّ العبيد، ورقَّاهم بآثارها إلىٰ منازل قربه ونيل كرامته، فهم علىٰ كلِّ حال يربحون عليه، يتقلبون في كرمه وإحسانه؛ فكلُّ قضاءٍ يقضيه للمؤمن فهو خير له، يسوقه به إلىٰ كرامته وثوابه».

وانظر ما حصل للإسلام والمسلمين بسبب معصية بعض الصحابة للنبي ﷺ، ونزولهم من جبل الرماة، حيث كان ذلك سببًا في ظهور الكافرين، وقتل عدد من الصحابة، وإصابة وجرح النبي ﷺ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في حكمة ذلك**[1]: «منها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السَّراء والضَّراء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم، وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا علىٰ الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون؛ فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله علىٰ حرف واحد من السَّراء والنعمة والعافية.

---

(١) زاد المعاد (ص٤٠١، ٤٠٢)، ط: مؤسسة الرسالة، ناشرون.

ومنها: أنَّه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا؛ لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر؛ لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِح عباده إلا السَّراء والضَّراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط؛ فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغَلَبة والكَسْرةِ، والهزيمة، ذلُّوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العزَّ والنَّصْرَ؛ فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذُّلِّ والانكسار؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥]، فهو سبحانه إذا أراد أن يُعزَّ عبده، ويجبره، وينصره؛ كسره أوَّلًا، ويكون جبره له ونصره علىٰ مقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ؛ فقيَّض لهم الأسباب التي تُوصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنىٰ طغيانًا وركونًا إلىٰ العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جدِّها في سيرها إلىٰ الله والدار

الآخرة، فإذا أراد بها ربُّها ومالِكُها وراحمها كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتىٰ يكون فيها هلاكه».

❁ ❁ ❁

اصطفاء الرحمن
ملائكته للاستغفار لعباده

ما أكرم البشر علىٰ الله! فإن الله الرحمن الغفور الودود اصطفىٰ ملائكته المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون؛ للاستغفار لعباده المؤمنين.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب؛ فقيَّض الله سبحانه ملائكتَه المقرَّبين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يؤمِّنون علىٰ دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أي: إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم، وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عمَّا كانوا فيه، واتَّبعوا ما أمرتهم به؛ من فعل الخيرات وترك المنكرات».

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٢).

الفرار من اللّه إليه

كل أحد إذا خِفْتَهُ فَرَرْتَ منه، إلا الله؛ فإنك تفر إليه إذا شردت عن طاعته، وأَوْحَشْت فيما بينك وبينه بالمعصية، فتفر إليه؛ ليسكن قلبك من الخشية من سخطه وعقابه، وتفر إليه؛ لأنه هو وحده الذي يغفر ذنوب عباده، وتفر إليه؛ لأنه لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.

قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «التوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

وتحت «من» و«إلىٰ» في هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد؛ فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية، ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل، وسائر منازل العبودية؛ فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

---

(١) الرسالة التبوكية (ص١٧، ١٨، ١٩).

وأما الفرار منه إليه؛ فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كلَّ ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفرُّ منه العبد؛ فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فرَّ العبد إلىٰ الله فإنما يَفِرُّ من شيء إلىٰ شيء وُجِدَ بمشيئة الله وقدره؛ فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه.

ومن تصوَّر هذا حق تصوُّره فهم معنىٰ قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**»، وقوله: «**لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك**»؛ فإنه ليس في الوجود شيء يُفرُّ منه ويُستعاذ منه ويُلتجأ منه إلا وهو من الله خلقًا وإبداعًا.

فالفارُّ والمستعيذ فارٌّ مما أوجبه قدر الله ومشيئته وخلقه، إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه.

وتصوُّر هذين الأمرين يُوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غير الله بالكُلِّية خوفًا ورجاءً ومحبةً، فإنه إذا علم أن الذي يفرُّ منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه؛ لم يبقَ في قلبه خوفٌ من غير خالقه ومُوجده؛ فتضمَّنَ ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحُبِّ والرَّجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته؛ لكان ذلك موجبًا لخوفه منه، مثل من يفرُّ من مخلوق آخر أقدر منه؛ فإنه في حال فراره من الأول خائفًا منه

حَذِرًا أن لا يكون الثاني يعيذه منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفرُّ إليه هو الذي قضىٰ وقدَّر وشاء ما يفرُّ منه؛ فإنه لا يبقىٰ في القلب التفات إلىٰ غيره بوجه.

فتفطَّنْ إلىٰ هذا السر العجيب في قوله: «أعوذ بك منك»، و«**لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك**»، فإنَّ الناس قد ذكروا في هذا أقوالًا، وقلَّ من تعرَّض منهم لهذه النكتة التي هي لُبُّ الكلام ومقصوده، وبالله التوفيق».

❁ ❁ ❁

الرحمة سعادة

تتضمن العفو والمغفرة والإحسان

قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فهذا الدعاء من جوامع الدعاء وأفضله، وهو أعظم ما يحتاجه المؤمنون، وعليه مدار سعادتهم.

هذا دعاء الصحابة الصالحين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذي دعوا به بعد نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فالأمة في بركة الصحابة تتعلم منهم العلوم النافعة، وما يكون سببًا في سعادتهم، ورحمة الله بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «سألوه العفو والمغفرة والرحمة

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ٦٢٧).

والنصر علىٰ الأعداء؛ فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها مدار السعادة والفلاح؛ فالعفو متضمن لإسقاط حقه قِبَلَهم ومسامحتهم به، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم، وإقباله عليهم، ورضاه عنهم، بخلاف العفو المجرد؛ فإن العافي قد يعفو ولا يُقبل علىٰ من عفا عنه، ولا يرضىٰ عنه، فالعفو ترك محض، والمغفرة إحسان وفضل وجود، والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر.

فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير. والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه، وإعلاء كلمته، وقهر أعدائه، وشفاء صدورهم منهم، وإذهاب غيظ قلوبهم، وحزازات نفوسهم. وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولىٰ لهم سواه، فهو ناصرهم، وهاديهم، وكافيهم، ومعينهم، ومجيب دعواتهم، ومعبودهم.

فلما تحققت قلوبهم بهذه المعارف وانقادت وذَلَّتْ لعزة ربها ومولاها، وأجابتها جوارحهم؛ أُعطوا كلَّ ما سألوه من ذلك، فلم يسألوا شيئًا منه إلا قال الله - تعالىٰ: (قد فعلتُ)، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ.

فهذه كلمات قصيرة مختصرة في معرفة مقدار هذه الآيات العظيمة الشأن، الجليلة المقدار، التي خص الله بها رسوله محمدًا ﷺ وأمته من كنز تحت العرش».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والنسيان سواءٌ كان عدم العلم أَو عدم الصبر - كما فسر بهما هاهنا -؛ فهو أَمر عدمي؛ ولهذا قال آدم لما رأَىٰ ما دخل عليه من ذلك: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، فإِنه إذا اعترف بنقصه خص نفسه- بما حصل لها من عدم العلم والصبر- بالنسيان الذي أَوجب فوات حظه من الجنة، ثم قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فإِنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أَثرها وعقابها، ويقِ العبد من ذلك؛ وإِلا ضرته آثارها ولابد، كآثار الطعام المسموم إِن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه وإِلا ضره ولابد، وإِن لم يرحمه سبحانه بإِيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به؛ وإِلا خسر.

والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم يغفر للإِنسان فيقيه السيئات، ويرحمه فيؤتيه الحسنات؛ وإِلا هلك ولابد؛ إذ كان ظالمًا لنفسه، ظلومًا بنفسه، فإِن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإِن لم تتحرك إلىٰ الخير تحركت إلىٰ الشر؛ فضرت صاحبها. وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا؛ لأَن ما ليس

(١) طريق الهجرتين (ص١٠٧).

حساسًا متحركًا بالإِرادة؛ فليس نفسًا، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وَهَمَّام**»، فالحارث: الكاسب العامل، والهمَّام: الكثير الهمِّ، والهمّ مبدأُ الإرادة؛ فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإِرادة الفاسدة، والعمل الضار».

❁ ❁ ❁

رحمة اللّه نرجو

لابد لكل مسلم أن يدعو ربه، ويسأله الرحمة والهداية والسداد والتوفيق؛ فرحمة الله نرجو، ولضرورة كل مسلم وحاجته وافتقاره إلىٰ رحمة الله؛ فإن الله أمرنا وأرشدنا إلىٰ طلب ذلك منه في كل يوم في خمسة أوقات مختلفة عامة شاملة الليل والنهار في أرجىٰ مقامات استجابة الدعاء في الصلاة؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّه إذا هداه هذا الصراط أعانه علىٰ طاعته وترك معصيته؛ فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة، لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلىٰ الهدىٰ في كل لحظة، وهو إلىٰ الهدىٰ أحوج منه إلىٰ الأكل والشرب، ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه؛ ولهذا أمر به في كل صلاة؛ لفرط الحاجة إليه، وإنما يعرف بعض قدره من اعتبر أحوال نفسه، ونفوس الإنس والجن

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ١١٠).

المأمورين بهذا الدعاء، ورأىٰ ما فيها من الجهل والظلم الذي يقتضي شقاءها في الدنيا والآخرة؛ فيعلم أن الله تعالىٰ بفضله ورحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فَرَضَ عليه أن يسأل هذه الهداية في أفضل أحواله، وهي الصلاة، مرات متعددة في اليوم والليلة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هلمَّ إلىٰ الدُّخول علىٰ الله ومجاورته في دار السلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطُّرُق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمُرُك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضىٰ وما يُستقبل، فالذي مضىٰ تُصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصبَ ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب.

وتمتنع فيما يُستقبل من الذُّنوب، وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملًا بالجوارح يشقُّ عليك معاناته، وإنما هو عزم ونيَّةٌ جازمة تريح بدنك وقلبك وسرَّك.

فما مضىٰ تُصلحه بالتوبة، وما يُستقبل تُصلحه بالامتناع والعزم والنية،

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (١/ ١١٣).

(٢) الفوائد (ص١٦٨، ١٦٩).

وليس للجوارح في هذين نصبٌ ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللَّذين قبله وبعده بما ذُكر؛ نجوت وفزت بالراحة واللَّذَّة والنعيم، وحفظه أشقُّ من إصلاح ما قبله وما بعده؛ فإن حفظه أن تُلزم نفسك بما هو أولىٰ بها، وأنفع لها، وأعظم تحصيلًا لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت.

فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار، فإن اتَّخذْت منها سبيلًا إلىٰ ربك بلغت السعادة العظمىٰ والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلىٰ الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب؛ انقضت عنك بسرعة، وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر علىٰ طاعته، ومخالفة الهوىٰ لأجله».

❁ ❁ ❁

رحمة اللّه خلقه
في تيسير أسباب إصلاح ما مضى

رحمة الله عظيمة، وهي فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون؛ من ذلك أن الله جعل لعباده أسبابًا يستطيعون بها إصلاح ما مضىٰ، وإلا لو كان ما مضىٰ مانعًا من الإقبال علىٰ الله فيما بقي؛ لامتنع علىٰ أكثر الخلق السير إلىٰ الله؛ لإدراك رحمته والفوز بجنته.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالىٰ لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة؛ ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ أي: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح من

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٥٣).

حديث أبي وائل، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول والآخر**».

وفي الصحيح أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «**الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما كان قبلها**»».

وقال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١]، فبادرا إلىٰ التوبة والإنابة، وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، فاجتباه ربه، واختاره، ويسر له التوبة، ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢] فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلىٰ ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا علىٰ حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم، ليلًا ونهارًا».

ونبينا محمد ﷺ نبي التوبة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأما نبي التوبة؛

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤١).

(٢) زاد المعاد (ص٣١).

فهو الذي فتح الله به باب التوبة علىٰ أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله.

وكان ﷺ أكثر الناس استغفارًا وتوبة، حتىٰ كانوا يعدُّون له في المجلس الواحد مئة مرَّة: «**ربِّ، اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التوَّاب الغفور**». وكان يقول: «**يا أيها الناس، توبوا إلىٰ الله ربكم ، فإني أتوب إلىٰ الله في اليوم مئة مرة**».

وكذلك توبة أمته أكمل من توبة سائر الأمم، وأسرع قبولًا، وأسهل تناولًا، وكانت توبة من قبلهم من أصعب الأشياء؛ حتىٰ كان من توبة بني إسرائيل من عبادة العجل قتل أنفسهم، أما هذه الأمة فلكرامتها علىٰ الله تعالىٰ جعل توبتها الندم والإقلاع».

❁ ❁ ❁

أعظم رحماته ونعمه اصطفاؤنا للإسلام والسنة

نعم الله علينا كثيرة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وبلا ريب أعظم نعم الله علينا هو اصطفاؤنا للإسلام والسنة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٨]، فأخبر تعالىٰ أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من: اجتبىٰ الشيء يجتبيه؛ إذا ضمّه إليه وحازه إلىٰ نفسه؛ فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته، وصفوته من خلقه، بعد النبيين والمرسلين؛ ولهذا أمرهم تعالىٰ أن يجاهدوا فيه حق جهاده؛ فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلهًا معبودًا محبوبًا علىٰ كل ما سواه، كما اختارهم علىٰ من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي

(١) بدائع التفسير (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه علىٰ كل حال علىٰ من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه، وآثرهم بذلك علىٰ من سواهم.

ثم أخبرهم تعالىٰ أنه يسَّر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة؛ لكمال محبته لهم، ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم؛ وهي إفراده تعالىٰ وحده بالعبودية والتعظيم والحبِّ والخوف والرجاء، والتوكل والإنابة، والتفويض والاستسلام؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالىٰ: أنه نوَّه بهم وأثنىٰ عليهم قبل وجودهم، وسمَّاهم عباده المسلمين؛ قبل أن يُظهرهم، ثم نوّه بهم وسمّاهم كذلك بعد أن أوجدهم؛ اعتناءً بهم، ورفعة لشأنهم، وإعلاءً لقدرهم.

ثم أخبر تعالىٰ أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله ﷺ، ويشهدوا هم علىٰ الناس، فيكونوا مشهودًا لهم بشهادة الرسول ﷺ، شاهدين علىٰ الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين، ولهاتين الحكمتين العظيمتين».

فرحمة الله بخلقه عظيمة باصطفائهم للإسلام، وإرسال خير الأنام محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رحمة إلىٰ الخلق جميعًا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً

لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، بالحنيفية السمحة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وخاطبنا الله وذكّرنا بهذه النعمة؛ لنعرف قدرها، ونشكر الله؛ فنعبده كما أدىٰ إلينا رسوله شريعته ودينه الذي اصطفاه لنا.

قال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُذكِّر تعالىٰ عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم؛ يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم؛ أي: يطهِّرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن -، والحكمة - وهي السنة -، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

فكانوا في الجاهلية الجهلاء، يسفهون بالقول الفَريِّ، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سِفارته، إلىٰ حال الأولياء، وسجايا العلماء؛ فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلَّهم تكلفًا، وأصدقَهم لهجةً. وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٨٧).

وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وذمَّ من لم يعرف قدر هذه النعمة؛ فقال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يعني بنعمة الله: محمدًا ﷺ. ولهذا ندب الله المؤمنين إلىٰ الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره؛ فقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]».

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا أدري أي النعمتين أفضل! أن هداني للإسلام أو عافاني من الأهواء».

فنعمة الإسلام هي أعظم النعم علىٰ الإطلاق، وأحقها بالشكر؛ فهي الموجبة لدخول الجنة، وهي الموجبة للنجاة من النار، بها يقيم المسلمون حق الله الخالص في توحيده وعبوديته، وبها هدىٰ الله المسلمين لإقامة شرائع الإسلام وأركانه وواجباته، وبها عرّفهم الله الطريق الموصل إليه، واصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ لإقامة ذكره واستعمال نعمه في محابه ومراضيه.

وبنعمة السنة هدىٰ الله الجماعة لسلوك الصراط الموصل إليه، وأضل الله عنها أهل البدع الذين مالت بهم الأهواء عن الصراط إلىٰ السبل المضلة، التي أورثتهم العقائد الضالة والعبادات المردودة.

---

(١) سير السلف الصالحين (٣/ ٩٣٣).

لا يغلق بابه دون عباده

ربنا غفور ودود حييّ ستير، أسبغ علىٰ عباده رزقه وهدايته ورحمته، ففطرهم علىٰ الإسلام؛ قال تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه**».

وأوكل الله بعباده ملائكة تحفظهم؛ قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الرعد: ١١].

وأسبغ علىٰ عباده أنواع النعم؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان: ٢٠].

وفوق هذا كله؛ فإن العبد متىٰ شاء رفع يديه إلىٰ باريه يسأله زيادة رزق، أو قوة وعافية، والله عَزَّوَجَلَّ كريم، وحيي ستير؛ يستحي أن يرفع العبد إليه يديه فيردهما صفرًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وقد وسَّع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ عباده غايةَ التَّوسِعة في دينه، ورِزقْه، وعفوه، ومغفرتِهِ، وبسط عليهم التوبةَ ما دامت الروحُ في الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يُغْلِقُهُ عنهم إلىٰ أن تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغربها، وجعلَ لكلِّ سيئة كفارةً تُكفرها؛ من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مُصيبة مُكَفِّرة، وجَعل بكل ما حرَّم عليهم عِوضًا مِن الحلال أنفعَ لهم منه، وأطيَبَ، وألذَّ؛ فيقومُ مقامه لِيستغني العبدُ عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يَضيقُ عنه، وجعل لِكل عُسْرٍ يمتحنُهم به يُسرًا قبله، ويُسرًا بعده، «**فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرَيْنِ**»».

❁ ❁ ❁

(١) بدائع التفسير (٣/ ٢٢٥).

لا يلزم من المحاسبة المعاقبة

حساب الله لخلقه يوم القيامة بحسب أعمالهم؛ فمنهم من يدخل الجنة بغير حساب؛ وهم الذين حققوا التوحيد واستبقوا الخيرات، ومنهم من يُحاسب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يُناقش حسابه ويستقصىٰ عليه.

فالأعمال في الدنيا هي البيان الواضح لحال العبد في الآخرة، قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثمَّ أوفِّيكم إيَّاها؛ فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه**»، رواه مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالدنيا حرث ومزرعة للآخرة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤٢).

مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: حافظوا علىٰ الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه؛ فإن الكريم قد أجرىٰ عادته بكرمه: أنه من عاش علىٰ شيء مات عليه، ومن مات علىٰ شيء بُعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك».

وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: أن النبي ﷺ قال: «**من حُوسب عُذِّب**»، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: فقلت: أوليس يقول الله تعالىٰ: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟! قالت: فقال: «**إنما ذلكِ العرض، ولكن من نُوقش الحساب يهلك**».

قال العلامة صدِّيق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**من نوقش الحساب**»، أي: من ناقشه الله الحساب، أي: من استقصىٰ حسابه.

وأصل المناقشة: الاستخراج، ومنه نقش الشوكة: إذا استخرجها، والمراد هنا: المبالغة في الاستيفاء.

«**يهلِكْ**» - بكسر اللام وإسكان الكاف -: جوابُ «مَن» الموصول المتضمن معنىٰ الشرط، ويجوز رفعه؛ لأن الشرط إذا كان ماضيًا؛ جاز في الجواب الوجهان، والمعنىٰ: أن تحرير الحساب يفضي إلىٰ استحقاق العذاب؛ لأن حسنات العبد متوقفة علىٰ القبول، وإن لم تحصل الرحمة

(١) عون الباري (١/ ٤١٤، ٤١٥).

المقتضية للقبول؛ لا تقع النجاة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن العباد لابد لهم من سيئات، ولابد في حياتهم من تقصير، فلولا عفو الله لهم عن السيئات، وتقبله أحسن ما عملوا؛ لما استحقوا ثوابًا.

ولهذا قال ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذِّب**. قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله! أليس الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، قال: **ذلكِ العرض، ومن نوقش الحساب عُذِّب**»».

❁ ❁ ❁

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٤٤٩).

ما منع نعمه عن الكفرة فضلاً عن العصاة

قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُخبر تعالىٰ أنه ما كلُّ من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء، وهذه مقيِّدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أي: يدخلها حتىٰ تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذمومًا علىٰ سوء

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩).

تصرُّفه وصنيعه؛ إذ اختار الفاني علىٰ الباقي ﴿مَّدْحُورًا﴾: مبعدًا مقصيًّا حقيرًا ذليلًا مهانًا».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متمِّمًا**(١): «وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة، وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: وقلبه مؤمن، أي: مصدِّقٌ بالثواب والجزاء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]».

والشقي - حقًّا - من أمهله الله دهره كله فلم يؤمن أو يتب من معاصيه، فَقَدِمَ علىٰ الله وهذه حاله، في يوم غَضِبَ اللهُ فيه غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إن الله تعالىٰ لما أمهل الخلائق، وأخر انتصار المظلوم مع تكرار استصراخه به سبحانه، وأمهل الكافر مع جحده الحق وغمطه الصواب، وإرجائه سبحانه أهل النفاق، علىٰ ما يسد الصبر عند كل محق يتراخىٰ استطالة الباطل عليه؛ فكان اشتداد غضبه في ذلك اليوم بمقتضىٰ طول إمهاله، وتضاعف سخطه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٤٣٥).

بحسب اندفاع أخذه، حتىٰ ظن الكافرون أنهم مهملون أو مغفول عنهم؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] الآية».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وهكذا يفعل الرَّبُّ سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم؛ فيؤدِّب عبده المؤمن الَّذي يحبُّه وهو كريم عنده بأدنىٰ زلَّةٍ وهفوةٍ، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأمَّا من سقط من عينه وهان عليه؛ فإنَّه يخلِّي بينه وبين معاصيه، وكلَّما أحدث ذنبًا أحدث له نعمةً، والمغرور يظنُّ أنَّ ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أنَّ ذلك عين الإهانة، وأنَّه يريد به العذاب الشَّديد، والعقوبة الَّتي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا عجَّل له عقوبته في الدُّنيا، وإذا أراد بعبدٍ شرًّا أمسك عنه عقوبته في الدُّنيا، فيَرِدُ يوم القيامة بذنوبه**»».

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وللصحابة في مقول القول في آخر الآية ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ

(١) زاد المعاد (ص٤٥).

إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هل هو تمام دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو هو قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ قولان؛ فأبيُّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أقرأ الصحابة جعله من تمام دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو قولٌ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من رواية أبي العالية عنه[١].

والقول الثاني لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حبر الأمة وترجمان القرآن؛ من رواية سعيد بن جبير عنه؛ أنه قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يحجرها علىٰ المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ومن كفر أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقًا لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلًا ثم اضطرُّهم إلىٰ عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠][٢].

ورجَّح الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول الثاني، وجعل نظم الآية والسياق دالًّا علىٰ ترجيحه؛ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تركيب السياق يأبىٰ - القول الأول -، والله أعلم؛ فإن الضمير في [قال] راجع إلىٰ الله تعالىٰ في قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلىٰ هذه القراءة الشاذة[٣] يكون الضمير في [قال] عائدًا علىٰ إبراهيم، وهذا خلاف نظم الكلام».

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٥٩).

(٣) القراءة الشاذة هي [فأَمتِعْه].

والمعاصي والذنوب بريد الكفر، فاحذر عبد الله من الأمن من مكر الله، فتراه يستر ذنوبك ويُسبغ عليك نعمه ويُمهلك وينذرك بأنواع من التذكرة والاستعتاب، فاحذر من النسيان الذي يُركسك في الاستدراج من حيث لا تشعر.

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

قال أبو عبيدة - مَعْمَر بن المثنىٰ -: الاستدراج: أن تتدرج إلىٰ الشيء في خفية قليلًا قليلًا، وأصله من الدرجة، وذلك أن الراقي والنازل يرقىٰ وينزل مرقاة مرقاة[١].

وقال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: سنطوي أعمارهم في اغترار منهم.

وقال الضحاك: كلما جدَّدوا معصية جدَّدنا لهم نعمة[٣].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «كم من مستدرج بالإحسان إليه! وكم من مفتون بالثناء عليه! وكم من مغرور بالستر عليه!».

وإدرار الله نعمه علىٰ الكافرين هذا إمهال لا إهمال، ولا مكافأةً لهم علىٰ كفرهم، حاشا وكلَّا، ولا هو إنعام وإفضال أبدي، بل هو متاع قليل،

(١، ٢، ٣) رموز الكنوز (٢/ ٣٢٨).

(٤) رموز الكنوز (٢/ ٣٢٨، ٣٢٩).

ثم يضطرهم الله إلىٰ عذاب عظيم.

ومتاع الدارين خير من متاع فانٍ تعقبه حسرات وآلام وشقاء؛ في نار جهنم، وبئس المصير.

قال تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣٣، ١٣٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: هو الغنيُّ الحميد، الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾: غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم.

وفي هذا تهديد للناس علىٰ إقامتهم علىٰ كفرهم وإعراضهم عن ربِّهم، فإن الله لا يعبأ بهم شيئًا إن لم يطيعوه، ولكنه يُمْهل ويملي، ولا يُهْمل.

ثم أخبر أن مَن كانت همَّتُه وإرادتُه دنيَّة غير متجاوزة ثواب الدُّنيا، وليس له إرادةٌ في الآخرة؛ فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك؛ فلا يحصل له من ثواب الدُّنيا سوىٰ ما كتب الله له منها؛ فإنه تعالىٰ هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدُّنيا والآخرة، فليُطْلبا منه، ويُستعان به عليهما؛

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢١٤).

فإنَّه لا يُنال ما عنده إلَّا بطاعته، ولا تُدرك الأمور الدينيَّة والدنيويَّة إلا بالاستعانة به والافتقار إليه علىٰ الدوام، وله الحكمة - تعالىٰ - في توفيق من يوفِّقه، وخِذلان من يخذله، وفي عطائه ومنعه؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر أنه مالك النفع والضر، وأنَّ ما بالعباد من نعمة ورزقٍ وعافيةٍ ونصرٍ؛ فمن فضله عليهم وإحسانه إليهم.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ **أي:** لعلمكم أنه لا يقدر علىٰ إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتُلِحُّون في الرغبة مستغيثين به كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ٥٤، ٥٥].

قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل؛ بمعنىٰ: قيَّضْنا لهم ذلك؛ ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المُسْدي إليهم النِّعم، الكاشف عنهم النِّقَم، ثم توعدهم قائلًا: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: اعملوا ما

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٤٠).

شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلًا ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك».

وهذه النعم العظيمة التي ما قطعها الرحمن الرحيم عن خلقه المشركين، فضلًا عن العصاة من المسلمين لو تدبَّرها هؤلاء لأوجب لهم عبوديته وتوحيده وطاعته واستعمال نعمه في محابِّه ومرضاته.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أين للمشركين العدول عن مَنْ هذا وصفه ونعته إلىٰ عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرةٍ من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله! لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران، ويتجرءون علىٰ عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم؛ لانجذبت دواعيهم إلىٰ معرفته، وذهلت عقولهم في حبّه، ولمقتوا أنفسهم أشدَّ المقت؛ حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قومٌ لا يعقلون».

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٧٨)، ط: دار ابن الجوزي، ط: الثانية.

إن اللّه لا يظلم مثقال ذرَّة

الله عَزَّوَجَلَّ حرَّم الظلم علىٰ نفسه، وجعله محرمًا علىٰ عباده، ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا...**».

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**إني حرمت الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تَظَالموا**»، لا يتعارض مع قوله تعالىٰ عن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ فإن الله لا يعذب أحدًا بلا ذنب اكتسبه، فإن قلت: إن الله كتب علىٰ بعض خلقه السيئات. فالجواب: أن هؤلاء استوجبوها لأنفسهم بكسبهم؛ قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾؛ بمعنىٰ: إن تقدِّر لهم ما يستحقون أن يُعذبوا عليه؛ فإنهم عبادك. وليس المراد أنه يعذبهم بدون جرم؛ فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منزهٌ عن

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ٥٥٥).

ذلك غاية التنزيه؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ولقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ لكن المعنىٰ: إن تعذبهم بأن تُقَدِّر عليهم ذنبًا، يكون سببًا للعذاب؛ فإنهم عبادك. ومع هذا نقول: إن الله تعالىٰ لن يقدِّر لهم ذنوبًا يستحقون عليها العذاب، إلَّا إذا علم ما في قلوبهم من الإعراض وعدم قبول الحق؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]؛ فالذنوب سبب للإعراض والعياذ بالله، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «لا يخاف أن يُظلم؛ فيُزاد عليه في سيئاته، ولا أن يُهضم من حسناته».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

والذرَّة في لغة العرب، أيام نزول القرآن: هي صغار النمل، وهو مما يُكنىٰ به عن الشيء القليل؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم أبدًا، ولا يظلم ما دون أقل القليل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ

(١) رموز الكنوز (٤/ ٥٧١).

مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

قال الحافظ عبد الرَّزَّاقِ الرَّسْعَنِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد: أنه لا يظلم قليلًا ولا كثيرًا، لكنه ذكر الذَّرَّة؛ لأنها غاية ما يُضرب به المثل في القلَّة».

وقال تعالىٰ: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨].

قال الوالد العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله تعالىٰ: ﴿ وَعُرِضُواْ ﴾ أي: عُرض الناس ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي: علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿صَفًّا ﴾ **أي**: حال كونهم صفًّا؛ بمعنىٰ: صفوفًا، فيحاسبهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ أما المؤمن فإنه يخلو به وحده ويقرِّره بذنوبه، ويقول له: عملت كذا، وعملت كذا. فيقر، فيقول له أكرم الأكرمين: «**إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**».

يغفر الله عَزَّوَجَلَّ له يوم القيامة، ولا يعاقبه عليها، وفي الدنيا يسترها.

فكم من ذنوب لنا اقترفناها في الخفاء؟

كثيرة، سواء كانت عملية في الجوارح الظاهرة، أو عملية من عمل

---

(١) رموز الكنوز (١/ ٥١٠).

(٢) تفسير سورة الكهف (ص٨٢، ٨٣).

القلوب؛ فسوء الظن موجود، الحسد موجود، إرادة السوء للمسلم موجودة، وهو مستور عليه.

وأعمال أخرىٰ من أعمال الجوارح، ولكنّ الله يسترها علىٰ العبد.

إننا نؤمِّل - إن شاء الله - أن الذي سترها علينا في الدنيا، أن يغفرها لنا في الآخرة».

❁ ❁ ❁

صقل القلوب صمام أمان من الزلل والفتن

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**تُعرض الفِتَنُ علىٰ القلوب كعرض الحصير عُودًا عُودًا، فأيُّ قلب أُشْرِبَها؛ نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نُكت فيه نُكْتةٌ بيضاء؛ حتىٰ تعود القلوب علىٰ قلبين: قلب أسود مُرْبادًّا كالكوز مجخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا يُنْكر منكرًا، إلا ما أُشرب من هواه، وقلبٍ أبيض مثل الصفا، لا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامت السموات والأرض**»، رواه مسلم.

فَرَدُّ الفتن بصدق الالتجاء إلىٰ الله، والإعراض عن الفتن وأسبابها - خصوصًا مباديها من الوساوس - يصقل القلب ويزيده إيمانًا وقوةً في دفع الفتن بأنواعها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قلب أبيض، قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ٤٨).

فيه مصباحه، فإذا عُرضت عليه الفتنة أنكرها وردَّها، فازداد نوره وإشراقه وقوَّته.

والفتن التي تعرض علىٰ القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات؛ فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل. فالأولىٰ: توجب فساد القصد والإرادة، والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «القلب محتاج إلىٰ ما يحفظ عليه قوَّته وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلىٰ حِمْية عن المؤذي الضارِّ، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلىٰ استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له؛ وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات».

وبيَّن ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يجتنيه القلب من القوة الإيمانية التي تدفع عنه ما يُضعفه إذا خالف هواه؛ حيث قال[2]: «قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالىٰ بقوَّته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة؛ فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه؛ كما في الأثر: «إن الذي يخالف هواه؛ يَفْرَقُ الشيطان من ظله». ولهذا يوجد في المتبع هواه

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٥٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٦).

من ذُلِّ النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه؛ فإنَّه سبحانه جعل العز لمن أطاعه، والذل لمن عصاه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أي: من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيِّب والعمل الصالح».

ولا ريب أن علىٰ المؤمن أن يعتقد أن الله لابدَّ أن يقيم أسبابًا يختبر ويمتحن بها إيمان خلقه وتقواهم، فإذا جاهد العبد نفسه علىٰ تقوىٰ الله صقل قلبه وازداد إيمانًا مع إيمانه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله امتحن قلوبهم للتقوىٰ، أي: ابتلاها واختبرها؛ فظهرت نتيجة ذلك؛ بأن صلحت قلوبهم للتقوىٰ، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالىٰ، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٤٩).

وفي هذا دليل علىٰ أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن؛ فمن لازم أمر الله، واتَّبع رضاه، وسارع إلىٰ ذلك، وقدَّمه علىٰ هواه؛ تمحض وتمحص للتقوىٰ، وصار قلبه صالحًا لها، ومن لم يكن كذلك؛ علم أنه لا يصلح للتقوىٰ».

وأعظم ما يصقل القلوب ويدفع عنها أسباب المعاصي والفتن؛ هو الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن مُخْلِص الدين لله محفوظ من الشيطان الذي يأمر باتباع الهوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، والغيُّ: اتباع الهوىٰ.

وقال عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فالمخلص لا يُغوِيه، فلا يتبع هواه، كما قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فصرف عنه الغيَّ لأجل إخلاصه».

فالإخلاص لله وتحقيق الإيمان يُطهِّر القلب من دَغَله، ويزكيه ويستخرج المواد الفاسدة منه، ويزيده إيمانًا؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

---

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٤٦).

حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتُذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلىٰ أصول الإيمان وأعمال القلوب».

واتباع الهوىٰ يُضل عن سبيل الله، واتباع الهوىٰ يكون من عدم الإخلاص، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من اتَّبع ما تهواه نفسه أُضِلَّ عن سبيل الله؛ فإنه لا يكون الله هو المقصود، ولا المقصود الحق الذي يوصل إلىٰ الله، فلا قَصَد الحق، ولا ما يوصل إلىٰ الحق، بل قصد ما يهواه من حيث هو يهواه؛ فتكون نفسه في الحقيقة هي مقصوده؛ فيكون كأنه يعبد نفسه، ومن يعبد نفسه فقد ضلَّ عن سبيل الله قطعًا».

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٧٩).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٤٣).

فالقلوب صلاحها هو سبب صلاح الجوارح، والقلب سُمي «قلبًا» لسرعة وكثرة تقلبه، وكان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبّت قلبي علىٰ دينك**»، فمن يأمن علىٰ قلبه بعد سيد ولد آدم؟!

فتعاهد قلبك بالتنقية والصلاح والتزكية، ولا تغفل عن سؤال الله التثبيت؛ فهو أول وأعظم أسباب الهداية والصلاح والتقوىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿يبتلي﴾ بمعنىٰ: يختبر ويمتحن، و﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ هي القلوب؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ﴾؛ قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ معطوفة علىٰ (يبتلي)، والتمحيص بمعنىٰ: التخليص، محَّصه أي: خلَّصه؛ يخلَّص ما في قلوبكم من كل ما يكون فيها من إرادات سيئة؛ كقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أو فيه شيء من التسخط علىٰ القدر، أو غير ذلك مما يفسد ما في القلب».

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٣٣٤).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الابتلاء غير التمحيص؛ الابتلاء: اختبار، والتمحيص: تنقية».

وقال أيضًا في فوائد الآية[٢]: «إن الله قد يبتلي عباده بما ينقي قلوبهم، ويخلصها من الشوائب؛ لقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، والتمحيص - كما قلنا -: التنقية.

إثبات علم الله بما في القلوب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ويتفرع علىٰ هذه الفائدة: التحذير من إضمار ما لا يرضىٰ به الله؛ لأنك إذا أضمرت ما لم يرضَ به الله؛ فسوف يحاسبك عليه وإن كان لا يبدو للناس، فعلىٰ المرء أن يحاسب نفسه دائمًا، وينظر ما في قلبه؛ هل في قلبه الخير وإرادة ما يرضي الله، أو أن الأمر بالعكس؟ فليصحح الوضع».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وجماع الطرق والأبواب التي يُصان منها «القلب» وجنوده: أربعة.

فمن ضبطها، وعدَّلها، وأصلح مجاريها، وصرَّفها في محالِّها اللائقة بها

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص٦٣٠، ٦٣١).

ضُبطت وحُفظت جوارحه، ولم يشمت به عدُّوه، وهي:

١- الحرص.

٢- الشهوة.

٣- والغضب.

٤- والحسد.

فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشَّرِّ والخير، وكما هي طرقٌ إلىٰ العذاب السَّرْمديِّ، فهي طرق إلىٰ النعيم الأبدي.

فـ«آدم» أبو البشر ﷺ أُخرج من الجنة بالحرص، ثم أُدخل إليها بالحرص، ولكن فرقٌ بين حرصه الأوَّل، وحرصه الثاني. و«أبو الجنِّ» أُخرج منها بالحسد، ثُمَّ لو يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها، وقد قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالًا، وسلَّطه علىٰ هلكته في الحق، ورجلٍ آتاه الله القرآن؛ فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار**».

وأما الغضب فهو غول العقل؛ يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته.

فإذا كان حرصه إنما هو علىٰ ما ينفعه وحسده منافسةً في الخير، وغضبه لله علىٰ أعدائه، وشهوته مستعملة فيما أُبيح له وعونًا له علىٰ ما أُمر

به، لم تضرُّهُ هذه الأربعة، بل انتفع بها أعظم الانتفاع».

وقلوبنا ليست كقلب النبي ﷺ الذي غسلته الملائكة بماء زمزم، فنحتاج نحن إلىٰ غسلها وتطهيرها من الدَّغَل والأخلاط الردئية التي فيها.

والنبي ﷺ بُعث بما يزكي القلوب ويطهرها وينقيها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التزكية جعل الشيء زكيًّا؛ إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**الزكاة في اللغة**: النماء، والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء: إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربىٰ فينمو ويزيد؛ حتىٰ يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربَّىٰ بالأغذية المُصلحة له، ولابد مع ذلك من منع ما يضره؛ فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه، ومنع ما يضره، وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه؛ إلا بحصول ما ينفعه، ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩٦).

وتطهير القلب وتزكيته سبب لانتفاعه بالقرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لابد مع ذلك أن يكون القلب زكيًّا صافيًا سليمًا، حتىٰ يزكو فيه العلم، ويثمر ثمرًا طيّبًا، وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث؛ أفسد ذلك العلم، وكان كالدغل في المُزْدَرَع، إن لم يمنع الحب من أن ينبت، منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بيّن لأولي الأبصار».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أن القلوب ممتلئة بالأخلاط الرديئة، والعبادات والأذكار والتعوذات أدوية لتلك الأخلاط، كما يثير الدواء أخلاط البدن، فإن كان قبل الدواء وبعده حمية نفع ذلك الدواء، وقلَعَ الدَّاء أو أكثره، وإن لم يكن قبله ولا بعده حمْيةٌ لم يزد الدواء علىٰ إثارته، وإن أزال منه شيئًا ما، فمدار الأمر علىٰ شيئين: الحمية واستعمال الأدوية».

والمسلم في جهاده مع عدوه الشيطان الرجيم ربما أصاب من حصنه في حال غفلته؛ فواجبه صقل قلبه وتجديد إيمانه وتقويته، وإعادة حراسة حصنه وتعاهده بالحفظ كل لحظة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المؤمن لا يزال يخرج من

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ٥٤).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٦٣٥).

(٣) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ٤٨٤).

الظلمات إلىٰ النور، ويزداد هدًىٰ، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك، فيتوب مما تركه وفعله، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع، فمتىٰ لم يفرِّغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلًّا قابلًا ينزل فيه، وإن فرَّغه حتىٰ أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقِّه من الدغل لم يكن الزرع زرعًا كاملًا، بل ربما غلب الدغل علىٰ الزرع؛ فكان الحكم له، وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع، ويودع فيها البذور، وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبد قلبه وفرَّغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لمهابِّ رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه؛ كان جديرًا بحصول المغل».

ولقد أمرنا الله مع الاستقامة بالاستغفار، ووقاية الإنسان نفسه من أسباب الذنوب والشقاء موصلة إلىٰ الاستقامة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «طريق قريب موصل إلىٰ الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان:

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٩٧، ٩٨).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٣٧٧).

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر كل الحذر من إهمالها والاسترسال معها؛ فإن أصلَ الفساد كله من قبلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أَرض القلب، فإذا تمكن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرَّة بعد أخرىٰ، حتَّىٰ تصير إرادات، ثمَّ يسقيها بسقيه حتَّىٰ تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتىٰ تثمر الأَعمال.

ولا ريب أن دفع الخواطر أَيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبدُ نفسه عاجزًا - أو كالعاجز - عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرِّط إذ لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها».

فمدافعة الخواطر والأهواء والوساوس وهمزات الشيطان؛ هي من أعظم الجهاد وآكده، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلَّة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجىٰ».

وقال حاتم الأصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**الجهاد ثلاثة:** جهاد في سرّك مع الشيطان؛ حتىٰ تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض؛ حتىٰ تؤديها كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) الفوائد لأبي علي الهمذاني (ص١٣٣).

(٢) سير السلف (٣/ ١١٠٢).

وجهاد مع أعداء الله في عز الإسلام».

فالعبد في جهاد مع هواه؛ فنفسه الأمارة بالسوء تأمره بالسوء والفحشاء، ونفسه المطمئنَّة تدافع هوىٰ النفس، وإذا قويت نفسه المطمئنة غلبت نفسه الأمارة بالسوء، وهنا يجب علىٰ كل محبٍّ لنفسه الخير تزكيةُ وتقوية نفسه المطمئنَّة حتىٰ ترتاض علىٰ قهر دواعي المعاصي والبدع والشرك والفساد؛ فتستقيم النفس علىٰ الصلاح؛ فلا تأمر إلا بخير، وتسير سيرًا حثيثًا إلىٰ باريها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وخاف حكم الله فيه، ونهىٰ نفسه عن هواها، وردَّها إلىٰ طاعة مولاها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: مُنْقَلَبُه ومصيره ومرجعه إلىٰ الجنة الفيحاء».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٠٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٣٦).

حتىٰ تذهب وتضمحل، ويبقىٰ القلب خالصًا صافيًا؛ ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره».

فالقلب كالوعاء لابد من حفظه عن واردات السوء، وما يُضعفه أو يفسده، والسمع والبصر مداخل لهذا الوعاء، فإن امتلأ من ذكر الله والعلم النافع؛ حَيَا القلب بهذه المادة، وإن امتلأ من رقية الشيطان والعلم الضار؛ هلك، وإن خلط من المادتين كانت الغلبة للأكثر مادة منهما.

والله سبحانه جعل في القلب مواد الخير والشر، فالموفق من أوقد مواد الخير في قلبه، وأخمد مواد الشر فيه.

قال أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «أعجب ما في الإنسان قلبه: فيه مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أولهه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعد بالرضا نسي التحفُّظ، وإن ناله الخوف شغله الحزن، وإن أصابته مصيبة قصمه الجزع، وإن أفاد مالًا أطغاه الغنىٰ، وإن عضته فاقة شغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف؛ فكل نقص به مُضِرٌّ، وكل إفراط له مفسد».

---

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي (١/ ٤١٦).

فإذا أشرق قلب المؤمن بذكر الله، وانفسح وانشرح بنور القرآن، وعظم جلال الله وهيبته فيه؛ أخبت القلب وانقاد لطاعة الله، وتجافىٰ عن معصيته، وصارت إراداته كلها داعية للخير؛ تأمره بالمعروف وتحثه عليه، وتنهاه عن المنكر وتزجره عنه.

وكلما قويت خشية الله في القلب، وحياته بذكر الله؛ ضعفت أو انعدمت في حقه أضداد السوء؛ فلا تأمره نفسه إلا بخير، وكلما لازمت هذه التقوىٰ القلب؛ تجدَّد إيمانه، وزاد وقوي صقل القلب، والْتَذَّ بحلاوة الإيمان، وفرح برضا الله، وآثره علىٰ شهوات تعقبها حسرات، وكان هذا هو الطمأنينة التي تسكن معها دواعي النفس للعصيان.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

وإذا كانت طبيعة النفس أنها أمارة بالسوء، فليس هذا عذرًا لها في إتيان الذنوب والمعاصي؛ لأن الله خلق فيها نفسًا مطمئنة؛ فواجب المسلم تقوية إيمانه، وحراسة نفسه عن الاسترسال مع أهواء النفس الأمارة بالسوء، وكبح جماحها والتعوذ من الشيطان، وذكر الله؛ فإنه من أعظم ما يقهر دواعي الذنوب والمعاصي والشرور؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا**»، فهذا دليل واضح صريح في أن الانكفاف عن المعاصي وترك المنكرات؛ من التكليف بما يطاق.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الخير كله في هذين الحرفين: الأخذ بما أُمرتم، والنهي عما نُهيتم عنه».

فحراسة القلب من واردات الشيطان حمية له من أسباب فساده وهلاكه، والدفع أسهل من الرفع، فاستعن بالله علىٰ صيانة القلب عن وساوس الشيطان، واجعله مدحورًا، ولا تجعله منصورًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرًا جوَّالًا، فاستخدَم الإرادة، فتساعدتْ هي والفكر علىٰ استخدام الجوارح، فإن تعذَّر استخدامها رجعا إلىٰ القلب بالمُنَىٰ والشهوة، وتوجُّهه إلىٰ جهة المراد.

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر في ما لا يعني باب كل شر، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه،

---

(١) الزهد؛ لأبي حاتم الرازي (ص٦٩ - رقم٩١).

(٢) الفوائد (ص٢٥٥).

واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه.

فالفكر والخواطر والإرادة والهمَّة أحقُّ شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تقرب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك.

ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك».

والقلب حصن المسلم الذي ينبغي أن يعلم ولا يغفل أن عدوه الشيطان يريد غزوه كل لحظة، وحيثما سَنَحَت الفرصة، فلا يزال المؤمن اليقظ يحفظ دينه، ويدفع خواطر ووساوس الشيطان، حتىٰ يُبقي حصنَه محفوظًا من عدوه.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الغمرة تكون من اتباع الهوىٰ، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو»: الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر: «الغفلة» و«الشهوة».

فـ«الغفلة» عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير؛ الذي هو الذكر واليقظة».

صَقْل القلب هو الأساس في صلاح الجوارح، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن**

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٦/ ١٠١، ١٠٢).

في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»، رواه البخاري ومسلم.

وأعظم ما يقصد الشيطان ويرصد له من جنوده؛ القلوب العامرة بالتوحيد والطاعة وذكر الله، يرسل عليها جنوده في غارات متتالية، غزوة تلو الأخرىٰ، لا يهادن ولا يصانع ولا يلين، حتىٰ يحصل مراده من إفساد القلب الذي يكون سببًا في فساد الجوارح، فإن وَجَد القلب محفوظًا بذكر الله والإنابة إليه والاستعانة به في جهاد الشيطان وجنوده؛ خَنَسَ وانْدَحَر.

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا تجيء الوساوس إلا إلىٰ كل قلب عامر، رأيت لصًّا قد يأتي الخرابة ينقِّبها وهو يدخل من أي الأبواب شاء؟! إنما يجيء إلىٰ بيت فيه رزم، وقد أُقفل؛ ينقبه ليستل الرِّزمة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «تعاهد بناءَ الحصن - القلب - كلَّ وقت؛ فإنَّ العدو إذا لم يطمع في الدُّخول من الباب؛ نَقَبَ عليك النُّقوبَ من بعيد بمعاول الذُّنوب، فإن أهملت أمرَهُ وصل إليك النَّقْبُ، فإذا العدوُّ معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه علىٰ ثلاث خلال:

---

(١) سير السلف (٣/ ١٠٢٩).

(٢) الفوائد (ص٢٢٩، ٢٣٠).

إمَّا أن يغلبك علىٰ الحصن، ويستولي عليه.

وإمَّا أن يساكنك فيه.

وإمَّا أن يَشْغَلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعودَ إلىٰ سَدِّ النَّقْب ولَمِّ شعث الحصن.

وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات:

- إفساد الحصن.

- والإغارة علىٰ حواصله وذخائره.

- ودِلالة السُّرَّاق من بني جنسه علىٰ عورته؛ فلا يزال يبلىٰ منه بغارةٍ بعد غارةٍ، حتىٰ يُضعفوا قُواه، ويوهِنوا عزمه؛ فيتخلَّىٰ عن الحصن، ويُخَلِّي بينهم وبينه».

ومن أعظم وأهم ما يصقل القلوب تكرار مواعظ القرآن علىٰ القلب والسمع والبصر، وإذا تأملت القرآن وجدت الله كرَّر معانيه في مواضع كثيرة، وتجد تكراره لمهمات المواضيع أكثر بكثير مما دونه.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٨٩، ٩٠].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنه تعالىٰ يثنِّي فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب؛ فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتىٰ إنه تعالىٰ يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تُحصىٰ، فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء؛ صار حجة الله علىٰ العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون؛ فصار هدىٰ لهم يهتدون به إلىٰ أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة.

فالهدىٰ: ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح، **والرحمة**: ما ترتَّب علىٰ ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته علىٰ معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة، والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر علىٰ الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالىٰ، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٦٩)، ط: مؤسسة الرسالة، ناشرون.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، يقول: عباده الَّذين استخلصهم الله لدينه ليس لإبليس عليهم سلطان أن يُضلَّهم في دينهم، أو في عبادة ربِّهم، ولكنَّه يصيب منهم من قِبَلِ الذُّنوب، فأمَّا في الشِّرك فلا يقدر إبليس أن يُضلَّهم عن دينهم؛ لأنَّ الله سبحانه استخلصهم لدينه».

وهذا التوجيه من الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلوم لأهل التوحيد الذين تجرَّدت إراداتهم وأعمالهم لله وحده لا شريك له؛ فأكرمهم الله لإخلاصهم بحفظ أديانهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم مع هذا وجلون خائفون شديدو الحذر علىٰ توحيدهم، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن يأمن علىٰ نفسه بعد إبراهيم؟!».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه؛ فأدنىٰ شيء يخدشه ويُدنِّسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون يُؤثر فيه

---

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص١٩١).

(٢) الفوائد (ص٢٨٢).

أدنىٰ أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا؛ أدنىٰ شيء يؤثر فيها، ولهذا تُشوِّشه اللحظة واللفظة، والشهوة الخفيَّة، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلَّا استحكم وصار طبعًا يتعسَّر عليه قلعه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من عنده توحيد خالص - ليس فيه شرك - لا يمكن أن يدعَ فرائض الإسلام أبدًا؛ يعني: لا يمكن أن يدع الصلاة - مثلًا -، بل، ولا يمكن أن يدع: الزكاة، والصوم، والحج؛ ولهذا قال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من مات لا يشرك با لله شيئًا دخل الجنة**»؛ لأن نفي الشرك يعني كمال الإخلاص والتوحيد؛ ولهذا تأمل في اللفظ الثاني؛ قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يُشرك به دخل النار**»، قلت أنا - أي ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -: ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة.

وإنَّما قال ذلك ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخذًا بالمفهوم؛ وهو قوله ﷺ: «**من مات يُشرك بالله شيئًا دخل النار**»».

وفعل المحظور وترك المأمور؛ إنما يأتي من غفلة القلب أو ضعفه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال

---

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٢٩٥).

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «سبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب؛ يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتىٰ صدر خلافه؛ فلا بد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم؛ فيصير جهلًا بهذا الاعتبار».

❁ ❁ ❁

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٧).

رحمة الرؤوف الرحيم بأمته

رحم الله الخلق أجمعين بختم النبوات ببعثة محمد ﷺ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فجاء بشريعة محفوظة إلىٰ يوم القيامة، بعد أن تبدَّلت وتحرَّفت الشرائع السابقة، فأخرج الله به الناس من ظلمات الشرك والجهل؛ إلىٰ نور التوحيد والعلم والإيمان والعمل الصالح.

وفي الصحيحين - من حديث أنس وجابر وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ -: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّل كُلُّ نبيٍّ دعوته، وإنِّي اختبأت دعوتي شفاعةً لأمَّتي يوم القيامة، فهي نائلة - إن شاء الله - من مات من أمَّتي لا يُشرك بالله شيئًا**».

قال الحافظ ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله عَزَّوَجَلَّ أعطىٰ كل نبي دعوة وعد إجابتها، فجعل كل نبي منهم ﷺ مسألته؛ فأعطي سؤله في الدنيا، وأخّر نبينا ﷺ دعوته ليجعلها شفاعة لأمته؛ لفضل شفقته ورحمته، ورأفته بأمته،

(١) التوحيد (٢/ ٦٢٢).

فجزىٰ الله نبينا محمدًا ﷺ أفضل ما جزىٰ رسولًا عمن أرسل إليهم، وبعثه المقام المحمود الذي وعده؛ ليشفع فيه لأمته، فإن ربنا عَزَّوَجَلَّ غير مخلف وعده، ومنجز نبيه ﷺ ما أخَّر من مسألته في الدنيا وقت شفاعته لأمته يوم القيامة».

وقال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه ثلاثة أحاديث عن أبي هريرة، وعن أنس، وعن جابر - رضي الله عنهم أجمعين -، والمعنىٰ واحد؛ فقد أخبر النبي ﷺ: أن الله تعالىٰ أعطىٰ كلَّ نبيٍّ دعوة يستجيب له فيها في أمته، وليست دعوة خاصة له، ولكن لأمته، فكل نبيٍّ استعجل دعوته فدعا بها.

أما النبي ﷺ فإنه أجَّل دعوته ليوم القيامة؛ لتكون شفاعةً في أمته، وهذا يدل علىٰ شفقته - صلوات الله وسلامه عليه - علىٰ أمته، وعلىٰ محبته الخيرَ لها، وعلىٰ أن الأمَّة أحوج إلىٰ دعوةٍ مستجابةٍ يوم القيامة منها في هذه الدنيا؛ وإلا فمن المعلوم أن النبي ﷺ دعا دعوات كثيرة في الدنيا في أمته، واستُجيب له، ولكن هذه دعوة أعظم من كل الدعوات التي حصَلت، والناس في ذلك الوقت أحوج ما يكونون لها منهم في هذه الدنيا؛ ولهذا فإن الحديث يعتبر من أحاديث الشفاعة».

---

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٦٢٤).

وكان النبي ﷺ رحيمًا بأمته؛ يَدُلُّهم إلىٰ أسباب فوزهم بالجنة، ونجاتهم من النار، وكان يترك فعل بعض الطاعات خشية أن تُفرض علىٰ أمته فيشق عليهم، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

ومن رحمته بأمته ﷺ أنه كان يترك بعض النوافل خشية أن تُفرض علىٰ أمته فيشق عليهم، فإنه أقام الليل في رمضان ثلاث ليالٍ، ثم تركه لما رأىٰ أصحابه اجتمعوا للصلاة معه.

ورأىٰ النبي ﷺ بعض أصحابه يواصل الصيام ولا يفطر إذا غربت الشمس، فزجرهم عن ذلك؛ رحمةً بهم.

ورأىٰ بعض أصحابه شق عليهم الصيام في السفر، فأمرهم بالفطر.

وزجر من أراد أن يرغب عن الزواج ويتبتّل للطاعة.

وزجر من أراد صيام الدهر كله.

وزجر كذلك من أراد قيام الليل كله، وهكذا.

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت**: خرج النبي ﷺ من عندي وهو قرير العين، طيِّب النفس، فرجع إليَّ وهو حزين، فقلتُ له؛ فقال: «**إني دخلت الكعبة،**

وودِدْتُ أني لم أكن فعلت؛ إني أخافُ أن أكون أتعبتُ أمَّتي من بعدي». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومن رحمته ﷺ بأمته أنه ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وهذا كله من رأفته بأمته؛ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومن ذلك أنه ﷺ قال: «**إن الله كتب عليكم الحج، فحجوا**»، فقال الأقْرع بن حابس: أفي كل عام؟ فقال ﷺ: «**لو قلت: نعم؛ لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم**».

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لو أن الأمة الإسلامية قيل لها: من قدر منكم أن يحج؛ فليحج كل عام. ما الأرض التي تسعهم؟! لا تسعهم الأرض».

ومن أعظم مظاهر رحمته ﷺ بأمته: فرحه بأن يكونوا أكثر أهل الجنة؛ ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟**» فكبَّرنا، ثم قال: «**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**» فكبَّرنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن**

---

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ٤٣٨).

تكونوا شطر أهل الجنة».

وروىٰ أحمد من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومئة صفٍّ، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفًّا**».

وهذا الفضل لأمة الإسلام في أنهم أكثر أهل الجنة، مضموم إليه فضل عظيم آخر؛ وهو أن أمة الإسلام يدخلون الجنة قبل سائر الأمم؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون الأوَّلون يوم القيامة، نحن أوَّلُ الناس دخولًا الجنة**».

وهذا الفضل لأمة الإسلام منَّة إلهية في اصطفائها للإسلام، واصطفاء محمد ﷺ لختم الرسالات، الذي بُعث للناس كافة، وأرسله الله رحمة للعالمين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلىٰ الخيرات بنبيِّها محمد ﷺ؛ فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل علىٰ الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يُعطَه نبيٌّ قبله ولا رسول من الرُّسل؛ فالعمل علىٰ منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه».

ورحمة النبي ﷺ بالكفار - فضلًا عن المؤمنين - ظاهرة جدًّا؛ فإنه في فتح

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤٧).

مكة دخلها برحمة إلىٰ أقوام قاتلوه وأخرجوه من داره وماله، وقتلوا وقاتلوا من آمن بما بُعث به، وكان قد عقد اللواء يوم فتح مكة لسعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اليوم يوم الملحمة. فتحدّث العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ النبي ﷺ بذلك؛ فأخذ الراية من سعد بن عبادة وجعلها لابنه قيس - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -، وقال: «**اليوم يوم المرحمة**».

ومن رحمته ﷺ بالكفار: دعوته لهم إلىٰ الإسلام؛ الذي فيه صلاح دنياهم، ونجاتهم في أخراهم. وكان ﷺ لا يألو جهدًا في نصح الخلق أجمعين وهدايتهم إلىٰ صراط الله المستقيم.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية، وقول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ثم رفع يديه، ثم قال: «**اللهم! أمتي، اللهم أمتي!**»، وبكىٰ ﷺ، فقال الله: «**اذهب يا جبريل إلىٰ محمد ﷺ، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟**» فأتاه جبريل ﷺ فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: «**اذهب إلىٰ محمد ﷺ فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك**».

❁ ❁ ❁

حارث وهمَّام

الإنسان بطبيعته حارث وهمَّام في الأغلب، ومِن الناس مَن اختار لنفسه الكسل؛ فقصر عن السعي فيما ينفعه.

والحارث والهمَّام إن كان حرثه في الخير الديني والدنيوي، فهذا مُوفَّق، قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ: ٢٠]، وهذا ما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن أجمع التوجيهات النبوية ليكون سعي وحرث وهمُّ الإنسان فيما ينفعه؛ قوله ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الحرص علىٰ ما ينفع العبد

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٣٨).

هو طاعة الله وعبادته؛ إذ النافع له هو طاعة الله، ولا شيء أنفع له من ذلك، فكُل ما يُستعان به علىٰ الطاعة فهو طاعة، وإن كان من جنس المباح؛ قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتىٰ اللقمة تضعها في فِيِّ امرأتك**»».

وقال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**»؛ كلام جامع نافع، محتوٍ علىٰ سعادة الدنيا والآخرة.

والأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية. والعبد محتاج إلىٰ الدنيوية كما أنه محتاج إلىٰ الدينية؛ فمدار سعادته وتوفيقه علىٰ الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالىٰ، فمتىٰ حرص العبد علىٰ الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها؛ كان ذلك كماله، وعنوان فلاحه. ومتىٰ فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة؛ فاته من الخير بحسبها.

فمن لم يكن حريصًا علىٰ الأمور النافعة، بل كان كسلان - لم يدرك شيئًا؛ فالكسل هو أصل الخيبة والفشل؛ فالكسلان لا يدرك خيرًا، ولا ينال

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص٤٨، ٤٩).

مكرمة، ولا يحظىٰ بدين ولا دنيا. ومتىٰ كان حريصًا، ولكن علىٰ غير الأمور النافعة: إما علىٰ أمور ضارة، أو مفوتة للكمال؛ كان ثمرة حرصه الخيبة، وفوات الخير، وحصول الشر والضرر؛ فكم من حريص علىٰ سلوك طرق وأحوال غير نافعة، لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء!

ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها، واجتهد فيها؛ لم تتم له إلا بصدق اللجء إلىٰ الله، والاستعانة به علىٰ إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل علىٰ نفسه وحوْله وقوَّته؛ بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره علىٰ ربه؛ فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج والثمرات الطيِّبة في أمر الدين وأمر الدنيا».

❁ ❁ ❁

بالالتجاء إلى اللّه تدرك رحمته

الهداية من الله، ولها أسبابها، والمعصوم من عصمه الله، والله يستخلص عباده لعبوديته ويصطفيهم لطاعته إذا أقبلوا عليه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: من علم أني ذو قدرة علىٰ مغفرة الذنوب؛ غفرت له، ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئًا**»(١).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة؛ إلا كان له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمَ الله**».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٣٣٠).

وعصمة الله لعبده تكون بافتقاره والتجائه إليه؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾، أي: لجؤوا إلىٰ الله واعتمدوا عليه، وتبرَّؤوا من حَوْلِهم وقوَّتهم، واستعانوا بربهم، ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ أي: فسيتغمَّدهم بالرحمة الخاصَّة؛ فيوفِّقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات، ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: ومن لم يؤمن بالله، ويعتصم به، ويتمسَّك بكتابه؛ منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلَّىٰ بينهم وبين أنفسهم، فلم يَهْتَدوا، بل ضلُّوا ضلالًا مبينًا؛ عقوبةً لهم علىٰ تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمانُ، نسأله تعالىٰ العفو والعافية والمعافاة».

فبالالتجاء إلىٰ الله وسؤاله، والقيام بالعمل الصالح؛ تتيسر للمسلم سبل الخيرات، وأسباب فعل الطاعات واستباق الخيرات؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾ [الليل: ٥-٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٨٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تكرَّر في القرآن جعْلُ الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سببَ الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدىٰ اقتضاء السبب لمسبِّبه، والمؤثِّر لأثره، وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تُثمر الهدىٰ، وكلَّما ازداد منها ازداد هدًىٰ، وأعمال الفجور بالضدِّ.

وذلك أن الله سبحانه يُحبُّ أعمال البرِّ فيجازي عليها بالهُدىٰ والفلاح، ويُبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضَّلال والشَّقاء.

وأيضًا فإنه البَرُّ ويحبُّ أهل البرِّ، فيُقرِّب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويُبْغض الفجور وأهله، فيُبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور».

وكان نبينا ﷺ يدعو بالرحمة لمن استبق الخيرات في فعل الطاعات؛ ففي الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: «**اللهم ارحم المُحَلِّقِين**»، قالوا: والمُقَصرِّين يا رسول الله؟ قال: «**اللهم ارحم المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**والمقصرين**».

❁ ❁ ❁

(١) الفوائد (ص١٨٨).

الديوان المغفور والديوان غير المتروك

الذنوب نوعان: كبائر وصغائر؛ قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]

والكبائر تتفاوت؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر!**».

وفي الصحيحين: أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال للنبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**».

والذنوب نوعان: نوع في حق الخالق، ونوع في حق المخلوق، والذنب الذي يكون في حق الخالق؛ السلامة من آثاره تكون بالتوبة، أما حق المخلوق فلابد معه من عفو المخلوق.

قال النبي ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: من لا درهم له ولا متاع!

قال: «**المفلس: من ضرب هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، فأخذوا من حسناته، فإذا فنيت طرحوا سيئاتهم عليه**».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه؛ من عرضه أو شيء منه، فليتحلَّله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحُمل عليه**». رواه البخاري.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه: أن المظالم عظيم أمرها، شديد شأنها؛ لأنها تعود ديونًا لبشر ذوي نفوس أحضرت الشح باللوم، فليس يطمع طامع في أن يترك له حقوقها إلا وهو كالقابض بكفه علىٰ الماء.

وفيه أيضًا: أنه إذا خلت الأكف في القيامة من الأغراض التي كانت يتعاطاها الناس في الدنيا، ويتظالمون فيها؛ انتقل جنس الأثمان إلىٰ الحسنات، فأخذ منها ما يقوم به المظالم، فإن لم يكن للظالم حسنات وُضع عليه من سيئات خصمه ما يقوم به أيضًا مظلمته؛ ليخف عن المظلوم، ويتضاعف الثقل علىٰ الظالم؛ عملًا بالحق، ووزنًا بالقسط».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الظلم عند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة له دواوين ثلاثة:

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٣٨).

(٢) الوابل الصيِّب (ص٤٠، ٤١).

- ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشِّرك به؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

- وديوان لا يترك الله تعالىٰ منه شيئًا، وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا؛ فإن الله تعالىٰ يستوفيه كله.

- وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا؛ فإنه يمحىٰ بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ونحو ذلك. بخلاف ديوان الشرك؛ فإنه لا يُمْحىٰ إلا بالتوحيد. وديوان المظالم لا يُمْحىٰ إلا بالخروج منها إلىٰ أربابها، واستحلالهم منها.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ حرَّم الجنة علىٰ أهله، فلا تدخل الجنة نفسٌ مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد، فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها، وكذلك إن أتىٰ بمفتاح لا أسنان له لم يُمْكِن الفتح به.

وأسنان هذا المفتاح هي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، فأيُّ عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد، وركَّب فيه أسنانًا من الأوامر؛ جاء يوم القيامة إلىٰ باب الجنة

ومعه مفتاحها الذي لا تُفتح إلا به، فلم يُعقه عن الفتح عائق. اللهم إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار؛ فإنه يُحبس عن الجنة حتىٰ يتطهر منها، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده فلا بد من دخول النار؛ ليخرج خبثه فيها، ويتطهر من درنه ووسخه، ثم يخرج منها فيدخل الجنة، فإنها دار الطيبين، لا يدخلها إلا طيِّب».

❁ ❁ ❁

استحضار مشهد النعمة والشكر يُدخل في رحمة اللّه

خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لعبادته؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأسبغ الله علينا نعمه الظاهرة والباطنة، حتىٰ عجزنا عن إحصائها، فضلًا عن أداء حقها؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ومن أعظم النعم: نعمة العقل، والعافية، والهداية والاصطفاء للإسلام.

فاستحضار مشهد النعمة يوجب الشكر، وأداء حق الله في هذه النعم، والحياء من الله أن نكفرها، والاستعانة بنعمه علىٰ معصيته.

فليهنأ المسلم بنعم الله، وليؤدِّ شكرها؛ فإن ذلك من أسباب حفظها، وجلب المفقود منها، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وحال الناس في الدنيا هو عنوان حالهم في الآخرة؛ فثواب المؤمنين في الآخرة بحسب أعمالهم في الدنيا؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾

فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٧-١٩].

فكل نعم الدنيا إنما جعلها الله لعباده ليستعملوها في طاعته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ٧].

فمن لم يقم بحق الله في نعمه؛ كان بمنزلة الأنعام تأكل وتشرب؛ تلذذًا، أو دفعًا لسورة الجوع والعطش، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه أنزل المال ليُستعان به علىٰ إقامة حقه بالصلاة، وإقامة حق عباده بالزكاة، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام».

وكان النبي ﷺ شديد الاستحضار لمنَّة الله في نعمه عليه، قائمًا بحقها، مسارعًا في الخيرات وفعل الطاعات؛ فكان يقوم الليل حتىٰ تتفطر قدماه، فتقول له زوجه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا مشفقة عليه: أتفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال النبي ﷺ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»، متفق عليه.

وهكذا سيد الحنفاء خليل الرحمن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإن الله نعته بأكمل صفاته؛ فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٥٠).

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، فهو قانت لله؛ أي: مقيم علىٰ طاعته.

ونعم الله علينا لا نحصيها لكثرتها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قال بعض العلماء: سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها(١).

ومن أعظم نعم الله علينا: أن كلفنا شكره بما نستطيع، ولم يكلفنا شكره بما يوازي نعمه، فإنه لو كلفنا ذلك لهلكنا! قال النبي ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله!**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**».

ولذلك علَّمنا النبي ﷺ أن نقول: «الحمد لله غير مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّع ولا مستغنًىٰ عنه، ربنا»، رواه الحاكم، وصححه ابن حبان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله، فضلًا عن موافاته جميع نعمه».

ولذلك عند الحساب يوم القيامة يأتي العبد ربه، فيُعرِّفه نعمه، فيقول:

---

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٢٩).

(٢) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢١٨).

«**ماذا عملت بها**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الله سبحانه أنعم علىٰ عبده علىٰ قدره، وكلفهم الشكر علىٰ قدرتهم».

فالشكر لله يكون بتحقيق التوحيد والثبات عليه، وإقرار القلب بأن النعم كلها من الله، واستعمال الجوارح في طاعة الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، وانطلاق اللسان بالتحدث بنعم الله، وذكره وشكره عليها باللسان، ال تعالىٰ ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فيجمع العبد في شكره لربه بلسان الحال ولسان المقال، وإن رضا الرب في شكره؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزمر: ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «شكر نعمه التي أنعم بها عليه؛ فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه، وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه، وأنه محتاج إلىٰ عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وأما شهود النعمة؛ فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلًا، ولو عمل أعمال الثقلين، فإن نعم الله سبحانه أكثر من

---

(١) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٠٢).

(٢) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٣٠).

(٣) عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٣١).

أعماله، وأدنىٰ نعمة من نعمه تستنفد عمله، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

فمشاهدة العبد النعمةَ والواجبَ لا تدع له حسنة يراها، ولا يزال مُزريًا علىٰ نفسه ذامًّا لها، وما أقربه من الرحمة إذا أعطىٰ هذين المشهدين حقهما، والله المستعان».

وقال شيخنا العلامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سَدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا؛ فإنه لا يُدْخِل أحدًا الجنَّة عملُه**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**».

يُبيِّن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن دخول الجنة، والنجاة من النار؛ ليس ذلك بمجرَّد العمل، ولكن المعوَّل في هذا: رحمة الله سبحانه، ومغفرته عَزَّوَجَلَّ، وعفوه؛ ولهذا قال: «**سَدِّدُوا وقاربوا**»؛ يعني: افعلوا السداد والمقاربة لما وجب عليكم وأُمرتم به، وأبشروا بالخير، وأبشروا بالرحمة والفضل من الله.

ولكن بيَّن ﷺ أنه ليس العُمدة علىٰ مجرَّد العمل، بل علىٰ عفوه سبحانه ورحمته ومغفرته؛ ولهذا قال: «**واعلموا أنه لا يدخل الجنة أحد منكم**

(١) حديث المساء (ص٣٥٦ - ٣٥٨).

بعمله»، واللفظ الآخر: «**لا يدخل الجنة أحد منكم بعمل**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**».

هذا يوجب للإنسان الخوف من الله، والرجاء، والحذر من الاتِّكال علىٰ العمل، والعُجْب بالعمل، أو المِنَّة بالعمل، فالعمل سبب، كما قال سبحانه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، يعني: بأسباب أعمالكم، قال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، قال تعالىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]؛ بأسباب أعمالهم الطيِّبة، ولكن الموجب والمقتضي هو رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومغفرته وعفوه، جَلَّ وَعَلَا.

فعلىٰ المؤمن أن يجتهد في طاعة الله، والتسديد، والعناية، والاستقامة، وسؤال الله التوفيق والقبول، والحذر من أسباب الهلاك، ثم يكون معوَّلُه علىٰ رحمة الله وعفوه جَلَّ وَعَلَا، قبل كل شيء، لا علىٰ مجرَّد عمله؛ فإن أعماله لو قُوبلت بنعمة من نعم الله لاستوفتها، ولكنه سبحانه ذو الفضل العظيم، والمغفرة والرحمة، يجود علىٰ عباده، ويتقبَّل القليل، ويعفو عن الكثير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي بعض الروايات: «**لن يدخل أحدٌ بعمله الجنة**»؛ فالباء هذه باء العِوَض؛ ليس دخوله الجنة بعِوَضِ عمله، وبمقابل عمله، ولكنه برحمة ربه سبحانه، وجوده وكرمه ومغفرته، أما عمله فهو سبب، ليس بعِوَض، ولكنه

سبب لرحمة الله، سبب لعفو الله، سبب لمغفرته، فالله أمر بالأعمال الصالحات، وبترك السيئات، وجعل لك سببًا لمغفرته ورحمته، جعله سببًا لعفوه، جعله سببًا لدخول الجنَّة والنجاة من النار، متىٰ قَبِلَها سبحانه ورضيها؛ رحم عبده بذلك، وغفر له سبحانه، وعفا عنه جَلَّ وَعَلَا؛ فأدخله الجنة، وأنجاه من النار؛ ولهذا قال: «**سدِّدوا وقاربوا، وأبشروا**»، في لفظ آخر: «**سَدِّدوا وقاربوا، واغْدُوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة، والقصد القصد تبلغوا**»، «**واعلموا أنَّه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: يا رسول الله! ولا أنت؟! قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل**».

هكذا ينبغي للمؤمن أن يكون معلِّقًا قلبه بالله، وبرحمته، وعفوه، وفضله، وجوده، وكرمه، ولكنَّه مع ذلك جادٌّ في الأسباب، آخذٌ بالأعمال الصالحات، متَّقٍ لربه، مجتهد في طاعته، متباعد عن معاصيه، واقف عند حدوده، يرجو ثوابه، ويخشىٰ عقابه، لكنه لا يمُنُّ بعمله، ولا يُعجب بعمله، ولا يرىٰ أن عمله هو الموجبُ، ولكنَّ الموجب لدخوله الجنة والنجاة من النار؛ فضل ربِّه ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجوده وكرمه الذي جعله سبحانه مقتضًىٰ وموجبًا لتلك الأسباب الصالحة، والأعمال الطيِّبة، وترك المحارم، والتوبة إلىٰ الله منها؛ فهذا كله هو السبب، والمعوَّلُ علىٰ رحمته وعفوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

والهداية للعلم النافع والعمل الصالح والثبات علىٰ ذلك إلىٰ الخاتمة؛ هو من توفيق الله، فمن تولاه الله الولاية الخاصة هداه وزكَّاه وكمَّله، ويوم القيامة يُكرِّمه.

فالشأن - أيها المسلم - أن تبتهل إلىٰ الله في هدايتك إلىٰ العلم النافع والعمل الصالح، وأن تقوم بالأسباب التي توجب لك ولاية الله.

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رحمه الله[1]: «﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ [السجدة: ٢٦] ليس لأحد ولي من دون الله، حتىٰ الكفار وليُّهم الله عَزَّوَجَلَّ، وحتىٰ المؤمنون وليهم الله عَزَّوَجَلَّ قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

والله ولي كُلِّ أحد، وهذه هي الولاية العامة، أليس الله تعالىٰ يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السموات والأرض؟! وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟!

هذه ولاية، ويتولىٰ المؤمنين أيضًا بذلك؛ لكن هذه ولاية عامة.

أما الولاية الخاصة فهي للمؤمنين؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) تفسير القرآن العظيم سورة الكهف (ص٥٣، ٥٤).

يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والولاية الخاصة تستلزم عناية خاصة؛ أن الله يسدِّد العبد، فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح؛ ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾. يخرجهم بالعلم، فيعلمهم أولًا، ويخرجهم ثانيًا بالتوفيق».

وقال تعالىٰ، مبيِّنًا أن ولايته تُدرَك بالإقبال عليه وطاعته: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ الذي تولىٰ تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم علىٰ طاعته، ويسَّر لهم كل سبب موصل إلىٰ محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف مَنْ أعرض عن مولاه واتَّبع هواه؛ فإنه سلَّط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه».

۞ ۞ ۞

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٧٧).

الرحمة تكون مع الصبر على الطاعة

رحمة الله تُدرك بإتيان مراضيه، واجتناب مساخطه، والله خلقنا في هذه الدنيا من أجل هذا الاختبار، قال تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

ومن الاختبار: أن النار حُفت بالشهوات، والجنة حُفت بالمكاره. وما كان من الحرام مما جعله الله في هذه الدنيا جعل الله لعباده غنية عنه في الحلال؛ قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه؛ منكرًا عليهم التجارة بالحرام بتطفيف المكيال، حاثًّا لهم علىٰ الكسب الحلال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال الصحابة للنبي ﷺ: أيأتي أحدنا شهوته وله أجر؟! قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟!، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرًا**»، والأمر في اختبار التكليف في الدنيا يسير وقريب، فهو يسير، فالتكاليف كلها يسيرة، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهو قريب؛ فالدنيا

انقضاء مكث أهلها فيها سريع إذا ما قورن بخلود الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

فساعة تعمل فيها لتدرك نعيمًا أبديًّا مقيمًا، هو سبب رحمتك لنفسك، ورحمة الله بك.

وساعة الطاعة التي تعمر دنياك بها سبب سعادتك في الدينا قبل الآخرة، تلتذ بالطاعة، وتألف جوارحك الطاعات، وتأنس بذكر الله، وما تورثه الطاعة من رحمة الله ورضاه، وانشراح الصدر، والبركة في البدن والوقت والمال هو من أعظم أسباب الصبر علىٰ الطاعة والفرح وقرة العين بها.

والكافر حبس نفسه في شؤم كفره وشركه، وضلَّ سعيه في الحياة الدنيا؛ المؤمنون يسعون في عتق رقابهم من النار، وهو ساعٍ إلىٰ النار بكفره وشركه، وائتماره لهواه الذي جعل غاية سعيه في هذه الدنيا تحصيل ملذات شهواته، ولو من حرام، مع ما يورثه شركه ومعاصيه من حسرات.

فالكافر ضيَّع آخرته بدنياه التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار».

والمؤمن أدرك خيري الدارين الدنيا والآخرة؛ عمل بطاعة ربه في الدنيا، وسعد بهذه الطاعة التي أورثته السعادة العظمىٰ في الآخرة، قال الله في شأن عباده المؤمنين الصالحين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وروىٰ مسلم في صحيحه - من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -: أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنَّة الكافر**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «طالبُ اللهِ والدارِ الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبُه إلا بحبسين:

حبسُ قلبه في طلبه ومطلوبه.

وحبسُه عن الالتفات إلىٰ غيره.

وحبس لسانه عما لا يفيد.

وحبسُهُ علىٰ ذكر الله وما يزيدُ في إيمانه ومعرفته.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٦٢).

(٢) الفوائد (ص٧٤).

وحبسُ جوارحه عن المعاصي والشهوات.

وحبسُها علىٰ الواجبات والمندوبات.

فلا يُفارقُ الحبسَ حتىٰ يلْقىٰ ربَّهُ، فيخلصُه من السجن إلىٰ أوسع فضاءٍ وأطيبه.

ومتىٰ لم يصبر علىٰ هذين الحبسين وفرَّ منهما إلىٰ فضاء الشهوات؛ أعقبَهُ ذلك الحبسَ الفظيعَ عند خروجه من الدُّنيا.

فكلُّ خارج من الدُّنيا: إما متخلِّصٌ من الحبس، وإما ذاهب إلىٰ الحبس».

فأنت - أيها المسلم - متىٰ جاهدت نفسك علىٰ طاعة الله، وصبرت علىٰ ذلك؛ فرحت بالله، وفزت برضاه، وذلك خير لك في دنياك وآخرتك.

❁ ❁ ❁

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾

من رحمة الله وعدله وفضله: أن ثواب الناس بحسب أعمالهم؛ فأهل الجنة وإن امتازوا عن الكافرين؛ فهم في الجنة درجات بحسب أعمالهم وفضلهم؛ فالسابقون السابقون درجاتهم أعلىٰ من المقتصدين، فمن كان أفضل عملًا كان أعظم ثوابًا ممن دونه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «السابقون إلىٰ طاعة الله تعالىٰ، السابقون إلىٰ رحمة الله».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

ومن علم أن ثواب الأفضل عملًا أعظم؛ أوجب له ذلك استباق الخيرات؛

---

(١) رموز الكنوز (٧/ ٥٩١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن هؤلاء المستكثرين من الطاعات، الذائقين لروح العبادة، الراجين ثوابها؛ قد رُفع لهم عَلَمُ الثواب، وأنه مسبب عن الأعمال؛ فشمروا إليه».

ومن استوجب دخول النار من الموحدين لا يكون عذابه كعذاب الكافرين، لا في صفة العذاب، ولا في مقداره، فالكفار يخلدون في النار، وعذابهم فيها أشد العذاب، والمؤمنون من يدخل النار منهم لا تمس النار مواضع السجود منهم.

قال الحافظ ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «محال أن يكون المؤمن الموحِّد لله عَزَّوَجَلَّ قلبه ولسانه، المطيع لخالقه في أكثر ما فرض الله عليه، وندبه إليه من أعمال البر غير المفترض عليه، المنتهي عن أكثر المعاصي، وإن ارتكب بعض المعاصي والحوبات؛ في قسم من كفر بالله ودعا معه آلهة، أو جعل له صاحبة أو ولدًا - تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا -، ولم يؤمن أيضًا بشيء مما أمر الله بالإيمان به، ولا أطاع الله في شيء أمره به من الفرائض والنوافل، ولا انزجر عن معصية نهىٰ الله عنها؛ محال أن يجتمع هذان في درجة واحدة من النار.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢١٥).

(٢) التوحيد (٢/ ٨٣٤، ٨٣٥).

والعقل مركب علىٰ أن يعلم أن كل من كان أعظم خطيئة وأكثر ذنوبًا، لم يتجاوز الله عن ذنوبه؛ كان أشد عذابًا في النار، كما يعلم كل عاقل أن كل من كان أكثر طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ، وتقربًا إليه؛ بفعل الخيرات واجتناب السيئات؛ كان أرفع درجةً في الجنان، وأعظم ثوابًا، وأجزل نعمة، فكيف يجوز أن يتوهم مسلم أن أهل التوحيد يجتمعون في النار في الدرجة مع من كان يفتري علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فيدعو له شريكًا أو شركاء؟!!».

فالمؤمن الذي عرف حق ربّه وقام به وجاهد نفسه علىٰ طاعة الله حتىٰ ارتاضت جوارحه علىٰ الطاعة فكرهت المعاصي تسارع إلىٰ الخيرات طلبًا لأعلىٰ الدرجات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمَّارةً، ونفسًا مطمئنَّةً، وهما متعاديتان؛ فكلُّ ما خفَّ علىٰ هذه ثَقُل علىٰ هذه، وكلُّ ما التذَّت به هذه تألَّمت به الأخرىٰ.

فليس علىٰ النفس الأمَّارة أشقُّ من العمل لله، وإيثار رضاه علىٰ هواها، وليس لها شيء أنفع منه.

وليس علىٰ النفس المطمئنَّة أشقُّ من العمل لغير الله، وإجابة داعي

(١) الداء والدواء (ص٣٦٠، ٣٦١).

الهوىٰ، وليس عليها شيء أضرَّ منه.

والملَك مع هذه عن يمنة القلب، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب.

والحرب مستمرَّة لا تضع أوزارها إلىٰ أن تستوفي أجلَها من الدنيا.

والباطل كلُّه يتحيَّز مع الشَّيطان والأمَّارة، والحقُّ كلُّه يتحيز مع الملَك والمطمئنَّة.

والحرب دُوَل وسجال، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتَّقىٰ الله؛ فله العاقبة في الدنيا والآخرة. وقد حكمَ اللهُ حكمًا لا يُبَدَّلُ أبدًا: أنَّ العاقبةَ للتَّقوىٰ، والعاقبةَ للمتَّقينَ».

وقال العلامة أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٤٤٩هـ)؛ في الفرق بين عذاب الموحدين والكافرين في النار[1]: «كان شيخنا سهل بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: المؤمن المذنب، وإن عُذب بالنار؛ فإنه لا يُلقىٰ فيها إلقاء الكفار، ولا يبقىٰ فيها بقاء الكفار، ولا يشقىٰ فيها شقاء الكفار.

ومعنىٰ ذلك: أن الكافر يُسحب علىٰ وجهه إلىٰ النار، ويُلقىٰ فيها منكوسًا في السلاسل والأغلال والأنكال الثقال، والمؤمن المذنب إذا ابتُلي بالنار؛ فإنه يدخل النار كما يدخل المجرم في الدنيا السجن علىٰ الرِّجْلِ، من

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص٢٧٦ - ٢٧٨).

غير إلقاء وتنكيس.

ومعنىٰ قوله: [لا يلقىٰ في النار إلقاء الكفار]: أن الكافر يحرق بدنه كله، كلما نضج جلده بُدِّل جلدًا غيره ليذوق العذاب؛ كما بيَّنه الله في كتابه في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

وأما المؤمنون فلا تلفح وجوههم النار، ولا تحرق أعضاء السجود منهم؛ إذ حرم الله علىٰ النار أعضاء سجودهم.

ومعنىٰ قوله: [لا يبقىٰ في النار بقاء الكفار]: أن الكافر يخلَّد فيها، ولا يخرج منها أبدًا، ولا يخلد الله من مذنبي المؤمنين في النار أحدًا.

ومعنىٰ قوله: [لا يشقىٰ في النار شقاء الكفار]: أن الكفار يُؤَيَّسُونَ فيها من رحمة الله، ولا يُرجَّونَ راحة بحال.

وأما المؤمنون فلا ينقطع طمعهم من رحمة الله في كل حال، وعاقبة المؤمنين كلهم الجنة؛ لأنهم خُلقوا لها، وخُلقت لهم، فضلًا من الله ومنَّة».

ومع العلم بالفرق بين عذاب الموحدين والكافرين في النار؛ فالواجب علىٰ المسلم أن يسعىٰ في نجاة نفسه من النار مطلقًا؛ فإنه لا يطيق من عذابها شيئًا، وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: «**يُؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا فيُغمس في النار غمسة واحدة، فيقال: هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا**».

إن رحمة اللّه قريب من المحسنين

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فيه تنبيه ظاهر علىٰ أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته، ورحمته قريب من المحسنين؛ الذين فعلوا ما أُمروا به من دعائه خوفًا وطمعًا، فقربُ مطلوبكم منكم وهو الرحمة؛ بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان؛ الذي هو في الحقيقة إحسانٌ إلىٰ أنفسكم؛ فإن الله تعالىٰ هو الغني الحميد، و﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾».

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه؛ فدلالته بمنطوقه علىٰ قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه علىٰ أن هذا القرب مستحقٌّ

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٦٠ - ٨٦٢).

بالإحسان؛ فهو السببُ في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه علىٰ بُعد الرحمة من غير المحسنين؛ فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختصَّ أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسانٌ من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالىٰ إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته.

وأما من لم يكن من أهل الإحسان؛ فإنه لما بَعُدَ عن الإحسان، بعدَتْ عنه الرحمة؛ بُعدًا ببعدٍ، وقُربًا بقربٍ، فمن تقرَّب بالإحسان تقرَّب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحبُّ المحسنين، ويبغض مَن ليس من المحسنين، ومن أحبَّه الله فرحمته أقربُ شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان هاهنا هو فعل المأمور به؛ سواء كان إحسانًا إلىٰ الناس، أو إلىٰ نفسه، فأعظم الإحسان: الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلىٰ الله، والإقبال عليه، والتَّوَكُّل عليه، وأن يعبدَ الله كأنه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً؛ فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ؛ وقد سأله جبريل عن الإحسان؛ فقال: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه**»، وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه؛ فإن الله إنما يرحمُ أهل توحيده المؤمنين به.

وإنما كتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والذين يتَّبعون رسوله ﷺ؛ فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون.

وكما أحسنوا جُوزوا بالإحسان، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يُحْسن ربُّه إليه؟».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الإحسان يقتضي قربَ الرَّبِّ من عبده، كما أن العبد قَرُبَ من ربِّه بالإحسان، وأن من تقرَّب منه شبرًا؛ تقرَّب الله منه ذراعًا، ومن تقرَّب منه ذراعًا؛ تقرب منه باعًا، فالربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قريب من المحسنين، ورحمتُه قريبةٌ منهم، وقربُهُ يستلزمُ قربَ رحمته، ففي حذف التاء[٢] هاهنا تنبيه علىٰ هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن الله تعالىٰ قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القُربين: قربَه وقربَ رحمته، ولو قال: «إن رحمة الله قريبة من المحسنين»، لم يدُلَّ علىٰ قربه تعالىٰ منهم؛ لأن قربَهُ تعالىٰ أخصُّ من قرب رحمته، والأعمُّ لا يستلزم الأخصَّ، بخلاف قربه؛ فإنه لما كان أخصَّ استلزم الأعمَّ، وهو قرب رحمته».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٨٢ - ٨٨٣).

(٢) يعني: تاء (قريب).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متممًا**[١]: «قُرْبُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من المحسنين، وقُرْب رحمته منهم متلازمان، لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر، فإذا كانت رحمته قريبةً منهم فهو أيضًا قريب منهم، وإذا كان المعنيان متلازمين صحَّ إرادةُ كلِّ واحد منهما، فكان في بيان قُرْبه سبحانه من المحسنين من التَّحريض علىٰ الإحسان، واستدعائه من النفوس، وترغيبها فيه غايةُ حظٍّ لها وأشرفه وأجلُّه علىٰ الإطلاق، وهو أفضل عطاءٍ أُعطيه العبدُ، وهو قربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من عبده الذي هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وقرَّة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلِّها؛ فكان في العدول عن «قريبة» إلىٰ «قريب» من استدعاء الإحسان؛ وترغيب النفوس فيه؛ ما لا يتخلَّف بعده إلا من غَلَبَتْ عليه شقاوتُهُ، ولا قُوةَّ إلا بالله تعالىٰ».

❁ ❁ ❁

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٨٣).

الرحمة والشفقة للمسلمين

المؤمنون إخوة، هذا نعتهم الذي ذكرهم الله به؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وهم بأخوتهم هذه يتراحمون ويتناصحون بينهم، ويشفق بعضهم علىٰ بعض؛ ففي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم؛ كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو؛ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**».

فرحمتك وشفقتك بإخوانك المسلمين هي رحمة بجسدك، ومتىٰ أدركت الأمة شعور الجسد الواحد؛ قوي جانبها، وتراحم المسلمون بينهم، وهذا أيضًا من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، وهو من التواصي بالحق؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

وعقيدة المسلمين الموجبة لآصرة الأخوة بينهم، والتناصر والتعاضد؛ هي الولاء في الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]؛

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّما عبد الله من يرضيه ما يُرضي الله، ويُسخطه ما يُسخط الله، ويُحبُّ ما أحبَّه الله ورسوله ﷺ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ﷺ، ويوالي أولياء الله، ويُعادي أعداء الله».

وقال الله في صفة المؤمنين: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال أيضًا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال النبي ﷺ مبيِّنًا ما يوجب حفظ آصرة الأخوة بين المسلمين، وتقويتها، وتنميتها: «**حق المسلم علىٰ المسلم...**»؛ أي أن هذه الحقوق أوجبتها أخوة الإسلام، وآصرة العقيدة.

ومن أعظم الصفات والأخلاق الجامعة لمعاني الأخوة الموجبة لتقوية آصرة المحبة والرحمة بين المسلمين؛ هي أن «**تحب لأخيك ما تحب لنفسك**»؛ وبذلك سبق الصحابة من بعدهم في تحقيق أصدق معاني الأخوة في الله، لأنهم أَقْوَمُ بالعقيدة التي أوجبت الولاء للمؤمنين، ولأنهم أهل إيثار، والخلوف من بعدهم أهل أثرة، إلا من رحم الله.

وأحرىٰ الناس بالاستغفار لهم، والدعاء بالرحمة: العصاة من المؤمنين؛ فإن المتقين والسابقين الذين رجحت حسناتهم علىٰ سيئاتهم هؤلاء أعمالهم

---

(١) العبودية (ص٨٢).

تبلغ بهم الجنة، والمقصرون والمفرطون أحوج إلىٰ دعاء واستغفار يدفع الله بسببه عنهم العذاب، من أجل هذا ادَّخر النبي ﷺ شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن أحق من أستغفر له المذنب».

وقال أبو عثمان النهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنما جُعلت الرحمة للذنوب».

واستغفر أبو محمد حبيب البصري الزاهد لأهل الإساءة، فعُوتب في ذلك، فقال: فلمن أدعو؟ أَلِلْحَسَنِ وابن سِيرِينَ؟!![3].

يعني: أن الحسن وابن سيرين - رحمهما الله - أعمالهما تبلغ بهما الجنة، وتنجيهما من النار - إن شاء الله -.

علىٰ كل حال: الاستغفار للمسلمين، والدعاء لهم بالرحمة؛ هو من أفضل أنواع الإحسان إلىٰ الخلق، والله يجازي بالإحسان إحسانًا، وهو من حقوق المسلمين بعضهم علىٰ بعض.

قال تعالىٰ في شأن معاملة المؤمنين للصحابة السابقين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي

(١) حسن الظن بالله، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ١١٢ - رقم١٢٣).

(٢) حسن الظن بالله، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ١١٢ - رقم١٢٢).

(٣) حسن الظن بالله، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ١١٣).

قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المعنىٰ المقتضي لذلك يَعمُّ الصحابة وسائر طبقات الأمة، إذ كُلُّ طبقة متأخِّرة ينبغي أن تستعمل مع الطبقة المتقدمة معنىٰ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾».

❁ ❁ ❁

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص١٦١).

لا تقنِّط الناس من رحمة اللّه وترجوها لنفسك

بعض الناس خُلُقُهُ لئيم، بسبب ما فيه من الحسد لعباد الله المؤمنين، يرجو رحمة الله لنفسه دون سائر المؤمنين.

قال ابن أبي عائشة: قال بعضهم[1]: لا تشغلك ذنوب الناس عن ذنبك، ولا تشغلك نِعَمُ الناس عن نعم الله عليك، ولا تقنِّط الناس من رحمة الله وأنت ترجوها لنفسك.

وأكثر من يقع منه هذا الخُلُق هو اللئيم الوضيع، إذا تنسَّك بعد ضلالة وفسق، أو بدعة، وكان واجبه: أن يستشعر منَّة الله عليه؛ إذ أدركه برحمته، فهداه بعد ضلالة.

وهذا الصنف من الناس كان الأحرىٰ بهم أن يكونوا أشد رأفة ورحمة للمسلمين، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٩٤].

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٥٢٧ - رقم ١٧٨٧).

وكان خيار السابقين أعظم الناس رجاءً للمسلمين أن تدركهم رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ قال عبد الله بن عَوْنٍ البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: ما رأيت أحدًا كان أعظم رجاءً للموحِّدين من محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يتلو هؤلاء الآيات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ويتلو: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧]، ويتلو: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥، ١٦].

ومعنىٰ كلام ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المسلمين أهل توحيد وتصديق لله، وأهل صلاة، ليسوا كالكافرين الذين استكبروا عن التوحيد وطاعة الله، وكذبوا رسله؛ فالمسلمون أهل الإسلام أرجىٰ لرحمة الله.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جئت إلىٰ سفيان الثوري عشية عرفة، وهو جاثٍ علىٰ ركبتيه وعيناه تَهْمِلان، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالًا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم[2].

وقال أبو حازم سلمة بن دينار المَدِيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «مِن أعظم خَصْلة

(١) حسن الظن بالله، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ٨٣ - رقم ٦٦).

(٢) لطائف المعارف (ص٣٩٩).

(٣) حسن الظن بالله، مجموع مؤلفات ابن أبي الدنيا (١/ ٩٧).

تُرجىٰ للمؤمن: أن يكون أشد خوفًا علىٰ نفسه، وأرجاه لكل مسلم».

فرحمة الله رحمة نرجوها لكل مسلم، وبهذا حاجَّ معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المِسْوَر بن مَخْرَمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنه لما أتىٰ معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وخلا به، وطلب منه أن يخبره بجميع ما ينقمه عليه، فذكر له المسور جميع ما ينقمه عليه، فقال: ومع هذا، يا مسور! ألك سيئات؟ قال: نعم.

قال: أترجو أن يغفرها الله؟ قال: نعم.

قال: فما يجعلك أرجىٰ لرحمة الله مني؟!

وإني مع ذلك، والله ما خُيِّرت بين الله وبين غيره إلا اخترت الله علىٰ غيره، والله لَمَا أَلِيَهُ من الجهاد وإقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل من عملك، وأنا علىٰ دين يقبل من أهله الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات، فما جعلك أرجىٰ لرحمة الله مني؟

قال المسور بن مخرمة: فخصمني[1].

ورحمة الله من لوازم ربوبيته؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ختم الآية بِاسْمَيْنِ كريمين، دالَّيْن علىٰ سعة رحمته، وعموم مغفرته، وسعة إحسانه، وعميم إحسانه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته؛ فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق، وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذِّبه، فلم يختمها باسمين أحدهما دال علىٰ الرحمة، والثاني دال علىٰ النقمة؛ بل ختمها باسمين، كلاهما يدل علىٰ الرحمة؛ فله تعالىٰ رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يُدرك لها وصف؛ فنسأله تعالىٰ أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين».

والرحمة من لوازم ربوبية الله، والله رب العالمين، ورحمته وسعت كل شيء، وتقنيط الناس من رحمة الله سوء ظن برب العالمين، ومن أساء الظن بالله؛ أرداه سوء ظنه في النار، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

ومن رجىٰ رحمة الله لنفسه خاصة، وقنَّط الناس منها؛ فهذا لغروره وفساد توحيده، والمؤمنون سيرون من رحمة الله في الدار الآخرة للمسلمين عمومًا؛ ما لا يُدرك ولا يُحدُّ، وكل ذلك من آثار الإيمان بأسماء الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٤٢).

الحسنىٰ العظيمة؛ كالعفوِّ، والغفور، والتوَّاب، والرحيم، والودود، وغيرها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإذا تجلَّىٰ بصفات الرحمة والبرِّ واللطف والإحسان؛ انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أملُهُ، وقوي طمعه».

وكم في نصوص القرآن والسنة ما يوجب الرجاء والرحمة للمسلمين عمومًا، ويقطع مادة الغرور علىٰ الخلق لأي فضل كان من استباق الخيرات؛ فشبَّه النبي ﷺ «المؤمن» بشجرة النخل، كلها خير وبركة، وقال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**» رواه البخاري. وقال تعالىٰ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [النساء: ٩٥].

وحصور القلب من رحمة الله لخلق الله؛ بعيد من رحمة الله، وبعيد مما كان عليه النبي ﷺ من الرحمة لأمته؛ فإنه ﷺ قال: «**إني لأرجو أن تكونوا أكثر أهل الجنة**».

ومن الإيمان بيوم البعث، ويوم المعاد، ويوم الحساب: الإيمان بظهور مُلْك الله العظيم في ذلك اليوم ظهورًا لم يكن قبله ولا بعده قط؛ قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وهذا المُلك في هذا اليوم

---

(١) الفوائد (ص٩٨).

العظيم ملك رحمة للمؤمنين؛ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

والله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، فتظهر رحمات الله العظيمة التسعة وتسعين التي ادَّخرها لعباده المؤمنين في الدار الآخرة؛ ما يوجب تعاظم حمده أكثر وأكثر، فيحمد المؤمنون ربهم في الآخرة؛ لعفوه ورحمته ومغفرته وفضله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

فالحمد لله في الأولىٰ الذي أورثنا الأرض نتبوأ منازل الجنة حيث نشاء، والحمد له علىٰ نعمة الهداية للإسلام والتوفيق للعمل الصالح؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «منه ابتدأت النعم وإليه انتهت؛ فابتدأت بحمده، وانتهت إلىٰ حمده، وهو الذي ألهم عبده التوبة، وفرح بها أعظم فرح، وهي من فضله وجوده، وأَلْهَمَ عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها، وهي من فضله وجوده».

❁ ❁ ❁

(١) الفوائد (ص٢٦٧).

قال اللّه للجنة:
أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال النبي ﷺ: «**قال الله** عَزَّ وَجَلَّ **للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي، أُعذب بك من أشاء من عبادي. ولكل واحدة منهما ملؤها**».

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يسعرها غضب الله، وخطايا بني آدم».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا يقتضي أن تسعير جهنم حيث سُعِّرت إنما سُعِّرت بخطايا بني آدم التي تقتضي غضب الله عليهم، فتزداد جهنم حينئذ تلهُّبًا وتسعرًا.

هذا، وكما أن بناء دور الجنة وغرس الأشجار يحصل بأعمال بني آدم الصالحة من الذكر وغيره، وكذلك حسن ما فيها من الزوجات وغيرهن يتزايد

(١) التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار (ص٧٥، ٧٦).

بتحسين الأعمال الصالحة، فكذلك جهنم؛ تُسعَّر وتزداد آلات العذاب فيها بكثرة ذنوب بني آدم وخطاياهم، وغضب الرب تعالىٰ عليهم؛ نعوذ بالله من غضب الله، ومن النار، وما قرَّب إليها من قول وعمل، بمنِّه وكرمه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ورحمته: اسم جامع لكلِّ خيرٍ، وعذابه: اسم جامع لكلِّ شرٍّ، ودار الرَّحمة الخالصة ؛ هي الجنَّة، ودار العذاب الخالص ؛ هي النَّار، وأمَّا الدُّنيا فدار استدراجٍ.

فالرَّجاء وإن تعلَّق بدخول الجنَّة، فالجنَّة: اسم جامع لكلِّ نعيمٍ، وأعلاه النَّظر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

❁ ❁ ❁

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٣٩٩).

البدعة مضادة للرحمة

البدعة إفساد للدين، وهي من أسباب حبوط العمل؛ ففي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - واللفظ لمسلم -: قال النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**».

والمبتدع مضاد للشريعة مستدرك عليها، وهي كاملة في نفسها؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. والنبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين كما أمره الله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فجاء المبتدع ولم تسعه السُّنَّة؛ فخرج إلىٰ البدعة والإحداث في الدين.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المبتدع معاند للشرع، ومشاق له؛ لأن الشارع قد عيَّن لمطالب العبد طرقًا خاصة علىٰ وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن

(١) الاعتصام (١/ ٦٢).

الشر في تعدِّيها إلىٰ غيرها؛ لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمةً للعالمين، فالمبتدع رادٌّ لهذا كله».

فمن أراد الرحمة فليلزم السنة التي بُعث بها النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. والاتِّباع للنبي ﷺ دليل محبته؛ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولا يخرج المسلم عن اتباع النبي ﷺ إلا لنقص علمه وجهله بالسنة، أو لسوء قصده وفساد نيَّته مع علمه بها.

والله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده؛ هداهم وفطرهم علىٰ الإسلام، وبيَّن لهم بوحيه وشرعه الصراط المستقيم والطريق الموصل للجنة، ولم يترك عباده هملًا حتىٰ يبتدع المبتدعون طرق الضلال؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥].

قال العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله تعالىٰ إذا منَّ علىٰ قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالىٰ يتمم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم؛ ففي هذا دليل علىٰ كمال رحمته،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٦٧).

وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه».

فالرحمة والهدىٰ والخير في اتِّباع الوحي، والشقاء والضلال والشر في الابتداع؛ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ﴾ [سبأ: ٥٠].

والمبتدع زيغه وبال عليه وعلىٰ الأمة إذا كان داعيًا لبدعته، فيلحقه ويلحق الناس العنت؛ لابتداعه وخروجه عن حد الاعتدال، وأعظمهم شرًّا المفارق للجماعة، المستحل لدماء وأموال المسلمين.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**من خرج علىٰ أُمَّتي يضربُ برَّها وفاجرها، ولا يتحاشىٰ من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده؛ فليس مني، ولست منه**» رواه مسلم.

والمبتدع زُين له سوء عمله فرآه حسنًا، فلا يتركه إلا أن يهديه الله؛ لأنه يظن بدعته دينًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال أئمَّة المسلمين، كسفيان الثَّوريِّ وغيره: إنَّ البدعة أحبُّ إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأنَّ البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها.

ومعنىٰ قولهم: إنَّ البدعة لا يُتاب منها: أنَّ المبتدع الَّذي يتَّخذ دينًا لم

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (ص٢٩٧، ٢٩٨).

يَشْرعه الله ورسوله، قد زيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا؛ فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا؛ لأنَّ أوَّل التَّوبة العلم بأنَّ فعله سيِّئ؛ ليتوب منه، أو بأنَّه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجابٍ، أو أمر استحبابٍ؛ ليتوب فيفعله.

فما دام يرىٰ فعله حسنًا وهو سيِّئ في نفس الأمر؛ فإنَّه لا يتوب، ولكنَّ التَّوبة منه ممكنة وواقعة، بأن يهديه الله ويُرشده حتَّىٰ يتبيَّن له الحقُّ، كما هدىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هدىٰ من الكفَّار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضَّلال، وهذا يكون بأن يتَّبع من الحقِّ ما علمه».

❁ ❁ ❁

المغالطة في رحمة الله وعفوه

إِلْفُ المعصية وقسوة القلب وغلبة الهوىٰ واستيلاء الشهوة ورَقْدَة الغفلة؛ تجعل العاصي معرضًا عن الله، سائرًا في أماني عفو الله ورحمته بتسويف التوبة، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي.

وهذه مغالطة في عفو الله ورحمته؛ فإن الله تواب غفور رحيم لمن تاب وإليه أناب، أما من أصر علىٰ أسباب سخط الله بما يجترحه من الذنوب والمعاصي والآثام؛ فهذا واجبه أن يبادر إلىٰ إدراك أسباب رحمة الله، بالإقبال علىٰ الله والتوبة والإنابة والاستقامة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن العبدَ يعرف أن المعصيةَ والغفلةَ من الأسباب المُضِرَّة له في دنياه وآخرتهِ، ولا بُدَّ، ولكنْ تغالِطُهُ نفسُه بالاتِّكال علىٰ عفو الله ومغفرته تارةً، وبالتسويفِ بالتوبةِ تارة، وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوباتِ تارةً، وبالعلم تارةً، وبالاحتجاجِ بالقَدَرِ تارةً،

(١) الداء والدواء (ص٣١).

وبالاحتجاجِ بالأشباهِ والنظراء تارةً، والاقتداءِ بالأكابِرِ تارة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كاتكال بعضهم علىٰ صَوْمِ يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتىٰ يقولَ بعضهم: يوم عاشوراء يُكفر ذنوب العام كلَّها، ويبقىٰ صومُ يومِ عرفة زيادةً في الأجر.

ولم يَدْرِ هذا المغترُّ أنَّ صومَ رمضان والصلوات الخمس أعظمُ وأجلُّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنَّما تُكَفِّر ما بينهما إذا اجْتُنِبَتِ الكبائر.

فرمضانُ إلىٰ رمضانَ، والجمعةُ إلىٰ الجمعةِ؛ لا يَقْوَىٰ علىٰ تكفير الصغائر إلَّا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوىٰ مجموعُ الأمرين علىٰ تكفير الصغائر.

فكيف يُكفِّر صومُ يوم تطوُّع كلَّ كبيرة عملها العبد، وهو مصرٌّ عليها غير تائب منها؟! هذا مُحالٌ.

علىٰ أنَّه لا يَمْتَنِعُ أن يكون صومُ يومِ عرفة ويوم عاشوراء مُكَفِّرًا لجميع ذنوب العام علىٰ عمومه، ويكونَ من نصوص الوعد التي لها شروطٌ وموانعُ، ويكونَ إصرارهُ علىٰ الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يُصِرَّ علىٰ الكبائر تساعَدَ الصومُ وعدمُ الإصرار وتعاونا علىٰ عموم التكفير؛ كما كان رمضانُ والصلواتُ الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين علىٰ

(١) الداء والدواء (ص٣٤، ٣٥).

تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ **دافعًا هذه المغالطة الكبرىٰ**(١): «وبالجملة: فحسن الظن إنَّما يكون مع انعقاد أسباب النجاح، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك؛ فلا يتأتَّىٰ إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتىٰ ذلك، ويكون مستندُ حسن الظن سعةَ مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأنَّ رحمته سبقتْ غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضرُّه العَفْو.

قيل: الأمرُ هكذا، واللهُ فوق ذلك، وأجلُّ وأكرم وأجوَد وأرحم. ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزة، والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة.

فلو كان معوَّلُ حُسنِ الظنِّ علىٰ مجرد صفاته وأسمائه؛ لاشترك في ذلك البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرمَ أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرّض للعنته، وأوضعَ في محارمه، وانتهك حرماته؟!

بل حسن الظن ينفع من تاب، وندم وأقلع، وبدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حسَّن الظنَّ. فهذا حسن الظن، والأول غرور!».

(١) الداء والدواء (ص٣٧، ٣٨).

الخاتمة

هكذا يسّر الله بيان رحمة الله لعباده في الدنيا، وما ادّخره لهم في الآخرة، وبيان التلازم بين الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان برحمة الله التي ستظهر ظهورًا يتطاول لها المشركون رجاء أن تدركهم فضلًا عن عصاة الموحّدين.

بيّنت رحمة الله لخلقه في التكليف والتشريع؛ فأحكام الله وحدوده كلها عدل؛ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

حذّرت من القنوط من رحمة الله، وذكرت طرق إزالة آثار سخط الله، وأسباب إدراك رحمة الله؛ فسوء الظن بالله يُبعد من رحمته، ورحمة الله إنما تُدرك بحسن الظن بالله، والقيام بأسباب إدراك رحمة الله.

علىٰ كل حال؛ كل مخلوق له قدرة تامة، وإرادة جازمة، تُمكّنه أن يجعل دنياه وآخرته رحمة، فالعبد إذا رحم نفسه رحمه الله، فرحمته وشقاؤه هو طائره الذي في عنقه.

رحمة الله عظيمة؛ يجزي السيئة بمثلها فقط، وإذا تاب المسلم منها بدّلها الله حسنات، والحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة.

فمن أراد رحمة الله فليتعرض لأسبابها، وليستعن بالله في عبادته وطاعته؛ فإنه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

والملائكة تستغفر للذين آمنوا؛ فالموفّق من كان كذلك، والشيطان تصيبه الحسرات لمغفرة الله لخلقه المؤمنين، فالرحمة والشفقة للمسلمين سبب لأن يشملك الله برحمته؛ فالله يرحم من عباده الرحماء، وجزاء الإحسان الإحسان.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

❁ ❁ ❁

دليل الموضوعات

المقدمة	٥
الرحمة	٧
غفور رحيم	٢١
مائة رحمة	٢٢
الإيمان بالله واليوم الآخر، وبرحمة الله؛ متلازمان	٢٨
الحساب يوم القيامة بالرحمة	٣٤
الرحمة العامة والخاصة	٣٨
الرجاء لرحمة الله يكون بالقيام بالسبب الموجب للرحمة	٤٣
رحمة الله للخلق بإرسال محمد ﷺ	٤٩
رحمة الله لخلقه في التكليف والتشريع	٥٨
التأسيس الصحيح والتجديد يوصل إلىٰ الجنة	٧٥
التوحيد أعظم سبب لإدراك الرحمة	٧٨
حليم غفور لا يعاجل بالعقوبة	٨٨
رحمة الله سبقت غضبه	٩٤

اجعل دنياك رحمة ولا تجعلها لعنة	١٠١
ارحم نفسك يرحمك الله	١٠٩
لا تشرد علىٰ الله شرود البعير	١٢١
لا تقنطوا من رحمة الله	١٢٩
من أكبر الكبائر القنوط من رحمة الله	١٣٤
لا قنوط من رحمة الله، ولا جرأة علىٰ معاصيه	١٣٦
رحمة الله لا ممسك لها	١٤٠
رحمتك وشقاؤك هو طائرك الذي في عنقك	١٤٧
سنفرغ لكم أيها الثقلان	١٥٣
أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون	١٥٦
مناظرة بين مسلم ونصراني في سعة رحمة الله	١٥٩
مناظرة بين خارجيَّين في رحمة الله	١٦٢
إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين	١٦٦
فاستقيموا إليه واستغفروه	١٧٠
الضمانة من شرور الدنيا وأهوال الآخرة	١٧٩
الرحمة لغير اللَّعان	١٨١
وهو الذي يقبل التوبة عن عباده	١٨٣
يرجون رحمته ويخافون عذابه	١٨٦

احذر الفترة والغفلة! ١٩٠
الرحمة للكافرين والمبتدعين والعاصين ١٩٩
ربٌّ يغفر الذنب ويأخذ به ٢٠٧
تنال رحمة الله بطلب العلم ٢١٢
تُنال رحمةُ الله بالاستغفار ٢١٦
اتِّباع القرآن سبب لإدراك رحمة الله ٢١٩
تنال رحمة الله برحمة عباده ٢٢٣
طريق الجنة ٢٣٧
تيسير فعل الطاعات برحمة الله ٢٤٢
تنال رحمة الله بالالتجاء إليه ٢٤٨
تبديل السيئات بالحسنات ٢٥١
رحمة الله تُدرك بدوام اللجْء إلىٰ الله ٢٥٤
سوء الظن بالله يُبعد عن رحمته ٢٦٠
العُجْب والغرور يقطع عن العبد توفيق الله ٢٦٩
نغرف من نهر جارٍ ٢٧٧
الداء والدواء ٢٨٢
بمحاذرة أسباب الشر تدرك رحمة الله ٢٨٤
نار الآخرة تُطفأ كنار الدنيا ٢٨٨

عند الله الرحمة والسعة وعند البعض الضيق والمشقة	٢٩٢
إبليس يكره الرحمة لعباد الله	٢٩٥
تُدرَك الرحمة بلزوم دين الصحابة	٢٩٨
رحمة الله بخلقه بإمدادهم بعُدة جهاد عدوهم	٣٠٢
رحمة الله بما قضاه من معارضة الباطل للحق	٣٠٧
كُرَبُ الدنيا حسنات ومكفرات ورفعة درجات	٣٠٩
التعرض لرحمة الله	٣١٩
رحمة الله بكشف الضر عن عباده	٣٢٢
أمة مرحومة	٣٢٦
العقل رحمة ونعمة	٣٣٢
ترجيح الفضل علىٰ العدل	٣٤٢
عبودية لابُدَّ منها	٣٤٦
اصطفاء الرحمن ملائكته للاستغفار لعباده	٣٥٦
الفرار من الله إليه	٣٥٨
الرحمة سعادة تتضمن العفو والمغفرة والإحسان	٣٦١
رحمة الله نرجو	٣٦٥
رحمة الله خلقه في تيسير أسباب إصلاح ما مضىٰ	٣٦٨
أعظم رحماته ونعمه اصطفاؤنا للإسلام والسنة	٣٧١

لا يغلق بابه دون عباده ٣٧٥
لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ٣٧٧
ما منع نعمه عن الكفرة فضلاً عن العصاة ٣٨٠
إن الله لا يظلم مثقال ذرَّة ٣٨٨
صقل القلوب صمام أمان من الزلل والفتن ٣٩٢
رحمة الرؤوف الرحيم بأمته ٤١٥
حارث وهمَّام ٤٢١
بالالتجاء إلىٰ الله تدرك رحمته ٤٢٤
الديوان المغفور والديوان غير المتروك ٤٢٧
استحضار مشهد النعمة والشكر يُدخل في رحمة الله ٤٣١
الرحمة تكون مع الصبر علىٰ الطاعة ٤٤٠
ولكل درجات مما عملوا ٤٤٤
إن رحمة الله قريب من المحسنين ٤٤٩
الرحمة والشفقة للمسلمين ٤٥٣
لا تقنِّط الناس من رحمة الله وترجوها لنفسك ٤٥٧
قال الله للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي ٤٦٣
البدعة مضادة للرحمة ٤٦٥
المغالطة في رحمة الله وعفوه ٤٦٩

الخاتمة ٤٧٢

دليل الموضوعات ٤٧٥

❁ ❁ ❁